أنور الجندي

مفكرون وأدباء من خلال آثارهم

الطبعة الأولى

دار الإرشاد
للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ٦٣٤٧ - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مُفكرونَ وأُدباءُ مِنْ خِلال آثارهِم

مدخل

مجال البحث : العالم العربي من المغرب الى العراق .

زمن البحث : بعد الحرب العالمية الثانيــــة .

ما يزال الأدب العربي المعاصر يقدم كل يوم نتاجاً جديداً وأعلاما جددا ، وما يزال يوسع مجالاته ويعمقها في دراسات التاريخ والأدب والتراث والترجمة والنقد والقومية العربية والتراجم والدراسات الاسلامية. ومنذ اواخر الحرب العالمية الثانية الى اليوم لا تزال صورة الأدب العربي كله لم تكتب ، ذلك انها لا تزال في مجرى تفاعلها وتطورها الذي لم يثبت بعد على صورة شاملة .

لذلك كان لا بد من إلقاء أضواء على الكتّاب الذين لمعت أسماؤهم في هذه الفترة من خلال آثارهم ، ليكون بمثابة إطــار للصورة التي لم ترسم بعد ، ومن شأن هذا العمل ان يكشف عن وجوه التفاعل والحركة في مجال الأدب ، وأن يصور مختلف القضايا والتيارات الجديدة والقديمة والمتجددة . ومن هنــا كانت هذه « الباقة » من الأدباء على مستوى العالم العربي بمثابة أضواء كاشفة للطريق .

وتمثل هذه الدراسات وحــدة متكاملة من ناحية مظاهر التطور في مجــال

الدراسات الأدبية ، ومن ناحية تكامل اجزاء الوطن العربي في فكر كتّابه وابحاثهم .

ذلك أنــه منذ انتهت الحرب العالمية الثانية برزت في العالم العربي مفاهيم جديدة واتسعت آفاق للبحث والثقافة ، وكان لتحرر معظم اجزاء العالم العربي أثرها في تعميق مجالين للعمل الأدبي :

(١) الاول هو تحقيق التراث واحيائه وإعادة النظر فيه وتجديده في صورة التراجم وكتابة التاريخ .

(٢) الثاني هو الاقتباس والنقل والترجمة من الآداب الغربية ، على اطلاقها.

ثم جرى في ضوء هذين التيارين مقابلة والتقاء وانصهار للقديم والجديد ، هذا الانصهار ما يزال يتكيف بعد في صورته النهائية بما يحقق بروز فجر جديد للفكر العربي متحرر من الجمود والتغريب معاً .

وأبرز ما تتسم به الدراسات في هذه الفترة التي لا تقل عن عشرين عاماً هو أعمال الموسوعات والدراسات الجادة الضخمة . كما تبدو في هذه المرحلة ظاهرة التخصص ، فهذا أدب الطفل ، وهذا أدب قناة السويس ، وهذا تاريخ المغرب الكبير ، وهذه دراسات الأندلس . ثم هناك دراسات القومية العربية وقد اتسع نطاقها وتعمق مجراها ، ثم أعمـــال التراجم التاريخية بارزة في أعمال عـــدد كبير من الباحثين .

واذا كان مجال الدراسة هو [فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية الى اليوم] فليس معنى هذا أنها قاصرة على الكتاب الذين ظهروا في هذه الفترة وحدها ، بل على العكس من ذلك فإن عدداً كبيراً من الكتّاب الذين لمعت أسماؤهم قبل هذه الفترة قد استطاعوا في هذه المرحلة أن يقدموا أعمالاً جديدة تميزوا بها عن

المرحلة السابقة من حياتهم الفكرية ، وأن أعلاما قد كان لهم تاريخ طويل قد استمروا في مجال العمل وقدموا دراسات جديدة ، ومعنى هذا ان فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية إنما تعني تصويراً لتفاعل الباحثين وأبحاثهم في فترة تبدأ من عام ١٩٤٦ الى اليوم ، ومذهبي في كتابة هذه الدراسات هي الربط بين الكاتب وآثاره ، إيماناً بأن صورة الكاتب لا تكتمل في عمل واحد من اعماله ، وان دراسة عمل من أعماله لا يكفي لإعطاء صورة واضحة له .

ولقد كان في تقديري دائماً ان لا نفصل بين المؤلف ومؤلفاته ، بل نواجه المؤلف وآثاره في نظرة شمولية متكاملة ، ذلك أن كتاباً ما لا يستطيع ان يعطي صورة كاملة عن الكاتب ، والكاتب إنما يعرف في مجموع آرائه وآثاره ، وان عرض أي كتاب منفصلاً عن طوابع كاتبه قد يحجب عن القارىء جزءاً من الصورة التي قد تساعد على فهم الكتاب نفسه .

واذا كان لنا ان نقول كلمة في مجال الدراسات الأدبية في هذه الفترة من خلال الشخصيات التي اخترناها ، فاننا نجد أن الأدب العربي المعاصر يتطور ناحية الجد والدراسة العلمية والاثراء بالجديد من البحث وبالجدد من التراث ، وهذا يعني أن المثقف في هذه المرحلة يستطيع أن يجد بين يديه عشرات من المراجع والأبحاث التي تيسر له الغذاء الثقافي على نحو لم يصل اليه مثقفو الأجيال السابقة . اما مجموع الاعلام الذين ضمتهم هذه الدراسة فهم ألمع الشخصيات البارزة في مجال الأدب العربي المعاصر في هذه الفترة . وان انتاجهم هو عصارة الأدب العربي في هذه المرحلة .

ومن الحق ان نذكر أن هناك عديد من الأدباء الذين برزوا في هذه المرحلة من هم جديرون بالدراسة ، غير ان هذا السفر لا يعد إحصاء شاملاً للعصر أو دراسة كاملة للمرحلة ، وانما هو محاولة لرسم إطار لصورة هذا العصر من خلال مجموعة منتقاة تمثل رؤوس الموضوعات المختلفة في هذه الفترة ونماذج لأعلام المدارس المختلفة . وان هناك كثيرون يمكن أن ينضموا الى هذه القطاعات .

واني لأرجو أن يتاح لي تقديم حلقة أخرى تضم مجموعة أخرى من كتاب هذه المرحلة : قدماء وجدداً على مستوى العالم العربي كله .

ويسرني أن أتلقى ما فاتني من آثار ودراسات عن هؤلاء الاعلام لضمها الى الأجزاء القادمة، حتى يمكن أن تكتمل الصورة بما يعين الباحثين في الحصول على المادة التي تساعدهم على العمل

هذا ولا بأس أن نشير هنا الى ان « موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر » ، التي صدر منها حتى الآن ١٨ مجلداً قد إستطاعت ان تجري مسحاً [١] شاملاً قريباً من الكمال للأدب العربي في العالم العربي منذ أوائل النهضة ١٨٧١ تقريباً الى أوائل الحرب العالمية الثانية . وان هذه الدراسة التي بين يدي القارىء اليوم هي أول عمل فيما بعد فترة الموسوعة .

وبالله التوفيق .

أنور الجندي

الهرم – القاهرة (يناير ١٩٦٧)

---

(١) ضمت الموسوعة دراسة عن ٤٠٠ من أعلام الأدب والوطنية والفكر والاجتماع .

مفكرون وأدباء
من خلال آثارهم

١ – أبو الفضل ابراهيم	تحقيق التراث
٢ – ابراهيم الابياري	تطور اللغة وبعث التراث
٣ – الدكتور أحمد الحوفي	دراسات الاسلام والقومية
٤ – أحمد حسين	الوحدة الانسانية
٥ – أحمد الشرباصي	التراجم وشكيب أرسلان
٦ – أحمد عطية الله	الموسوعات ودوائر المعارف
٧ – الدكتور أحمد غلوش	الدعوة الى الإسلام
٨ – الدكتور أحمد شلبي	الدراسات الإسلامية
٩ – الدكتور بدوي طبانه	دراسات النقد الادبي
١٠ – حمدي حافظ	السياسة العالمية
١١ – خالد محمد خالد	بين الحرية والتراجم
١٢ – خير الدين الزركلي	« الأعلام »
١٣ – خيري حماد : (الاردن)	الترجمة الى العربية
١٤ – الدكتور زكي علي	الدعوة الى الإسلام
١٥ – عبد العزيز بنعبد الله (المغرب)	التحقيق اللغوي والتاريخي
١٦ – عامر محمد بحيري	الملاحم الشعرية

١٧ - عمر الدسوقي	تطور الأدب العربي
١٨ - عبد العزيز الدسوقي	الشعر الحديث
١٩ - عبد الله كنون : (المغرب)	تراجم أعلام المغرب
٢٠ - عز الدين الأمين (السودان)	دراسات النقد الأدبي
٢١ - علي أدهم	الترجمة والدراسات الإنسانية
٢٢ - الدكتور عمر فروخ (لبنان)	الفكر العربي والتراجم
٢٣ - علي الجندي	الشعر ونقد الشعر
٢٤ - قدري حافظ طوقان (الاردن)	ايقاظ العقل العربي
٢٥ - كامل السوافيري (فلسطين)	شعر فلسطين
٢٦ - كامل الكيلاني	أدب الطفل
٢٧ - محب الدين الخطيب	مجلة الفتح
٢٨ - الدكتور محمد صبري	الادب العربي المجهول
٢٩ - الامير مصطفى الشهابي (سوريا)	الموسوعات اللغوية
٣٠ - محمد صبيح	دراسة القومية العربية
٣١ - محمد عبد الغني حسن	التراجم الذاتية
٣٢ - محمد عطا	مذاهب جديدة في الادب
٣٣ - محمد علي دبوز (الجزائر)	تاريخ المغرب الكبير
٣٤ - محمد عبد الله عنان	الإسلام والأندلس
٣٥ - الدكتور محمد محمد حسين	تطور الادب
٣٦ - الدكتور مصطفى الحفناوي	تاريخ قناة السويس
٣٧ - هلال ناجي : (العراق)	الزهاوي وشعره
٣٨ - وديع فلسطين	قضايا الفكر العربي
٣٩ - الدكتور يوسف عز الدين (العراق)	الأديب العربي والثورة

(٣٩ شخصية)

(١)

أبو الفضل ابراهيم
تحقيق التراث

لا أعتقد أن الباحث في الادب العربي المعاصر يستطيع أن يتجاوز عملا ضخماً في مجال احياء التراث وبعثه ، مثل العمل الذي قام به العلامة محمد أبو الفضل ابراهيم خلال أكثر من ثلاثين عاماً في تحقيق أكثر من ٣٠ كتاباً من ذخائر الأدب العربي بلغت مجلداتها سبعون مجلداً في عمل دائب لا يتوقف ، ومع ثقة لا حد لها من القارىء المثقف بأمانة التحقيق العلمي ، ومع صدق ويقين لا حد له بالعمل نفسه ، وايمان غاية في العمق بالفكر العربي الإسلامي ومقوماته والآثار الضخمة المترتبة على احياء التراث وبعثه . فإذا أضفنا الى هذا أن باحثنا مؤلف أيضاً ، وأن له عدداً من الدراسات التي أضاف بها جديداً بلغت مجلداتها (١٤ مجلداً) بدت شخصية العلامة محمد أبو الفضل ابراهيم عملاقة في مجاليه .

والحق أن العمل في ميدان « إحياء التراث وبعثه وتجديده » من أشق الاعمال ، وقد زاوله كثير من الباحثين بالإضافة الى أعمالهم الأساسية ، فكان مصدر مشقة لهم ، فما بالك بباحث يتجرد لهذا العمل ويتوفر عليه ويجعله كل مشغلته خلال ليله ونهاره لا يفرغ .

من هنا كان من حق الباحثين أن يصلوا الى أعماق العلامة أبو الفضل ابراهيم، وأن يعرفوا الدوافع التي أتاحت له أن يقصر عمله الأدبي على التحقيق وبعث التراث، وان يجد فيه متعة وأن يستعذب على متاعبه ومشاقه .

يقول : « ترجع صلتي بالتراث العربي وكتبه الأصلية الى النشأة الأولى وما وقع لي بعدها من ملابسات وظروف ، فقد كان أول ما قرأت من الكتب في القرية مما كان يقتنيه أبي — رحمه الله — في هذا الشأن (ديوان الحماسة) ، مما اختاره أبو تمام من شعر الجاهليين والإسلاميين ، فتعلقت بالأدب العربي في أجمل أساليبه وأكرم معانيه ، ثم قرأت كتاب إحياء علوم الدين : للغزالي . ومنه نهلت الثقافة الإسلامية في أعذب مورد وأصفاه ، ثم كانت دراستي في الأزهر ودار العلوم وفيها أخذت بأسباب العلوم العربية والإسلامية على أوسع نطاق .

ثم شغلت بعض وظائف تتصل بالتراث إزددت فيها خبرة واطلاعاً ، فقد عملت مديراً للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية ، وكان لهذا القسم غاية بعيدة المدى في النشر والتحقيق، ومنهج مدروس للكتب والموسوعات، ورسالة سامية كريمة نحو الثقافة العربية لها كل الوسائل من وفرة المراجع وتعدد المخطوطات وأنواع الفهارس ، الى مطبعة خاصة لها تقاليد في الطبع عريقة ، فكانت منشوراته تملأ الخافقين ، يترقبها الناطقون بالضاد والمشتغلون بالعربية من شتى الجهات ، والى ساحته كان يقصد أعيان العلماء من الأقطار العربية والمستشرقون في اوروبا وأمريكا وغيرهم من الشعراء والأدباء والكتاب ورجال الأزهر والجامعات، وفيه كانت تعقد الندوات وتدور المناقشات وتتفتح الآمال نحو الكتب والنشر والتحقيق .. ثم كنت مديراً للشئون المكتبية ، وفي هذا العمل تمكنت من معرفة الكنوز المخبوءة من الكتب ومن الاطلاع على النفائس والنوادر مما تقتنيه الدار أو تحويه مكتباتها الخاصة مثل التيمورية والزكية والشنقيطية ومكتبة حليم والحسيني وغيرها عدا ما اجتلبته الدار بالتصوير من شتى مكتبات العالم .. ثم كان عملي الآن رئيساً للجنة احياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى

للشئون الإسلامية على منهج علمي أصيل ، تسير به في موكب النهضة العربية وتشارك في الوثبة الثقافية الحاضرة ، بما تبعثه من تراث عربي أصيل وما تثير به في الشباب من الاعتزاز بأمجادهم البعيدة وماضيهم الذهبي العتيد ...

كل هذه العومل مجتمعة وثقت علاقتي بالتراث العربي ، حتى أصبحت هذه العلاقة شغفاً وغراماً ، وجعلتني أؤمن إيماناً اكيداً بتاريخ الأمة العربيـة في شتى ميادين الثقافة والحضارة ، كما آمنت أنه لا يمكن لهذا التاريخ أن يعرف على الوجه الصحيح الا اذا نشرت النصوص العربية نشراً سليماً علمياً على أوسع نطاق ، وأصبح حتما على من إستطاع الى ذلك سبيلا أن يقوم بواجبه على قدر جهـده وهذا هو الذي دعاني أن اقيد حياتي الأدبية في هذا الميدان » .

* * *

وعند العلاّمة أبو الفضل ابراهيم أنه لا يظن أن هناك لغة من اللغات زخرت بموروث الثقافة والفكر والمعرفة والعلم ما يوجد باللغة العربية في مختلف الميادين ، مما صنعه الادباء والدارسون وشاركوا به في دفع موكب الحضارة والسير بالمجتمع الانساني الى غايات الحق الخير والجمال .

ومن قبل إختراع الطباعة بمئات السنين كان الكتاب العربي ينتشر بواسطـة النسخ ، وهو العلم الذي اصطلح على تسميته قديماً بإسم الوراقـة ، فما تكاد تصدر الكتب عن مؤلفيها حتى يسارع هؤلاء بكتابتها وانتساخ عدد منها ، وتصحيحها وتجليدها وتذهيبها ، ثم تنتشر في سائر الانحاء وتصل الى خزائن الخلفـاء والأمراء ، ومن هؤلاء الورّاقين علماء اشتهروا بجودة الخط والتفوق فيه ، منهم أبو موسى الحامض ، وأبو عبد الله الكرماني ، وابن الهيثم ، وعبد الله ابن ابراهيم الخيري ، وأبو غسان ، وأبي عبيدة وغيرهم . وهو عالم ضخم واسع الآفاق . فقد كان للرشيد والمأمون والبرامكة والخلفاء الفاطميين وملوك الأندلس «وراقون» يختصون بنسخ الكتب لخزائنهم .

ويرى العلامة أبو الفضل ابراهيم وهو يروي قصة التراث العربي : ان مـدار الجودة عند هؤلاء كان وضوح الخط وسلامته وامانة الناسخ ومدى علمه وفقهه ، ومن دلائل صحة المخطوطة أن تكون بخط مؤلفها أو مما قرىء عليه وأجازه ، أو بما وقع لها من المقابلة والمطالعة .

وقد ظلت دولة الوراقة رائجة حتى أنشئت أول مطبعة عربية في الآستانة ١٤٨٥م . ثم انتشرت المطابع في سوريا ولبنان ومصر ، وكلما ازدادت الطباعة إزدهاراً تقلص ظل الوراقة .

ويستطيع العلامة أبو الفضل ابراهيم أن ينظر نظرة شاملة كلية الى التراث العربي ، ممثلاً في تلك الخزائن الضمخة العتيدة في مكتبات المتحف البريطـاني في لندن والمكتبة الاهـلية في باريس والاسكوريال بأسبانيا وشتى مكتبات الاستانة ودمشق والمدينة المنورة وصنعـاء وطهران والرباط وتونس والمغرب والجزائر ، وان يعرف هذا الكتاب او ذاك في أي هذه المكتبـات وكم مرة طبع وعام كم، وهو في هذا شيء رائع حقاً ، ثم هو يعرف عيوب هذا المخطوط وأخطائه وجودة هذا الكتاب المحقق ، وتلك خبرة عمر كامل تزداد بالعمـل والمراجعة والاتصال بالعاملين في حقل التراث العربي وهم كثـيرون اليوم ، فقد طبع في السنوات الخمسين الاخيرة مئات من هذه الكتب في مصر والعراق وايران ، يقول العلامة أبو الفضل ابراهيم : إنه على وفرة ما طبـع من الكتب فإن أضعافهـا ما زال محفوظاً مخطوطاً في خزائن الكتب لا يعرفه إلا القليل وفيه النادر والنفيس ، وكثير مما طبع شاع فيه الخطأ والتحريف والتصحيف وأعوزه التحقيق وحسن العرض وجمال الاخراج .

* * *

ولكن أي صناعة هذه : صناعة تحقيق التراث ، هل هي شاقـة بالصورة التي نتصورها ؟ ، يقول : « ان التحقيق مسلك وعر ، ومركب بعيد المنال، لا

يستطيع أن يعانيه الا من آنس في نفسه سلامة الذوق وصفـــاء النفس وغزارة الاطـــلاع ووفرة المحصول وأن يكون بصيراً بالاساليب العربية في مختلف مناحيها ، عارفاً بموارد الكلام ومصادره ، فطناً لصحيحه وفاسده ، صادق الحدس في مواضع الخطأ والنقص ، كيساً في معالجة الاساليب المضطربة وكشف النقاب عن الالفاظ المستعجمة ، الى جانب أن تكون له مشاركة في الكتـــاب الذي يحققه ، وخبرة بمصادره واهدافه ومراميه، بعد أن يكون أميناً مخلصاً حريصاً على سلامة العربية مما يطرأ عليها من التحريف والتصحيف والابهام » .

هذا رأي أبو الفضل ابراهيم ، وعنـدي أنه « هو » نموذج بشري لتطبيق هذه الصورة . فقد جلسنا اليه طويلاً واستمعنا الى حديثه في ندوة الجمعة التي يقيمها في مكتبه في مصر الجديدة وتضم كثيراً من الباحثين ، إنـه مثـل للعالم المتواضع السمح ذي المظهر البسيط والمجاملة الرقيقة حتى لتعجز أن تتصور ان هذا الرجل هو ذلك المحقق المدقق الحنبلي في تحقيق النص الأمين عليه والغيور حتى تناهت في الآفاق سمعته بالوفاء لبحثه والايمان به .

والحق أن علماء العرب والمسلمين كانوا كذلك ، خفض جناح وبساطة نفس وسماحة طلعة مع ايمان عميق ، ولم يكونوا على النحو الذي عرفه الناس في السنوات الاخيرة من أن يكون العالم مخيفاً عنيفاً له رهبة وهيبـة حتى يخشى الناس الاقتراب منه ، او التحدث اليه ، انما تكون الهيبة والرهبـة في نفوس الناس نتيجة للتقدير البالغ لعمل الباحث ولا تكون مفروضة من الخارج .

* * *

ويرى العلامة ابو الفضل ابراهيم أن أول خطوات التحقيق، أن يكون لدى محقق الكتاب جميع نسخ الكتاب الاصلية والمطبوعة ان كان مما سبق طبعــه وما وقع على الكتاب من إختصار أو شرح أو تهذيب أو تعليق، ثم ترتب هذه النسخ بحسب أصالتها ويختار ادناها الى الصحة أصلاً يدور عليه التحقـــق .

وتثبت فروق النسخ في الحواشي بعـــد أن يبقى في الاصل النص المختار الذي يترجح عند المحقق أنه الصواب .

ويرى باحثنا أن هناك من يسرف في إثبات هذه الخلافات، ومنهم من يختار النص الذي يصح عنده ، وعنده أن كلا المذهبين غير مستقيم ، وان أمثـــل الطرق هي إثبـــات الفروق ذات الدلالة والاشارة الى الالفاظ التي وقع عليها الترجيح على حسب ما يبدو للمحقق من وجه الصواب فيه .

الامر الثاني : على المحقق أن يعنى بمراجعة المصادر التي أخـــذ عنها مؤلف الكتاب ، أو الكتب التي نقلت عنه .

الامر الثالث : عمل ما يقتضيه التحقيق من التعليق والشرح والايضاح ، ويرى باحثنا أن التعليق أمر حتم لازم لأنه يعـين على فهم الكـــتاب وييسر الانتفاع به ، ويضيف معارف أخرى الى معارف المؤلف .

الامر الرابع : لا يكمـــل التحقيق الا إذا صنعت له الفهارس التي تنبثق من روح الكتاب وموضوعه ، والرأي أن تضع الفهارس للكتاب بأجمعه ولكل أجزائه وان تقتصر على ما ورد فيه دون حواشيه .

الامر الخامس . أن يخرج الكتاب كما وضعـــه مؤلفه دون حذف أو تغيير ودون إخلال بترتيب الفصول والابواب .

* * *

هذا هو مذهب العلامة أبو الفضل ابراهيم في تحقيق التراث وهو النهج الذي طبقه في تحقيق المؤلفات التي قام عليها وجميعها من أشهر روائـع التراث العربي وعيونه : أمالي المرتضى ، ابناء الرواة على أنباء النحاة ، أعلام النبـــلاء ، البرهان في عـــلوم القرآن ، تاريخ الطبري ، ثمار القلوب للثعـالبي ، ثمرات

الاوراق لابن حجه؛ شرح نهج البلاغة وطبقات النحويين للزبيدي ، والصناعتين لأبي هلال العسكري ، والكامل للمبرد ، والمزهر للسيوطي وعدد آخر من آثار التراث .

أما أبو الفضل ابراهيم المؤلف ، فذلك عمل آخر في حاجة الى دراسة . وأبرز آثاره : قصص العرب ، وقصص القرآن ، وايام العرب في الاسلام ، وايام العرب في الجاهلية ، وشرح نهج البلاغة .

● أبو الفضل ابراهيم : « محمد أبو الفضل ابراهيم » : من مواليد ١٩٠٥ في صعيد مصر ومن خريجي دار العلوم ، ومن مؤسسي جمعية الشبان المسلمين ١٩٣٢ .

من مؤلفاته :

قصص القرآن (بالاشتراك) ١٩٦٥ .
اطوار الثقافة والفكر (بالاشتراك) ١٩٥٩ .

★

(٢)

ابراهيم الإبياري

تطوير اللغة وبعث التراث

قلما يتحقق لكاتب أو باحث أن يعرف طريقه الحقيقي منذ الشوط الأول ، ويسير فيه منذ الخطوة الأولى، فيعمقه ويوسعه ويعطيه من ذاته وشبابه وجهده، حتى يصبح علماً عليه ، كما حدث ذلك لابراهيم الإبياري ..

الشاب خريج دار العلوم عام ١٩٢٩ ، أول من شق طريق التحقيق العلمي للمخطوط العربي ، في وقت لم يكن هذا العمل ميسوراً أو متاحاً للمثقفين من أبناء المدرسة الحديثة ، ويوم كان قاصراً على فئة قليلة من علماء الأزهر وبعض السوريين من تلاميذ المستشرقين .

ليست هي المصادفة على كل حال التي اتاحت له ان يعمل في مطالع حياته بالقسم الأدبي في دار الكتب ، مع أحمد زكي العدوي وعبد الرحيم محمود، وإلا فقد كان في استطاعته أن يحول طريقه ، ولكنه التقى في هذه الفترة برجلين كان لهما أثرهما في تعميق خبراته ومواصلة طريقه في هذا العمل هما : محمد كرد علي وأحمد أمين .

وقد أتسعت هذه المدرسة من بعـــد ودخلها الكثيرون ، وأصبح تحقيق المخطوطات فناً وضع قواعده الاولى رجال لهم ذوق قبل ان يكونوا من أعلام اللغة . فقد كانت دار الكتب تزخر بالمراجع ، ولكن التحقيق العلمي للمخطوط لم يكن متاحاً على النحو الفني الرفيـع ، وإذا كان تصويب الأسلوب واللغـة هي « المظهر الأول » لتحقيق المخطوط فان القدرة الادبية والذوق الفني هما « المخبر الأساسي » للعمل .

اذن ، كيف استطاع ابراهيم الإبياري ان ينقـل خطواته في هذا الطريق المخوف ،لعل لمحة من لمحات مطالع حياته تعطينا الدلالة ، كان الطالب ابراهيم الابياري من ابناء طنطا يسكن قريباً من المسجد الأحمدي ، ويتردد على دكان العطر كل أصيل ، فيلقى هناك صفوة العلمـــاء ، يتحدثون في الأدب ، ويتطارحون الشعر .

و « دكان العطر » ، وصاحبه الشيخ سماحه ، على باب السر ، كان ندوة للعلماء ، لا يبيـع صاحبه إلا زجاجات الفل والياسمين والورد ، والشيخ سماحـه نفسه مثل من أمثلة الذوق في لباسه الانيق ، وسماحة وجهه ، واشراق نفسه ، في هذا الحمى حيث تشرق العاطفة الروحية ، وتعقد حلقات الذكر ، ويتحدث العلمـــاء . وعند دكان العطر ، تكونت الصورة الاولى للذوق في نفس الشاب الذي شغل نفسه من بعد بتحقيق المخطوطات فبلغ فيها الذروة ، واستطاع ان يقدم عشرات من الآثار الرائعة في خلال ثلاثين عامـــاً ، لم تكن كل جهده وعمـــله .

ولم يكن دكانالعطر ومجلسالعلماء فحسب، ولكن كانت هناك مكتبه الشيخ محمد كامل البهي الازهري الذي تعلم الحقوق الفرنسية ، شيخ الحنفية وصاحب المكتبة الخاصة ، وشقيق الدكتور احمـــد تركي وزير البحث العلمي ، ورفيق طفولة الإبياري ، حيث كانت الكتب القديمة تجمع عند الشيخ كامل أكواماً ، فلا يجد من تعتمد عليه في ترتيبها غير تركي والإبياري . أما تركي فكان

ينفر من الكتب الصفراء ويتطلع الى الانابيق ، أما الابياري فقد عشش وأفرخ في ظلال هذه المكتبة ، فهو مشغول بها طوال نهار اجازته الصيفية يقرأ ويرتب ، ولا يصبر على ان يعود الى بيته ليأكل ، فيحمل معه رغيفه وادامه يتناوله في المكتبة ، هنالك اتيحت له فرصة الحياة ، فرصة التعرف الى مئات من الكتب القديمة والالمام بالمراجع وأمهات التراث . فلما أتيح له ان يدخل دار العلوم كان الطريق قد فتح فعلاً الى الأفق الذي اختاره له القدر .

وفي دار الكتب مضى الابياري يهمّش ويرقم ويحقق ، واعتمدوا عليه قبل أن يدلوه على الطريقة ، ولكنه استطاع بإرادته القوية أن يصمد للعمل ، وان يصل ... عيون الاخبار ، الاغاني ، مسالك الابصار ... فقه اللغة للثعالبي ، السيرة لابن هشام ، التبيان للعكبري في شرح ديوان ابي تمام ، المعجم لأبي هلال ، ديوان عبد المطلب .

ومع السقا وشاكر وعبد السلام هارون مضى في الطريق : الحيوان للجاحظ ، ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ، ومع لجنة احياء آثار ابي العلاء ، ومع أحمد امين ، ومع لجنة التأليف ، كان ابراهيم يعمل في قوة وحيوية ، ويجري في طريق كان هو من الذين عبّدوه أصلاً .

* * *

غير ان طريق تحقيق المخطوطات لم يلبث أن تفرع وتوسع ، فاتصل بالتحقيق اللغوي من خلال عمل كبير هو المعجم الكبير ، الذي شارك فيه مع طه حسين ومراد كامل وحسين يوسف .

وفي خلال هذا العمل الفكري كان الابياري يعمل بالتعليم ، حفياً بأن يظل في القاهرة فعلاً ، فلا يغريه الحصول على الدرجة في ان يسافر الى اقاصي الصعيد ، حتى لا يتقطع عمله الثقافي ، فلا يلبث أن ينشىء « حصة » مكتبة قبل أن تفكر فيها وزارة (المعارف) .

ثم يجعل موضوع الانشاء عصارة كتاب من المؤلفـــات ، ثم لا يلبث أن تنتشىء إدارة لتحقيق التراث في وزارة الثقافة ، صغيرة حيية الى جـوار إدارة الترجمة فيتولاها ، ولا يقف عند التحقيق والبحث اللغوي ، فيكتب في تاريـخ العرب والاسلام عدداً من المؤلفات :

مغيب دولة ، ميلاد دولة ، كافور الاخشيد ، صلاح الدين .. هادفاً في هذا الاتجاه الى مفهوم واضح في نفسه ، ربما اشار اليه في مقدمات هذه الكتب ، فهو يريد أن يبرز مكانة مصر في العالم العربي ودورها الذي لعبته في تجميع هـذه الامة ، وما لقيت في سبيل ذلك من جهد صبرت عليه واستعذبته ، وضحت في سبيل حماية لواء العروبة ، يقول : « أرأيتني حين أتناول هذا الحديث أجعل الرأي هدفي والتاريخ وسيلتي » ، وكأنما أراد ان يجعل من الحقائق التاريخية وسيلته الى تدعيم رأيه واثباته .

وهو في هذا « مواطن يحب الخير لأمته » ، فهو اذا وجد ظفراً فرح به واذا وجد ضعفاً ساءه ، وهو يريد أن يشرك قومه في كل ما يجد .

* * *

ثم يتاح للابياري في سبيل تعميق فكره ورسالته ان ينشىء معهداً اسبانياً للدراسات الاسلامية في مدريد ... ويشرف عليه (١٩٥٠ — ١٩٥٣) ، فيجد مجاله في العمل الكبير للفكر العربي الاسلامي ، حيث يبدأ في تعليم العربيـة للاسبان وهي ليست بعيدة عنهم ، ثم يبدأ في عمـل [قاموس اسباني عربي ، عربي اسباني] ، ويجري تحقيق نصوص اندلسية ، وإنشاء مطبعة ، وحروف تصب في مطبعة بولاق وعمال من المغرب يتولون جمعها ، حيث بدأ يشرق فكر جديد في اسبانيا يكشف عن الثقافة العربية الاسلامية ، والناس هناك هم عرب في صميم قلوبهم ، حيث تضم لغتهم حتى الآن بعد كل التصفيات التي جرت ١٤ في المائة ، غير أن حركة التغريب العاتية لم تلبث ان وقفت في وجه هذا العمـل

وتجمد المعهد من بعد ، ومهما يكن من نتيجة التجربة فانهـا أضافت الى نفس المحقق العربي إمدادات جديدة دفعته في طريقه الواضح في نفسه : طريـق « المدرسة الوسطى » مدرسة البناء على الاساس . ثم اذا هو يعود وقـد كون فكرة عن عمل كبير ، هو امتداد طبيعي وتطور حقيقي للمفاهيم القائمـة في اعماق النفس ، والتي كانت صورتها الاولى هي « تحقيق النصوص » ، ذلك انه لا بد من اجل بناء ثقافي حقيقي لهذه الأمة من عملين هما :

تطوير اللغـة وبعث التراث ، ولا قومية عربية بغير لغة ، واللغة لا تبدأ إلا اذا كان هناك معجم ، فالمعجم هو كتاب البدء في اللغة . . .

وذلك هو العمل الذي بدأ يحققه في مجاله الجديد في وزارة الثقافة ، ومؤسسة الانباء والنشر حيث يلي منصب المستشار . وقد تدرج بالمعاجم الى خمس مراحل في مجال الألفاظ كما تنطق وكما تشتق ، وكما تترادف ، وكما يجري تداعي المعاني .

وكذلك تتبلور فكرة « تحقيق النصوص » عنده الى عمل كبير في مجالات ثلاث :

الأدب والتاريخ واللغة ، فلا أدب بغير نص ، ولا تاريخ بغير وقائع ثابتة ، ولا لغة بغير فن . . . فما الذي يمنع ان تبرز موسوعات ثلاث تستوعب كل منها عصارة ما هنالك من تراث على نحو يقضي على التكرار والتعارض . ذلك أن أغلب كتبنا القديمة مخطوطة ومطبوعة ، تتكرر في الأصول والأوليات ، ثم تتوسع في مراحل ، فلا ضير إذن من القضاء على هذا التكرار ، والتقاء الاجزاء الجديدة حلقة بعد حلقة ، في موسوعة تتفق مع روح العصر ، وتقدم عصارة غير مكررة ولا مضطربة ولا متعارضة ، مما يحقق للمثقف العربي الجديد حاجته وفق روح العصر ، مع المحافظة على تلك الثروة الاساسية من تراثنا وفكرنا القديم المتجدد المتطور .

* * *

هكذا تبدو الصورة الآمنة في ذهن الرجل الذي بدأ العمل منذ ثلاثين سنة في ميدان تحقيق المخطوطات ، كصورة حية نابضة للوصول الى عمل كبير ظل يتكشف مع الزمن، وزادته الخبرة والاتصال بالمجالات الفكرية المختلفة في داخل الوطن العربي وخارجه قوة وتبلوراً ، ولا عجب في ذلك فان ابراهيم الابياري تلميذ أصيل للمدرسة الفكرية التي صنعتها (دار العلوم) في بـلادنا ، وهي المدرسة التي تحررت من قيود مدرستي التقليد في صورة الجمود ، والتجديد في صورة التطرف ، وهي التي خلقت ذلك التيار الوسط النابع من أعماق هـذه الأمة ، وقوامه امتزاج المحافظة بالتجديد على نحو لا جمود فيـه ولا تطرف ، والذي برز من بعد في مجاله البناء ، حين دعا الى قيام قاعدة اساسية للفكر العربي قوامها ملامح واضحة لشخصيتنا وقيمتنا مع فتح النوافذ للثقافات المختلفة ، التي تضيف الى شخصيتنا قوة وحياة، وتدفعنا الى مسايرة التطور والنهضة العالمية دون ان نفقد كياننا أو نكون تابعين أو مستوردين أو ضائعين .

● ابراهيم الابياري : من مواليد ١٩٠٥ بمدينة طنطا، ومن خريجي دار العلوم، عمل فترة طويلة في التحقيق بالاشتراك مع الدكتور طـه حسين . تخصص في دراسات التاريخ الاسلامي .

من مؤلفاته : البطل صلاح الدين والدولة الأيوبية ١٩٦٢
نهاية المطاف (الدولة الفاطمية) ١٩٦٢
مغرب دولة (الاندلس) ١٩٥٨
ميلاد دولة ١٩٥٩
الوليد بن يزيد والدولة الاموية ١٩٥٨
مع الايام (ذكريات)
معاوية : الرجل الذي انشأ دولة ١٩٦٢
بني البر : مختصر سيرة ابن هشام .

(٣)

الدكتور أحمد الحوفي
دراسات الإسلام والقومية العربية

عندما تدخل القومية العربية والوحدة العربية ، مجال الدراسات العلميـــة ذات المنهج العلمي القائم على قواعد وأسانيد ومقومات ، يكون معنى ذلك أن حقيقة كبرى تأخذ مكانها في مجال الفكر العربي على أسس العقل والمنطق ، بعد أن كانت تحمل طابع العاطفة ، وتكون أقرب الى مداخل السياسة والاعمال الوطنية التي تقوم بها الهيئات والمنظمات . فنحن في كل يوم نتلقى بحثاً جديداً في هذا المجال يتناول قطاعاً فيستقل به ويضعه موضع الدرس العلمي . وهـذا بالفعل مـا قام به الدكتور أحمد محمد الحوفي أستاذ الأدب العربي بكلية دار العلوم بالقاهرة ، عندما أتيح له في خلال السنوات الأخيرة ، أن يحصل على كل —أو أغلب حتى لا نكون مبالغين — نماذج الشعر العربي الذي نظمه شعراء في العالم العربي عن القومية العربية والوحدة الكبرى . فاذا به بأناة العلماء وسعة صدرهم ، حيث لا تطاردهم صحف تطلع في مواعيد معينة ، أو ماكينات تدور في مواقيت محددة . فاذا به يراجع هذه النصوص ويصنفها ويدرسها ، ويحاول أن يستخلص منها نظرية جديدة للقومية العربية والوحدة الكبرى ، قـد تختلف كثيراً أو

قليلاً عما كتب دعاة الفكر أو السياسة أو الكتاب والصحفيون . ولست أقول أنه أصدق حساً ، ولكني اقول أنه أقرب الى الحق ؛ بأسلوبه العلمي وأدواته الفنية وأسانيده ووثائقه ذات الدلالة الأكيدة على الحقيقة المقررة ، ولا شك كان الشعر حادي الوحدة العربية وأول أصدائها .

من أجل هذا جاء بحثه في دور الشعر في بناء القومية عميقاً مدعماً ، فدعائم القومية عنده هي : اللغة والوطن والتاريخ والثقافة والجنس والدين :

يقـول : إن كنت في هذه الدعائم أخالف بعض الباحثين ، فإني أرى الدين دعامة من دعائم القومية في غير ما حرج لدين آخر ، فالدين هو الكيان الروحي للأمة ، هذا الكيان الروحي مشترك ما بـــين الإسلام والمسيحية ، والإسلام بطبيعته أكبر ينبوع من ينابيع الثقافة العربية المشتركة ، وبهذه الثقافة العربية يعتز المسلم والمسيحي . وناحية أخرى هي أن الأغلبية الساحقة في الأمة العربية مسلمون ، وهم في الوقت نفسه يقدرون المسيحية ويعترفون بها ويجلون السيد المسيح . ولقد كان التسامح أصلاً من أصول الاسلام ، وبذلك ليس هناك فجوة أبداً . وعنده أن الشعراء سبقوا الساسة في الدعوة الى وحدة الأمة العربية منذ عام ١٨٧٥ ، وربما كان ابراهيم اليازجي في قصيدته المشهورة مسبوقاً بغـيره ، يقول في تعليل ذلك ... يبدو لي أن الساسة جميعاً أو أكثرهم كانوا مقيدين بعدة قيود ، إمـا الاستعمار أو الرهبة منه ، أو الإبقاء على المناصب ، أو الخوف على المال ، على حين كان الشعراء طلقاء متحررين من هذه الأصفاد ، فهتفوا بالوحدة حيث لم يكن غيرهم في الميدان يهتف .

وهذا كتابه « وحدة اللغة والوطن في الشعر الحديث » حلقة أولى من هــذه الدراسة الضخمة .

***

ولقد رأيت الدكتور الحوفي معنياً بالشعر في أغلب دراساته ، فهو قد أوغل في دراسات الشعر الجـاهلي ، في دراسات متعددة عن المرأة في الشعر الجاهلي ، والحياة العربية في الشعر الجاهلي ، وأغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي ، وأخـيراً الغزل في العصر الجاهلي .

ويتصل بالشعر دراستاه الكبيرتان عن شوقي : وطنية شوقي ، والإسلام في شعر شوقي . وله تحت الطبع فرسان الشعراء .

وبدا لي هذا الإتجاه عجيباً ، ولكني تبينت أنه كان شاعراً في مطالع حياته وقد قال شعراً كثيراً ، ونشره في مجلة الصباح أيام تجهيزية دار العلوم .

وربما كان سر اهتمامه بالشعر : أنه – أي الشعر – يصور ملامـح المجتمع وخصائص الأفراد أكثر مما يصوره النثر .

فاذا أضفت الى ذلك اهتمامه بالخطابة ودراسته لفن الخطابة ، وكيف أنـه كان خطيباً وعضواً في لجنة الكلية التنفيذية العليا في مصر عام ١٩٣٥ ، ولهم تاريخهم ووقفتهم أيام « تصريح هور » بدا لي أن أفهم شخصية الدكتور أحمد محمد الحوفي .

فهذه الصورة التي ترسمها في مجموعها ، تعطي صورة الرجل الشاعر الخطيب المعني بالكلمة ذات الرنين والجرس ، الحفي بالبلاغة فهو محب للشعر الجاهـلي ، لانه وجد فيه صورة هذه الأمة ، وكيف كانت قبل الإسلام أصيـلة عالية ماجدة . وأنها لولا مجدها وعلوها ما اختارها الاسلام .

ولكأنه مكلف بأن يرفع الظلم عن التاريخ الأدبي ، أينا وجـده . فالشعر الجاهلي في العصر الجاهلي كان مظلوماً أشد الظلم ، وعنده أن الذين يعرفون عنه القليل أسرفوا في حكمهم الظالم على العرب ، والذين يجهلونه هم في حاجة الى من يدلهم عليه .

ومن هنا يقول : قرأت لأعرف الحقيقة ، فاتضحت أمامي حقائق كثيرة ، تبينت منها ألواناً كثيرة تتصل بأصالة هذا الشعر وقيمته الفنية ، وثقافة الأدب ورقي أعلامه بالنسبة الى الامم المعاصرة لهم .. وقد أوصله هـذا الى نتيجة اطمأن اليها غاية الإطمئنان ، تلك هي :

أن الشعر الجاهلي أصدق مصور لحياة العرب بأنواعها المختلفة ، وإذا كان العرب لم يخلدوا آثاراً منحوتة كما خلد اليونان والفراعنة ، فإنهم خـلدوا أثراً مكتوباً خالداً ... هو الشعر .

وهنا تتجلى صورة هذا الكاتب الأريحي العربي ، الذي تهفو نفسه الى الشعر والخطابة والكلمة البليغة .. والى إنصاف الجوانب المظلومة ، فهو يحب الشعر ويوغل فيه بحثاً ، ويعنى بقديمه ، ويتصل بالشعر الجاهلي اتصالاً عميقاً ، ثم هو لا يتوقف في طريق أريحيته عن تكريم الأبطال والبطولة . وكتابه « البطولة والأبطال» شاهد بدراسته الواسعة العميقة في مجال البطولة العربية . فهو معجب بالبطولة باحثاً عنهـا في لسان العرب ، ومعجم اكسفورد ، ولاروس ، وفي اللاتينية ، والفرنسية ، والانجليزية جميعاً . متناولاً الفوارق بين البطولة والعظمة والعبقرية .

ودعائم البطولة عنده فيض الحيوية وقوة العقيدة والشجاعة ومضاء العزيمة والاعتداد . وفي تاريخ النبي وأبي بكر وعمر وأعلام الإسلام والعرب خصائص ونماذج يعرضها ، ثم يتوسع في دراساته عن عمر مكرم وعرابي وعبد الله نديم ومصطفى كامل وسعد زغلول .

ولا بد أن يكون الخطيب الشاعر الأريحي فارساً ، محباً للكلمة البليغة وقائلها ، محباً للبطولة منجداً للمظلومين ، فاذا هو يعنى بالطبري وأبي حيان التوحيدي وشوقي . فالطبري أعجبه لأنه جلد صبور على البحث ، على خلق رفيع . أما أبو حيان فقد ظلمه التاريخ ، فلا بد أن ينصفه ، يقول : اهتممت

به لأنه كاتب فذ هُضم في حياته وهضم بعد مماته وما زال مهضوماً ، ومأساته في إحراق كتبه ما تزال تؤرقني في الحقيقة .

أما شوقي فما على الدكتور الحوفي أن يشغف به ، وكل شاعر في عالمنا العربي قد أحس به كوكباً مضيئاً منذ مطالع الحياة . منذ كان طفلاً صغيراً في قريته ذات الاسم الموسيقي (الصفاصيف) غربي دمنهور ، وبين أهلها الذين كانوا بلغاء ، يحفظون خطب السياسة ويحبون الشعر ويقضون سهراتهم على المصاطب ، ينشدون شعر شوقي الذي كانت تنشره الصحف في الصفحة الأولى ، والذي قررت جريدة السياسة ان تدفع خمسين جنيهاً للجمعية الخيرية الإسلامية عن كل قصيدة يخصها بها شوقي .

ثم زاد اهتمامه به وهو الشاعر الغض الإهاب ، فلما بلغ دار العلوم تعمقه . فلما توفي شوقي ١٩٣٣ رثاه ببحث كان من أول ما كتب بقلمه ، واستهل به عمله الأدبي « النسيب في شعر شوقي » ، وقد طبعه أستاذه الدكتور مهدي علام ، ووزع على الطلاب . ومن هنا كانت نقطة البدء مع هذا الشاعر وشعره ، ومع الخطابة ، والكلمة البليغة ، ثم والى اهتمامه بشوقي ، وحاول أن ينصفه أيضاً في الجوانب التي أتهم فيها وظلم . وكان شوقي قد أتهم في وطنيته وإسلامه ، ومن هنا كانت دراستاه عن وطنية شوقي والإسلام في شعر شوقي .. ولم يتوقف الدكتور الحوفي . فهو يعد دراسة عن الحكمة عند شوقي مقارناً بينه وبين المتنبي .

* * *

وهكذا تبدو حياة الدكتور أحمد محمد الحوفي الفكرية ، مطردة منذ ١٩٣٣ الى اليوم في مجاله الواضح : الشعر والخطابة والكلمة البليغة وبطولة الفرسان وإنصاف المظلومين وتحرير الشعر الجاهلي والاعجاب بشوقي والطبري وأبي حيان التوحيدي ، على نحو يكشف عن طبيعته الريفية في قرية الصفاصيف

بإقليم البحيرة ، حيث الوفاء وإنصاف المظلوم ، ورد العادية وتكريم البطولة ، والإعجاب بالنضال والكفاح . وقد لقي هذا الطابع النفسي مجـــاله الواضح الصحيح السليم في بيئة دار العلوم . هـــذه المدرسة الوسطى في فكرنا العربي الحديث بين الجامعة والأزهر ، أو بين التعليم الديني الخالص والتعليم الجامعي الغربي. ولطالما كانت دار العلوم وستظل عنواناً على هذه الروح الأصيلة الصادقة ، التي خرجت بين روح العروبة والإسلام ، وفكر الغرب ، على نحو دقيق سمح ، وعلى هدى وبصيرة . وقد واجهت الدكتور الحوفي بهـذه الحقيقة ، فما لبث ان قال : إذا جاز أن يكون عندنا مذاهب أدبية ، فإن المذهب الأدبي الذي تقوم عليه (دار العلوم) ، هو المحافظة على القديم الصالح والأخذ من الجديد الصالح ، فهي لا (تتحجر) على القديم ولا يسيل لعابها وراء الجديد ، ربمـــا كان من الصدق أن توصف بأنها الحلقة الواصلة بين الثقافة العربية القديمة والثقافة الغربية الحديثة .

* * *

وهكذا يبدو أمامي الدكتور أحمد محمد الحوفي ، وهو يعمـل في ميادين ثلاثة ، دراسات الشعر وتراجم الأعلام ودراسات الإسلام . فهو في هذا المجال قد كتب عديداً من الأبحاث والدراسات ، أبرزها كتابه (سماحة الإسلام) ، وهو مرجع حي نابض بالحياة ، يتناول دعائم الاسلام ، معتمداً على النصوص والتشريع والتطبيق والموازنة بين الاسلام ومختلف الشرائع .

وكتبه العشرون في مجموعهـــا ، تحوي التحقيق ، والتراجم ، ودراسات الشعر وله الى ذلك قصة (سوسن) ، والفكاهـــة في الادب ، ودراسة لابن خلدون ، وأدب السياسة في العصر الأموي .

وقد عرف بالعراك والمساجلة ، فدخل معارك عديدة مـــع سلامة موسى وزكي مبارك وطه حسين ، وكتب في الرسالة والثقافة والاهرام والمجلة والبلاغ

ومجلة دار العلوم ومنبر الاسلام . وله مقال رائع يدخل في زمـــام التاريخ ، حمل فيه على الدكتور طه حسين في أوج تألقه وسلطانه . وكان الحوفي طالبـاً في دار العلوم ، وكان طه قد حمل حملته على دار العلوم تحت عنوان (لا بد من هدم قرطاجة) ، فتصدى له الحوفي بمقال آلمه ألماً شديداً . وظل يذكره فـلا ينساه منذ عام ١٩٣٣ عندما نشر في كوكب الشرق الى عام ١٩٥١ ، بعد أن أحرز الحوفي الدكتوراه . وكان طه وزيراً للمعارف ، وبيـــده أمر ترقيته ، وكانت ذاكرة طه حسين العجيبة لا تنسى ، فذكر المرحوم ابراهيم مصطفى عميد دار العلوم إذ ذاك ، بهذا المقال بعد حوالي العشرين عاماً .

ويرى الدكتور الحوفي أن هدفه الفكري الأساسي في كل أعمـــاله هو : الدفاع عن اللغة العربية ، والقومية العربية ، والفكر الاسلامي العربي ·

واذا كان لنا أن نذكر حماسته وإيمانه للغة العربية ، فإنما نذكـر كلمته في كتابه هذا الذي عرضنا له حيث يقول :

إن السر في قوة الفصحى راجع الى أن هذه اللغة لغة قـوم يجدون حياتهم مرهونة بحياة لغتهم ، فهي لغة كتابهم الكريم ، ولغة نبيهم العظيم ، وسجل تراثهم الفكري المجيد ، ولسانهم الأدبي المشترك ، وهي لغة آبائهم الأولين منذ زمن بعيد ، يقرأونها ويكتبونها ويسمعونها ويتفاهمون بهـــا ، محافظين على مفرداتها وأساليبها وقواعدها التركيبية ، التي كانت لها في عهد أسلافهم . وهم بهذا متفردون في العالم كله ، لأن الامم المعاصرة لا توجد فيهـــا أمة يستطيع أبنائها جميعاً أن يستعملوا لغة أسلافهم على هـــذه الشاكلة الى خمسة قرون. على حين أن اللغة العربية استقرت على وضعها الذي يستعمله أبناؤها اليوم منذ أكثر من خمسة عشر قرناً . وقد اعتبر العرب من يتكلم العربية لغة أصيلة له عربيـــاً منذ قرر هذه الحقيقة النبي عليه السلام في قوله : ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي باللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي ... الخ .

وبعد فنحن نتطلع الى أن يتم الدكتور الحوفي الحلقات الأخرى من بحثـــه الكبير عن دور الشعر الحديث في بناء القومية العربية .

● أحمد محمد الحوفي : دكتور في الأدب من دار العلوم ، من مواليـد (الصفاصيف بحيرة) ١٩١٢ ، تخصص في دراسات الاسلام واللغة العربية والشعر . من اعمدة كلية دار العلوم والمجلس الاعلى للشؤون الاسلامية .

من مؤلفاته : وحدة الثقافـــة والتاريخ في الشعر الحديث .
ادب السياسة في العصر الأموي .
خصائص الاسلام في شعر شوقي ، الحياة العربية في الشعر الجاهلي
التراث الروحي والشعر الحديث ، المرأة في الشعر الجاهلي
وحدة اللغة والوطن في الشعر الحديث ، وطنيـــة شوقي ، الفكاهة في الأدب العربي .
وله : الجاحظ ، التوحيدي ، البطولة والأبطال ، الزمخشري الخ ..

(٤)

أحمد حسين
دراسات الإسلام والإنسانية

ما أشد حاجة أمتنا في هذه المرحلة الثورية الضخمة من تاريخ القومية العربية ، وفي ظلال التقاء الثورات العربية ، على نحـــو يكشف الطريق للوحدة العربية الكبرى، أقول ما أشد حاجتنا في هذه المرحلة الى دراسات (الفكر الإنساني) التي تنير لنا الطريق وتلقي الأضواء الكاشفة على مستقبل أمتنا ، وعلى القواعد والأسس الذي يبنى عليها هذا المستقبل ، من خلال شخصيتنا المستقـــلة ، ذات الطابع الواضح الصريح ، الذي يتسم بالمزج الدقيق بين الروح والمادة ، وبـين الدين والحضارة ، وهو ما يختلف اختلافاً واضحاً عن شخصية الغرب والشرق جميعاً . فهكذا كانت هذه الامة دائماً : أمة وسطاً في مكانها على خريطة العـالم ، وفي فكرها وشخصيتها .

وفي ظلال هذه المرحلة ، ومن أجل عمليات بناء المستقبل في عـــالم الفكر والثقافة ، نجد أعمالاً كبرى تظهر مستأنية مدروسة ، قد بُذِلَ فيهـــا الجهد الكبير ، وفي مقدمة هذه الاعمال « الطاقة الانسانية » ، للأستاذ أحمد حسين ،

ثم قصته «أزهار»، ثم كتابه الجديد والقديم الذي بين أيدينا اليوم «في الإيمان والاسلام» .

والحق أن « أحمد حسين » يمر الآن بالمرحلة الثانية من حياتــه العريضة ، وهي مرحلة الفكر ، وهو المجال الذي كان يتوق الى التجرد له منذ زمن طويل، لولا اتصاله بالحركة الوطنية في أول شبابه ، وعمــله في سبيل تحرير « مصر » . فلما تحققت هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ بلدنا ، كان لا بد أن يجد هذا المجــال الضخم الواسع للعمل ، في محيط البناء الفكري لأمتنا العربية ، عن طريق رسم خطوط شخصيتنا وثقافتنا ، وإلقاء الأضواء على المرحلة القادمة من حياتنـــا « مرحلة الوحدة الكبرى » .

ويكشف أحمد حسين في مقدمة كتابه الجديد القديم « في الإيمان والإسلام» عن هذا المعنى ، مصوراً ارتباطه بهذا المجال الفكري منذ عشرين عاماً ، عندما كتب هذا الكتاب للمرة الأولى ؛ وأراد به الكشف عن جوهر رسالات السماء وإبراز وحدة العقيدة وجوهرها ، هذه التي تلتقي كلها عند نقطة بداية واحدة، وهي إحساس الإنسان بوجود كائن أعلى منه وأسمى ، يتصف بانواع الكمالات . وعنده أنه قد حان الوقت ليدرك كل صاحب عقيدة دينية – أياً كان موضوعها ومحورها – أن الخطر الذي أصبح يهدد عقيدته ، ليس ما يقول بــه دين آخر ، فالأديان كلها تقوم على الإيمان بالمثالية والغيبيات والتطلع نحـــو صورة من صور الكمال الإنساني ، وانما الخطر الذي أوشك أن يهدد العقائد كلهـا ويقتلعها من جذورها ، هو هذه المادية الطاغية الجارفة المسعورة ، التي لم تقف عند حد الهزء بالإيمان ووصفه بأحط الصفات وأنها أفيون الشعوب ، بل راحت تهاجم المثالية من أساسها ، وتنكر تقديس حق الفرد « كل فرد » في الحياة والحرية والكرامة الانسانية .

إذن فالمادية الخالصة، هي الخطر الكبير إزاء الفكر الانساني ، التي يجب أن

يجاهد بنو البشر للانعتاق منها ، وهو العمل الكبير الذي يجب أن نوجه اليه جهود المفكرين .

ويطوف أحمد حسين في خلال هذه الصفحات القليلة ، التي لا تبلغ المائتين، بالإنسانية منذ مطالع فجرها ، يكشف عن جوهر حقيقة (الإيمان) خلال مراحلها المختلفة .. عارضاً للحضارات الفرعونية والفارسية والصينية والاغريقية، وللعبادات منذ كانت : عبادة الأمهات فالحيوانات فالنباتات فالجمادات فالكواكب ، ثم يتجه الى دراسات نظريات الحلول وعبادة الأصنام ويقف وقفة طويلة عند « التوحيد » لدى آمون وأخناتون ، ثم لا يلبث ان ينتقل الى رسالات الانبياء والرسل ، حتى يصل الى الاسلام فيقف عنده وقفة خاصة ، مستعرضاً موقف الاسلام من الإخاء الانساني والتكافل الاجتماعي والعمل والانتاج، ثم هو يعرض لآراء فلاسفة أوربا وكتابها في الاسلام : غوستاف لوبون وويلز ولوثرب ستوارد ودراير ، فاذا بلغ النهاية من هذ البحث الموجز الشيق قال كلمات قليلة هي خلاصة رأيه :

« سيظل الإسلام نوراً يهدي التائهين والحائرين والمتخبطين في الظلام ودنيا المادة ، وستظل مبادؤه الدعوة الى الانسانية والعالمية والتآخي بين البشر ، هدفاً سامياً جديراً بالعمل من أجل تحقيقه » .

وهو في مجاله الفكري الذي تمثله (الطاقة الإنسانية) ، ويمثله كتابه (في الإيمان والإسلام) ، يتحدث في مجال الإنسانية الشامل ، يقول : « لا أخاطب قراء العربية دون غيرهم ، أو من يدينون بدين الاسلام أو المسيحية ، أو من يعيشون في الشرق دون الغرب ، وإنما أخاطب البشر كافة ، أخاطب (الإنسانية) في معناها الواسع الإصطلاحي ، وإنها مجموع الناس منذ كانوا وأينما كانوا » .

وإذا كان لنا أن ننظر في العمل الفكري ، الذي يتجه اليه الأستاذ أحمد حسين ، في إنتاجه الجديد في هذه المرحلة ، وفي مقدمته قصة « أزهـار » التي رسمت مرحلة من تاريخ مصر ، وصورت مطالع اليقظة في الثلاثينات ، نجـده من الناحية الأخرى يترجم عن تولستوي « نور يسطع في الظلام» ثم ينشر كتابه عن « الطاقة الانسانية » . فكتابه الجديد القديم ، « في الايمان والاسلام » نحن نرى فيه عصارة فكر وخبرة حياة . فلقـد تكشفت شخصية « أحمد حسين » منذ مطالعها واضحة في مجال الكتابة والبحث عن إيمان صادق بهـذا الوطن المصري ، ثم اتسع نطاق هذا الإيمان عروبة وإسلاماً حتى شمل الانسانية كلها .

وهو الآن في الخمسين من العمر ، تبدو على آثاره عصارة تجربته وقراءاتـه وأسفاره ورحلاته ، فقد أحرز قدراً كبيراً من الخبرة ، خلال جولاته في مجال العمل الوطني الداخلي ، وخلال رحلاته التي طوف فيها مـا طوف في أوربا وأمريكا ، وفي جزيرة العرب والسودان ، ثم كانت رحلته القريبـة الى أطراف آسيا والهند .

ونظرة الى مؤلفاته عن الرحلات وحدها : مشاهداتي في جزيرة العرب ، ومن وحي الجنوب (رحلة في منابع النيل) ، وكتاباه عن رحلة آسيا : يقظة العملاق ، وأمة تبعث ، تعطي صورة النفس العربية المصرية التي تطوف الدنيا ، وهي تنظر الى نفسها ، راغبة في ان تستكشف هـذه النفس ، وتضيف من خبرة الآخرين خبرة لها .

فاذا انتهى هذا المطاف على رأس الحلقة السادسة من العمر كانت التجربـة قد أوفت على غايتها التي تستطيع أن تقدم للامة العربية من عصارة الفكر مـا يعينها على النهوض والاندفاع نحو غايتها الكبرى في الدعوة الى المجـد والاخوة والصفاء والوفاق وهو ما عبر عنه في ختام الصفحات الخمسمائة من كتابه « الطاقة الانسانية » .

حيث يقول : « فليكن الحب هو شعارنا ودثارنا وسلاحنا ومصدر قوتنا وانطلاقنا .

« ولنكن على ثقة ويقين أننا إذ نفعل ذلك فنحن على الطريق ، الطريــق السلطاني ، الطريق المستقيم ، أقصر الطرق التي تؤدي الى الغاية ، ومجرد السير على الطريق المستقيم يؤدي بنا الى السعادة المنشودة والأمل العظيم ، مجرد السير في الطريق نحو الغاية هو النجاح الذي لا نجاح بعده ، وهو الأمن والطمأنينـة وراحة الضمير . هو القوة كلها وهو الخلود والبقاء الذي لا يطاوله بقاء » .

ثم يوجه دعوته الى الانسانية فيقول : أيها البشر في سائر بقــاع الارض ، أيها الانسان في جميع الأجناس والألوان والقوميات والأديان والمذاهب ، أيها البيض والسود والحمر والصفر ، أيها الأقوياء والضعفاء ، أيهـــا المنتصرون والمنهزمون ، أيها الظالمون والمظلومون ، تعالوا جميعاً نبدأ من جديد ، لنسدل ستاراً على الماضي ، لنكف عن نبش القبور ، لنتوقف عن نكء الجراح ، لنسر معاً على الطريق ، لا يؤذي بعضنا بعضاً ، ولا يتحكم بعضنا في بعض ، ولا يستغل بعضنا بعضاً ، معاً على الطريق في تفاهم ومحبة وإخاء ، معــاً على الطريق نحو الحقيقة والحــق ، نحو الجنة ، والمثل الأعلى ، نحو الله نجده أمامنا ، نجده تجاهنا ، نجده معنا ، نجـده فينا (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) .

وهكذا نجد الرجل الذي طوف العالم ما طوف ، رحلة وسياحة ، وطوف مجال الفكر ما طوف ، فقرأ خلاصة التراث الانساني ، يصل من جولته الطويلة خلال اكثر من ثلاثين عامــاً الى هذه المفاهيم الانسانية ، في نصاعة فكر ، وشفافية روح . فهو يدعو الناس جميعاً الى المحبة (الطاقـة الانسانية) .. ويدعو أصحاب العقائد الى مقاومة الخطر الذي يتهدد الروحية والقيم ، خطر المادية والإلحاد (في الايمان والاسلام) .

وهذه هي الصورة التي تبرز اليوم لفكر أحمد حسين ، كأنما هي طــور من أطوار فكره ليست جديدة ، إذ ليست في الواقع إلا جوهر نفسه منذ مطالـع

الشباب . هذا الجوهر الذي برز في صورة الفرعونية والمصرية والإسلامية على مراحل . وفي صورة الإعجاب بتاريخنا وماضينا وتمجيده والفخر به . ثم في تاريخ الاسلام نفسه . وهكذا في تدرج طبيعي عرفه المفكرون والفلاسفة والباحثون حتى وصلوا الى الدعوة الإنسانيه ، وهي المرحلة العليا للدراسة والبحث والتجربة ، حقاً ما أشد حاجة الانسانية اليوم الى دعوته ، وهي تتصارع من أجل مناطق النفوذ ، مهددة بسلاحها الذري الرهيب .

وبعد فما زلنا نتطلع الى مزيد من إنتاج هذا العقل الذكي الواعي المتفتح ، السابق جيله خطوات على طريق الانسانية والسلام والحب والاخاء .

● احمد حسين المحامي: من مواليد ١٩١٠ القاهرة، مؤسس مشروع القرش، وجماعة مصر الفتاة ، وأحد رواد الصحافة الوطنية الثائرة في مرحلة مقاومة النفوذ الاستعماري والاستبداد الداخلي (١٩٣٠ - ١٩٥٠).

من مؤلفاته : الحج (اسراره ومناسكه) ، الأرض الطيبة ، أزهار (قصة) أمة تبعث ، ايماني ، تاريخ الانسانية ، الزواج والمرأة ، مرافعات ، من وحي الجنوب ، نور يسطع في الظلام (مترجمة عن تولستوي)، وراء القضبان ، سبعون يوماً للدعاية في أوربا ، الطاقة الانسانية ، في الايمان والاسلام ، في ظلال المشنقة ، قضية التحريض على حرق القاهرة ، مشاهداتي في جزيرة العرب ، علاقات العمل بين احكام الشريعة وقرارات التحكيم ، الامة الانسانية .

(٥)

أحمد الشرباصي
دراسة أعلام العروبة والإسلام

تتسم هذه المرحلة في حياة أدبنا العربي المعاصر ، بطابع الكشف عن القديم الذي غطاه التراب ، وتصحيح الحقائق المطمورة ، وإحياء ذكرى الأعلام الذين كانوا عمالقة وقاموا بجهد ضخم في خدمة الفكر والوطن والسياسة والاجتماع .

وفي هذا المجال ظهرت دراسات ضخمة ، بذل فيها مجهود كبير عن أعلام ظل اسمهم يتردد طويلاً ، ويحمل وراءه تاريخاً طويلاً مشتتاً ، حتى جاء مثل الأستاذ أحمد الشرباصي ، ليشغل نفسه سبع سنوات كاملة ، بالبحث عن أمير البيان شكيب أرسلان وآثاره وتاريخه ، ويكتب عنه دراسة مطولة بلغت ٩١٢ صفحة من القطع الكبير ، وصدرت في جزءين . وكانت موضع دراسة الماجستير في معهد الدراسات العربية ، ومن خلالها تكشفت حياة هذا المجاهد الكاتب النابغة ، الذي خدم بلاده اكثر من خمسين عاماً ، قضى أغلبها مغترباً بين تركيا وأوروبا لا يكل من العمل ولا يهمد .

ولقد حمدنا للأستاذ أحمد الشرباصي هذا الجهد الضخم ، الذي بذله في

الاستقصاء ، والحق أن شكيب ارسلان كما وصفه الكاتب « شخصية مجهدة لمطالعه وباحثه والكاتب عنه » فقد طال عمره وكثر عمله ، وظل يكتب أكثر من ستين عاماً ، وكان كالغيث الهاطل المدرار في كتابته ، حتى تصعب ملاحقته ومطالعته . فقد ألف ونشر عشرات من الآثار والمؤلفات ، وكتب الآلاف من المقالات والبيانات والرسائل بين مطابع وصحف مصر ولبنان وسورية وأمريكا وسويسرا .

وقدّر بعض الناس ما كتب من الكتب والمقالات بـ ٢٥ الف صفحة من الحجم الكبير ، وذلك عدا رسائله الخاصة التي هي أشبه بمقالات الصحف ، فانه ظل عشرين سنة يكتب في كل سنة ما يتراوح بين ١٥٠٠ وألفي مكتوب ، فالمقالات التي يحررها في السنة من ٢٠٠ الى ٢٥٠ مقالة بالعربية والفرنسية .

وقد أشار شكيب الى ذلك في عام ١٩٣٧ فقال : حالتي الراهنة الآن من جهة الكتابة هي أن أكتب في الحول ١٧٠٠ الى ١٨٠٠ مكتوب خصوصي ، ونحواً من ٢٥٠ مقالة في الصحف عدا التآليف المطبوعة ، التي تبلغ بالأقل ألفين الى ٢٥٠٠ صفحة في السنة .

وكان لا بد للشرباصي أن يبحث عن كل هذا ، حتى يستوفي عمله في دراسة الرجل على مدار السنوات الطويلة ، في عشرات الصحف والمجلات ، وألوف الرسائل الى أصدقائه .

وكان عليه أن يلجأ الى أصدقائه في مصر ولبنان وسورية ، وأن يقابل السيدة زوجته وأولاده في القاهرة وبيروت .

ومن أجل ذلك وصل الى الشويفات ، وقابل شقيقه الأمير حسن ، وحادثه طويلا ، ووقف على قبر شكيب .

ووجد في الشويفات خمسة وعشرين صندوقاً لم تفتح ، فيها أوراق وكتابات لشكيب ، وقد حاول الإطلاع عليها لدى الامير حسن ، فلم يجد الى ذلك سبيلا .

وسافر الى القدس من أجـل البحث عن مذكراته ، التي كتبها وأودعها المؤتمر الإسلامي ، وبحث طويلاً واتصل بعديد من معارفه وأصدقائه .

كما اتصل بآل رشيد رضـا في القاهرة ، وحصل على قـدر ضخم من آثاره ورسائله ، التي تعد من أنفس الآثار الأدبية ذات الدلالة على جوانب كثيرة من تاريخنا الأدبي والقومي والسياسي المعاصر .

وقد استطاع أن يحرز أكثر من مائـة وثلاثين رسالة من هذه الرسائل ، بمعاونة الأستاذ المعتصم رضا ، أدخل فيها على البحث (٧٥ رسالة) لانهـا تتصل بموضوعه .

ويقول الشرباصي : أنه بالرغم من هذه الصفحات التي بلغت الألف وخمسمائة في كتبه الثلاثة ، فإنه ما زال لم ينشر جوانب متعددة عن حياة شكيب .

وفي بحوث الشرباصي عن نثر شكيب وشعره وأثره في اللغـة تفاصيل ضخمة ، واستفاضة لا حدّ لها ، تكاد لا تؤرخ لشكيب وحده ، وإنما تمثل قطاعاً كاملاً من الادب العربي المعاصر في هذه الفترة ، يشمل البارودي وشوقي ورشيد رضا .

ولم يكن شكيب أديباً أو شاعراً فحسب ، بل كان ناقداً ولغوياً ، وكان قطبـاً من أقطاب السياسة والوطنيـة والوحدة الاسلاميـة خلال حياة طويلة ظل يكتب فيها أكثر من ستين عاماً (١٨٨٨ – ١٩٤٨) ، وألف عشرات الكتب ، وأحيـا عشرات أخرى ، وشغل بالقضـايا العربية والإسلامية ، وكان بيته موئلاً لأقطاب العرب والمسلمين .

وكما عمل شكيب في ميدان تطويع اللغة وتعريبها ، بذل جهداً في ميدان الترجمة وإحيـاء تاريخ العرب وتاريخ الاسلام وتحقيق المخطوطـات . وله آراء قيمة في السياسة وأسباب تأخر الأمم وحيل الاستعمار والإحتلال .

وكانت تعليقاته على (حاضر العالم الإسلامي) تمهد لدائرة معارف إسلامية كاملة . وكان كتابه (لماذا تأخر المسلمون) بعيد الأثر في الكشف عن أوجه الضعف ووسائل القوة .

وكان للأندلس في حياته وأدبه وقلمه نصيب كبير ، فهو المعني بها ، يترجم عنها من مؤلفات الغرب، ثم يسيح إليها ، ويعنى بأن يقرأ كل شيء عنها .

كل هذا جلاه الشرباصي في قوة ووضوح ، كما درس عصره باستفاضة ، وتحدث عن تاريخ حياته ورحلاته وهجراته ، وصحح مختلف ما ورد في الكتب من أخطاء حول تاريخه وآرائه .

* * *

ولا غرو ، فأحمد الشرباصي كاتب لامع ، له في مجـال النهضة الفكرية الحديثة مجال كبير وآثار متعددة ، وهو يكتب منذ مطالع شبابه ، وقد برز بعـد الحرب العـالمية الأولى مع صفوة من شباب المدرسة الوسطى ، أولئك الذين آمنوا بضرورة أن يقـوم الفكر العربي على أساس من الإيمان بشخصيتنا وأمجادنا وتراثنا ، دون أن ننفصل عن مقوماتنا الأساسية ، ولا بأس من تلقي خير ما في الحضارات والثقافات ، بحيث لا تنمحي معالمنا الأصلية ولا ننحرف عن رسالتنا الانسانية الأخلاقية الروحية ، ذات القيـم الواضحة والمثل الصريحة ، ولعله قـد كشف عن ذلك بوضوح في كتابه (واجب الشباب العربي) ، الذي أصدره عام ١٩٤٨ ، وأبان فيه عن الصلة بين العروبة والإسلام ، وله في هذا المجال كتاب (وسائل تقدم المسلمين) .

وقد كان الشرباصي منذ بروزه الى المجـال الأدبي والفكري ، شعلة نشاط ، فقد شارك في عشرات من المؤتمرات خارج مصر ، فزار فلسطين والباكستان والكويت ، وعمل في عشرات من اللجان الثقافية والجماعات ، وكتب في صحف

الأزهر والشباب ولواء الاسلام والمجتمع العربي ، وألقى عشرات من المحاضرات في مختلف أوجه النشاط الفكري .

وله عدد كبير من المؤلفات ، تناول فيها الكثير من أعلام الإسلام ، كعمر ابن عبد العزيز وأبو عبيدة والسيدة زينب وأبو بكر الصديق ، كما تحدث عن الصوفية وناقش دراساتها في عدد من مؤلفاته ، وكان أبرز أعماله كتابه (في عالم المكفوفين) ، الذي كان الأول من نوعه في الدراسات العربية ، حيث تناول المكفوف وأخلاقه وذكائه ، ومواقف المكفوفين التاريخية ، وجمع ما كتب عنهم من شعر ونثر ، وأمثال المكفوفين ، كما أورد معجماً لغوياً لهم ، وترجم لعدد من المكفوفين ، الذين تحدوا كف البصر (١٥ علماً) وأورد مجموعة من القصص عنهم . ولقي بكتابه بجزءيه اهتماماً واضحاً .

كما كتب عن رحلاته « عائد من الباكستان » و « أيام الكويت » وكانت عنايته الواضحة بالمسرح الاسلامي ، فقد وضع أكثر من ثلاثة عشرة مسرحية ، تمثل حلقات من تاريخ العرب والإسلام ، عن أبي فراس الحمداني ، وسلمة ابن دينار ، وعمر بن عبد العزيز ، وأشعب ، وسعد بن أبي وقاص ، ومسرحيات أخرى عن مولد الرسول ومروؤة الأبطال .

* * *

سألته عن أول ما كتب ، فذكر لي أنه مقال في نقد كتاب محمد لتوفيق الحكيم نشره في مجلة الأزهر ١٩٤٢ .

وقد استطاع في خلال هذه الفترة ، التي لا تزيد عن عشرين عاماً ، أن يحقق نجاحاً ضخماً في ميدان الفكر والأدب ، كان أبرزه هذا العمل الكبير الذي أزاح به النقاب عن حياة عملاق مثل الأمير شكيب أرسلان ، وكشف به عن جوانب ضخمة في حياتنا الأدبية والسياسية والإجتماعية المعاصرة .

ولسنا نكتفي من الأستاذ الشرباصي بما نشر عن شكيب أرسلان في نطاق الأبحاث العلمية ، ولكنا نطالبه بأن يكمل الجوانب الباقية من حياة (شكيب أرسلان) . وبذلك يقدم للأمة العربية وللباحثين ، عملاً نافعاً ، سيكون مرجعاً هاماً في كل ما يتصل بالقضايا العربية والاسلامية وتاريخ العرب في العصر الحديث .

رسائل شكيب أرسلان :

وليس هناك عمل أجل خطراً من كشف النقاب عن رسائل شكيب أرسلان ، التي قدم الأستاذ الشرباصي منها (٥٥ رسالة) من (١٣٠ رسالة) مخطوطة ، حصل عليها موجهة من شكيب الى رشيد رضا في الفترة من عام ١٩٣٥ ، وقد شغلت هذه الرسائل (٢٢٣ صفحة) من الرسالة .

ونحن نعلم أن شكيب أرسل مئات الرسائل الى عدد كبير من أعلام العالم العربي ، ومنهم الآن السيد محب الدين الخطيب ، الذي أراني ملفاً ضخماً به أكثر من مائتي رسالة من الأمير شكيب إليه . ولا شك أن الحصول على هذه الرسائل وإذاعتها ، يؤدي خدمة ضخمة للفكر العربي المعاصر والتاريخ العربي ، الذي يكتب الآن من جديد ، بعد أن تحررت الأوطان من القيود التي كانت تفرض عليها إخفاء بعض جوانبه .

وليس الأمير شكيب أديباً فحسب ، بل هو زعيم من زعماء العرب ، ولا شك تعطي رسائله حقائق بعيدة المدى ، تلقي الضوء على كثير من الأحداث وتضع النقط على كثير من الحروف .

وبالرغم من أن الشرباصي لم ينشر في كتابه ، الا الرسائل ذات الصلة ببحثه عن (أدب شكيب أرسلان) ، فإنه قد كشف عدداً كبيراً من الحقائق الهامة ، التي يتطلع اليها الباحثون الآن بشغف كبير . ففيها أحاديث مطولة عن الخلافة الإسلامية ، والوحدة العربية ، وموقف الأتراك الكماليين من العرب ، وموقف

السنوسي ، والملك عبد العزيز آل سعود ، والامام أحمد ، وعبد العزيز الثعالبي ، والخديوي عباس ، والشريف حسين ، ومصطفى كمال أتاتورك .

وقد أشار الى موقفه من الدكتور عبد الرحمن شهبندر والسيد محب الدين الخطيب وخصومه زكي باشا ومحمد علي الطاهر ومواقف أخرى متعددة .

وكذلك موقفه من ثورة عبد الكريم الخطابي ، والظهير البربري ، وعلماء المغرب المتعاونين مع الاستعمار ، وكفاح شباب المغرب في باريس من أجل الحرية ، وكيفية إرسال الصحف في جيوب المسافرين الى طنجة ، ومراسلاته الخطيرة مع المجاهدين في كل مكان ، وإرساله المساعدات اليهم .

ومواقفه من حرب التحرير الطرابلسية ، وموقفه من الملك أمان الله خان ، ومقابلاتـــه للملك فيصل ، وترشيح الشريف لعرش سوريا ، وتوحيد العراق والشام ، ونرى الأمير شكيب يكتب من كل مكان خلال هـذه السنوات : برلين ، ولوازن ، وجنيف ، ومرسين ، وبودابست ، وجنوه ، والطائف ، وبلنسية ، وبرن ، وزيورخ . وأغلبها من جنيف .

وله رموز للأشخاص بالعبارات والرسوم اليدوية .

ولعل أروع ما تكشف عنه هذه الراسائل – التي نرجو أن يكمل الشرباصي نشر باقيها في كتاب خاص أو في دراساته المقبلة عن رشيد رضا – هي صورة « المجاهد المغترب » ، وهي صورة طالمـــا بحثنا عنها في مذكرات وكتابات أعلامنا الذين هاجروا ولم يكتبوا مذكرات أو رسائل وافية ، وقد كنا نتطلع الى صورة حياة أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد العزيز شاويش والثعالبي والخضر حسين .

وقد أعطانا شكيب أرسلان في هذه الرسائل ، صورة وافيـــة واضحة الدلالة ، لرجل عزيز الجاه ، اغترب عن وطنه وشقي بهذه الغربة ، وتحالف

الاستعماران الفرنسي والبريطـاني على إبعاده عن وطنه الى الأبـــد ، مع شوق لافح وعاطفة ثرّة لأولاده وزوجته وأمه الغالية .

فاذا التقى بأهله في (مرسين) بعد غيبة طويلة ، يصور مشاعره فيقول :

« هأنذا والحمد لله بعد الغيبة المتطاولة ، وبعـد أحوال وأهوال وليال مظلمات ، قد جمعني الله بأهلي ، وشاهدت سيدتي الوالدة ، التي كنت أذوب شوقاً اليها وهي بالعافية ، وقرت عيني برؤية فلذة كبدي (غالب) ، الذي تركته ابن سنة ونصف تقريباً عيياً بمرجوع الخطاب ، فاذا بـــه في الثامنة ، والحاصل بالرغم من كل ما نعمت نفسي في أسفاري وفي معيشتي ، لم أذق طعم الراحة الحقيقية الى منذ جمعة بعد اجتماع شملي مما يدل على أنه لا راحة الا راحة القلب . . »

وتصور الرسائل مـدى الذي يلقاه في المعيشة في الغربة ، وكيف أن (مرسين) تكلف الساكن كل يوم جنيهاً واحداً في كل وجبة ، وأنه يعيش بها وحيداً لا يلقى أحداً ، « لو أردت أن أخرج الى السوق بالقفطان ما لاحظ ذلك أحد ، وتقضي الجمعتان والثلاث ولا يأتيني زائر ، ولمدة خمسة أشهر ما آدب مأدبة واحدة » .

ثم اذا سافر الى أوروبا يقول ان السياحة كلفته (٥٠٠ جنيه) « وما كان يجب أن أطيل الاقامة سبعة أشهر في أحسن الفنادق » فلما عاد وجد على العائلة بمرسين ٥٠٠ ليرة تركية ديناً ، (ثم جاءنا بدل ايجار البيت ٦٠٠ ليرة وهي ١٢٠ جنيهاً باركة على بمرسين ، ولا أقدر أن أوفر شيئاً لوفاءها من دخلي ، لأننا نريد أن نعيش ونحن تسعة أنفس مع الخدم) . ثم اذا انتقل الى جنيف وأقام بها ، لم تتوقف الشكوى ، فهو يذكر كيف بلغ منه الخناق مبلغه من جهـة المعيشة : (وفي آخر حساب عملته وجدت علي ألف جنيه ديناً . وأسعار لوزان وسويسرا من الغلاء بحيث تزيد في بعض الأصناف عشر مرات على مثلها في بيروت ، وحتى بعضها خمسة عشرة مرة ، وفي الفاكهـة والخضروات عشرين مرة) ... ومن

أجل هذا يقرر أن يرسل أسرته الى بيروت وذلك حتى يخفف أعباء المعيشة (ويتحمل مضض فراقهم) ، وذلك بعد أن وجـــد أن عليه في هذه السنة — ١٩٣١ — ألف جنيه .

ويقول : وفي هذه السنة أرسلنا الى دمشق لبيع مزرعتنا المروضة ، التي من جهات وادي العجم ، ولكن في السنين القادمة سنضطر الى البيع من أملاكنا في لبنان .

(وبالإختصار قررت إرسال العائلة الى الوطن ، فإنه سيوفر بذلك ثلثي المصروف بالأقل .. ثم يتعلم غالب العربي ...)

ثم يعود في رسائله الى شرح ضائقة حياة الغربة ، فيقول عـــام ١٩٣٢ : « كنا ننفق مائة جنيه في الشهر ، فأصبحنا ننفق أربعين جنيهاً ، بقينا نأكل برفاهة ولكننا تركنا الزوائد والفضول ، واقتصرنا في الملبوس على ما لدينا ، وتركنا لبس الجديد ، وأطرحنا كل ما ليس بضروري ، وفي مدة شهر ونصف لم يأكل عندنا الا أربعـــة أو خمسة ضيوف ، بعد أن كانت الناس على سفرتنا بصورة دائمة تقريباً .

وكنا ننفق على المأكل والشرب ٦٠٠ فرنك سويسري في الشهر ، فلمـــا اضطررنا للتوفير صرنا لا ننفق عليها أكثر من ٢٥٠ فرنكا ، ولقد كنت ألوم البخلاء وأقول قبحهم الله ، ماذا عسى أن يكون مصروف الضيافة . فكنت أجادل في ذلك ولا أقتنع بعكسه الى أن حصلت الأزمة واضطرت بفقد الدراهم من يدي أن أقتصد رغم أنفي » .

ويقول أن بعض دائنيه عندما علموا أنه انتقل الى جنيف « صاروا يكتبون لنا مكاتيب مزعجة وينذروننا بإقامة الدعاوى » .

« ووصل بنا الأمر الى أن عرضنا رهن بعض الحلي عند أحد الجوهرية الذين لا نعرفهم » .

ومع هذا الفقر والحاجة كان صابراً محتسباً ، يكتب ويؤلف ، ويرسل كتبه الى المنار والفتح والحلبي لنشرها نظير جنيهات قليلة ، ويحصل على النسخ فيرسلها الى الحبشة والكونغو وشرق أفريقيا وجاوه ، والى كل أصدقائه في العالم العربي والإسلامي لتوزيعها وإرسال ثمنها . ويعتذر للشيخ رشيد رضا الذي يطالبه بأن له ٦٢ مقالة لدى جريدة السياسة لم يدفعوا له عنها شيء ، ومقالاته عند حافظ عوض في كوكب الشرق ، وتأخر صاحب الجهاد عن دفع مقالاته .

ويدعو الى الاجتهاد في تصريف الكتب . ويحصل من كتاب « حاضر العالم الإسلامي » على مائة نسخة نظير كل مجهوده الضخم ، فاذا باعها لم يجـــد من يشتريها بأكثر من خمسين جنيهاً ويوالي تأليف الكتب وطبعها حتى يحصل على ما يسدد به بعض الديون .

وأحياناً يكتب الرسالة في يومين ونصف ، كما فعل في رسالة « لماذا تأخر المسلمون » يقول: « كتبتها بعجلة زائدة ، كرجل يريد الخلاص من عمل ليتفرغ لأعمال أخرى » .

ويشقيه خصومه بالائتمار به ، وينشرون ضده رسائل بالزنكوغراف منسوبة اليه ، فيكتب خمسمائة صفحة في خمسة عشر يوماً ، وتكل يده من الكتابة ، ويراسل أصدقائه وأعوانه في مختلف أنحاء العالم العربي والإسلامي ، فينفق أكثر من خمسين جنيهاً في العام على المراسلات .

وهو مشوق الى مصر ، يريـد أن يقيم فيها ، ويسأل رشيد رضا أن يتصل عبد الحميد سعيد بالملك فؤاد من أجل أن يسمح له بذلك .

فاذا سافر الى الحجاز منعوه من النزول بمصر، ثم يسمح له بعد الجهد بالنزول في السويس لينتقل من مركب الى مركب .

ومجلته الفرنسية تكلفه خسارة قدرها خمسمائة جنيه في العـــام الواحد . ومع هذا الشقاء كله تجده صابراً قوياً صامداً ، اذا ما نزلت بالعرب نازلة هنا

أو هناك شرع قلمه ومضى يكتب للملوك والأمراء والعظماء ، ويجمع المال ويطبع المنشورات ، ويوالي الصحف ، ويحرك الرأي العــام في قوة ، ومع هذا الفقر والمشقة كان يقابل أينما حل مقابلة الملوك فيقول في زيارتــه لشرقي أوروبا (بودابست – فينا – زوريخ) : « زرت بضعا وعشرين مدينة وقرية زينت المنازل بالأعلام ، وكان العلماء والأشراف يخرجون الى مسافات بعيدة للملاقــاة بأقواس النصر والموسيقات ، وكلما مررنا نسمع هتافات الجماهير ، جيفو أي فليجيى ، أما الذي لقيته من الحفاوة في بوصنة وهرسك ففوق الوصف ، بل فوق التخيل » .

« كلفتني سياحتي الى الأندلس وبعض المغرب مائتي جنيــه ، واستمرت ثلاثة أشهر ، وقد اقترضت من الدكتور بيضا . وكان عليّ من قبل ستمائة جنيه فصار عليّ الآن ٨٠٠ جنيه ولكنني ما سررت في حياتي بسياحة سروري بهذه السياحة ، برغم التذكارات المحزنــة المؤلمة التي تشوب سروري ، وكان انفاق المائتي جنيه على مثلي مثل العسل .

ويقول : « سيكون كتابي انشاء الله كبيراً عن الأندلس ، وجاء فيه ما لا يعرفه العرب حتى الآن . » .

ثم يعود فيقول أنه يزمع العودة الى الأندلس « فاتتني أشياء لا بد أن أراها في نفسي ، غرناطة ومدن أخرى ، وفاتني أن أرى المرية ووادي آش ومالقه وأماكن كثيرة ، ثم أني لم أشاهد الغرب اي بطلبوس وبلاد البرتغال .. »

وهكذا لا يتوقف شكيب أرسلان في غربته عن العمل ولا عن الرسائل :

« الحال أن الأشغال لا تمهلني أن أتنفس ، ولولا أن الله يمن بالقوة ما كان يمكنني أن أقوم بذلك وحدي ، ولولا ضعف العينين ، لا أشكو هذه المدة من شيء ، ولكن وفرة الكتابة تضطرني الى غسل عيوني بالبابونج الحــار ثلاث مرات في اليوم » .

وبعد فهذه صورة حياة المغترب كما عاشها شكيب أرسلان ، ورسمها بقلمه في رسائله الى رشيد رضا .

ولا شك أنه كان لهذه الرسائل التي نشرها الشرباصي أهمية تاريخية بعيدة المـــدى ، وسيكون للرسائل الباقية « وهي ٨٥ رسالة » وأغلبهـــا سياسية أثر بعيد .

والواقع أن العمل الأدبي الذي تحقق بنشر دراسة مستفيضة عن شكيب أرسلان ، في ١٥٠٠ صفحة وثلاثة مؤلفات ، عمل كبير نافع ، وجدير بالتقدير ، مع المطالبة بالإتمام السريع ، والدعاء للشرباصي بالتوفيق .

● (أحمد الشربيني جمعه الشرباصي) من مواليد ١٩١٧ ، من خطبـــاء الأزهر وأعلامه ، من خريجي كلية اللغة العربية والأستاذ بها ، يعد الآن رسالة الدكتوراه عن « رشيد رضا » .

من مؤلفاته : الإسلام والاقتصاد ، القيم الروحية والأخلاقية وأثرهـــا في الشخصية العربية ، أحاديث الجهـاد والفروسية ، أدب امير البيان ، النيل في ضوء القرآن ، الاشتراكية والدين ، طبقات الصوفية ، عائـــد من الباكستان ، في رحاب الصوفية ، امين الأمة ابو عبيدة ٠ وسائل تقدم المسلمين ، ايام الكويت ، حفيدة رسول الله السيدة زينب ، قصـــة التعسير ، مسرحيات إسلامية ، صلوات على الشاطىء ، مولد الهدى ، الأئمة الأربعـــة ، الغزالي والتصوف الإسلامي ، بطولات إسلامية وعربية ، في عالم المكفوفين ، بـين صديقين ، من اجـل فلسطين ، التصوف عند المستشرقين ، لمحات عن ابي بكر ، محاضرات الثلاثاء ، حركة الكشف ، مذكرات واعظ أسير ، حب الوطن في نظر الدين ، خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز ، سيف الله خالد ، الدين وتنظيم الأسرة ، الدين والميثـــاق ، دعوة الاسلام (مجـــلة) ١٩٦٣ ، دستور الطالب .

(٦)

أحمد عطية الله
كتابة الموسوعات

أعتقد أن النهضة الفكرية في العالم العربي اليوم ، أحوج مـــا تكون الى المراجع الدقيقة السريعة ، وذلك بعد أن تعددت مطالب الحيـــاة ، وتنوعت أسبابها ، وتشعبت ، بحيث لم يعد هناك من الوقت ما يسمح للكثيرين بمراجعـة الأسفار المطولة ، فنحن نعيش في عصر السرعة ، بل السرعة الخاطفة ..

وقد فهم الأستاذ احمد عطية الله هذا الغرض منذ سنوات طويلة ، منذ عام ١٩٤١ ، وهو منذ ذلك التاريخ الى اليوم ، يعمل في هذا المجال على نحو يلفت النظر حقاً ، ويدفع الباحث الى المراجعة والانتباه . ففي خلال نيف وعشرين عاماً أصدر هذا الباحث خمسة قواميس منوعة الأحجام والموضوعات ، كان هدفه منها تقريب المعلومات المختلفة الى الباحث المتعجـــل ، والى الصحفيين والكتاب بنوع خاص ، في ميادين متعددة ، في مجـــال السياسة والوطنية والإسلاميات والمعلومات العامة .

ولقد عمل في هذا الميدان منذ وقت بعيد ، أعلام لا نستطيع أن ننسى

جهدهم ، وفي مقدمتهم البستاني وفريد وجدي ، ودائرة البستاني لما تكتمل حتى اليوم ، والدكتور فؤاد افرام البستاني قد أخذ على نفسه عهداً بإتمامها ، وما أظن أن جديداً قد أضيف حتى الآن ، وهي بالاضافة الى دائرة فريد وجدي التي ظهرت قبل الثلاثينات من هذا القرن، قد بعدتا عن مجال المعلومات العديدة، التي تتجدد كل يوم في كل مجال، خاصة مجال العلم وفتوح الكشوف والاختراعات، ولذلك فاننا نتلفت من حولنا فلا نجد إلا مشروعات لدوائر معارف وموسوعات لعديد عنها ، عن هيئات حكومية في مختلف أنحاء العالم العربي ، ولكننا ما زلنا نؤمن بالجهد الفردي ، إذا صدقت النية وتوفرت الإمكانيات . والأستاذ عطية الله رجل دؤوب منظم ، أتيح له منذ مطلع حياته أن يسافر الى أوروبا ، وأن يقضي بها سنوات طويلة ليحصل على عديد من الدرجات في التاريخ وعلم النفس من جامعة لندن ، ثم هو منذ عاد الى مصر يواصل العمل في مجالاته الفكرية المختلفة ، ففي الصحافة والكتابة والتأليف ، له عشرات من الكتب الانيقة المخدومة ، وله سلسلة من سلاسل الأعلام ، قدم عشرات من الشخصيات، وأدى اهتماماً كبيراً للشباب والأطفال ، فقدم ٣٢ كتاباً وقصة تأليف وترجمة ، وطبع مجلة للأطفال ما تزال حتى الآن مرجعاً لكل من يكتبون في هذا الفن . وهو واحد من ثلاثة قدموا هذا الفن الى الأدب العربي : كامل كيلاني ، وأحمد عطية الله وسعيد العريان .. وله مؤلفات في علم النفس والتربية ، درس فيها نظريات متعددة ، وهي تقويم التعليم ، والذاكرة ، والنسيان ، وسيكولوجية الضحك، والطفل الشاذ، وله مؤلفات في الرحلات .. وكتب عن لندن وبرلين، وله : يوم في باريس ، وعلى الدانوب ، وحدث في باريس ، فضلاً عن تراجمه عن محمد عليه السلام ، والسلطان عبد العزيز ، وهارون الرشيد ، وصلاح الدين الأيوبي ، وعبد الله النديم . وفي مجال المؤلفات التاريخية له : الهاربون، والجيش الفاتح ، والحقائق والوثائق عن ثورة مصر ...

ويعنينا هنا بصفة خاصة ان نقدم هذا الباحث في مجاله الكبير ، مجال الموسوعات ، وذلك بمناسبة ظهور موسوعته الجديدة « القاموس الإسلامي » ..

التي ضمنها تعريفاً بمصطلحات الفكر الإسلامي ، ومعالم الحضارة الإسلامية ، وتاريخ الدول الاسلامية ، وتراجم الأعلام والمشاهير ، مع التعريف بأشهر المؤلفات في المكتبة العربية والإسلامية .

ويضم هذا القسم الأول أكثر من ألفي مادة ، والقسم الثاني في الطريق إلى قرائه ...

ونحن نعلم أن هناك دائرة المعارف الإسلامية التي ما تزال لجنتها في القاهرة منذ سنة ١٩٣٢ تواصل ترجمتها ، ولما تصل بعد الى حرف (ش) في جهد مشكور ، ولكنه طويل ، ربما كان مضيعاً حيث ظهرت دوائر معارف إسلامية جديدة ، فضلا عما أُخِذَ عليها من نقص وأخطاء وانحرافات .

من أجل هذا كانت الحاجة ماسة الى موسوعة مفهرسة عن الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية ، للتعريف بهذا التراث الإنساني ، الذي عاش من عمر الزمان أربعة عشر قرناً ، ويشير الأستاذ عطية الله الى المحاولات التي سبقته ، فشكرها ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر أن بعضها كان قاصراً عن تحقيق روح الغرض وجوهر الغاية التي تستهدفها موسوعة إسلامية تعرف وتحقق وتحدد للقارىء مدلولات ومعاني الأسماء والمصطلحات التي يلتقي بها في دراساته وقراءاته ، فاذا قيل أن هناك مؤلفات كثيرة في هذا المجال ، كان من رأي صاحب الموسوعة : أن الفائدة لا تتهيأ منها الا للخاصة من القراء المتمكنين من هذه الدراسات ، فضلا عن أن أمهات هذه المؤلفات قد وضعت في عصر غير هذا العصر ، فهي تحتاج الى إعادة نظر في صياغاتها ، والى تجديد مادتها .. وعنده أن أشد ما يؤخذ على هذه المؤلفات المعجمية ، أنها لا تحيط بشتى نواحي التراث الإسلامي ، فهي إما أن تكون معنية بالمادة اللغوية أو الفقهية أو العقائدية ، وإما أن تكون معنية بالتاريخ الإسلامي الى عصر المؤلف ، أو بتراجم أعلام الفقهاء والعلماء والأدباء ورجال الحكم والحرب والسياسة ، أو بأسماء الأمكنة وما إليها . وقد راجع المؤلف كل الأعمال التي سبقته ، وحاول أن

يكون عمله جديداً ونافعاً ، وكان من رأيه أن الحاجة ملحة الى معجم تتسع مادته بحيث تشمل مصطلحات التراث الإسلامي من أعلام ومسميات ، ويضيق حيزه بحيث لاتتضاعف مجلداته الى الحد الذي يحرم كثيرين من الحصول عليه ، أو يثقل عليهم استخدامه ، ومن هنا جاء هذا القاموس الذي عني بمختلف آثار العالم الإسلامي من أقصى المشرق الى أقصى المغرب ، جغرافية وأعلاماً وحضارة وتاريخاً ، مع الرسوم والصور والخرائط المناسبة . وكان عمل المؤلف السابق في قواميسه : القاموس السياسي ودائرة المعارف الحديثة واضحاً ، فقد تمرس بهذا اللون من العمل وأجاده ، وبلغ فيه مبلغ الثقة والتقدير من مختلف الباحثين .

فاذا رجعنا اليوم الى (القاموس السياسي) ، وهو أول أعماله في هذا الميدان ، وجدنا المؤلف دقيق العناية بمختلف حاجات الباحث في ميدان الحرب أو السياسة أو الاقتصاد ، فاذا وجد الحاجة ماسة لقاموسه أعاد طبعه وأضاف اليه (خلال الحرب العالمية ١٩٤٣) قسماً جديداً ، تحت عنوان : (قاموس الشؤون الجارية) وقد جعله منفصلاً ، حتى إذا ما استقرت شؤون العالم بعد ذلك مزجه مع الأقسام الاخرى ، وتلك حيطة نافعة ، حتى لا تتأثر حقائق التاريخ الرئيسية بأحداث الحاضر المتذبذبة .

وفي قاموسه هذا ، يقدم رؤساء الدول ، وأنظمة الحكم ، وعواصم العالم ، وتعداد سكانها ، ومدن العالم الكبرى ، والعملة في العالم ، وميزانيات الدول ، ووارداتها وصادراتها ، والديون الدولية ، والأساطيل التجارية ، ومواصلات العالم البحرية ، ونسبة المواليد والوفيات في العالم ، وإنتاج العالم للمواد الغذائية . ويوجه للعالم العربي عناية خاصة ، ويضم الى ذلك أطلساً سياسياً مزوداً بالخرائط .

فاذا انتقلنا الى دائرة المعارف الحديثة ، وجدنا عملاً أنيقاً مرتباً ، فيه طابع العلماء وطابع رجال الفن معاً ، فالأستاذ عطية الله يضع في تقديره أن هذا العمل سينتفع به الصحفيون والأدباء والمفكرون وهيئات التدريس في الجامعات والمدارس ، ولذلك فهو يزوده بكل ما يستطيع من صور ورسوم وخرائط ،

وقد أعانه على هذا العمل أنه كان مديراً لمتحف التعليم فترة من الزمن ، مما هيأ له جواً علمياً في العمل ، لم يتوفر له من بعد عندما عمـــل مديراً لمكتب البعثات التعليمية في النمسا ، وملحقاً ثقافياً بالسفارة المصرية بفيينا ، ولكنه كان في خلال هذه المراحل من حياته العملية ، الرجل المشهود له بالخبرة والبراعـــة ، وأخشى أن أقول الصراحة في أداء الواجب كاملاً على النحو الذي يحقق أحسن النتائج ، ولقد أتيح لنا أن نعمل معاً في مجال المطبوعات الفكرية والسياسية سنوات ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ ، وفي برنامج صوت الشباب في الاذاعة المصرية ، فكان مثلاً من أمثلة العالم المدقق ، الذي لا يقبل شيئاً الا بعد مراجعة دقيقة وفحص علمي واف ، وما زلت أذكر كيف كان يعمل هو الساعات الطويلة في مراجعات طويلة ، حتى يخرج العمل أشد ما يكون كمالاً وقوة ، ولعل هذا يرجع الى طابع الصعيد وطابع أسوان بالذات .. فكذلك عرف العقاد جاره وابن بلده ، فاذا أضفنا الى ذلك كفاحه المتصل في مجال العلم سنوات طويلة ، واتصالاته بأوساط الباحثين والعلماء في جامعة لندن ، وعمله في مجال الصحافـــة المصرية والتعليم ومراقبة الصحافة وإدارة الشباب ومراقبات نشر الثقافة والمطبوعات ومتحف التعليم ، خلال حياة خصبة ما تزال عامرة بالعمل الدائب ، قدرنا هذه العقلية الموسوعية التي تأخذ خطاً واضحاً ما أحوجنا الى أن نضاعفه .

ولقد عني الأستاذ عطية الله بالموسوعة الإسلامية منذ ظهر المؤتمر الاسلامي ، وزاد من اهتمامه بها عندما عين مديراً لمعهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة . وما زلنا ننتظر منه إعادة طبع دائرة المعارف الحديثة ، وقد مضى عليها اثنا عشر عاماً ، وقد احتفلنا بها في جريدة الزمان بكلمة تحية في ٤ ابريل ١٩٥٢ جـاء فيها : « عكف الأستاذ عطية الله منذ وقت طويل ، على دراسة دوائر المعارف الفرنسية والإنجليزية والأمريكية ، واستخلص من لبابها الذي صدر في عشرات الأجزاء عملاً قوياً ناعماً ، أضاف اليه من بلادنا وتراثنا الشيء الكثير . ولقــد كنت أزور الأستاذ عطية الله فأجده في أي وقت من الصباح أو المساء عاكفــاً على مراجعه الضخمة ، يحاورها ويستخلص منها بنوده التي ضمنها دائرة معارفه ،

فلم يذق النوم عاماً كاملاً . فأدهشني هذا الانكباب وهذا التجرد لبحثه ، وهذا الانصراف عن بنيه وأولاده ومشاغله الخاصة ، واستهانته بأمر راحته في سبيل العمل . وقد استطاع بذلك أن يقدم خدمة جليلة للفكر الحديث ما أظن أن جيلنا المعاصر يستطيع أن يقدرها حق قدرها أو يجزيه بها » .

واليوم وبعد ١٥ عاماً ، أعود فأقول أن أحمد عطية الله ، يكفيه أنه وضع اسمه بين الخالدين من مؤلفي الموسوعات ، وأنه الآن إذ يقال (البستاني ووجدي وعطية الله) في العالم العربي ليكفي ، أما الجزاء المادي فما أظنه يتطلع إليه . ولو كان من رغائبه لوجه جهده الى المجالات التي تدر الألوف ، وهو القادر على أن يحسن كل ما يعمل ، في أي ميدان ..

● أحمد عطية الله من مواليد ١٩١٠ في اسوان، خريج جامعة لندن تفرغ للقواميس والموسوعات وعني بدراسة التربية وأدب الطفل وأصدر مجلة للاطفال، وحرر باب يوميات التعليم في الاهرام ١٩٣٤ .

من مؤلفاته : بسائط علم النفس ، تقويم الشعب ، برلين ، الحقائق والوثائق عن ثورة مصر ، دائرة معارف التربية ، دائرة المعارف الحديثة ١٩٦١ ، الذاكرة والنسيان ، رحلة ابن بطوطه ، العهد الجديد ، طارق بن زياد، على الدانواب ، قاموس الثورة المصرية ، القاموس الاسلامي (صدر منه ٢ جزء)، ميثاق الثورة ، يوم في اوربا ، الهاربون، القاموس السياسي ، لعب الأطفال ومكانها في التربية ، لندن ، المصانع الحربية ، مصر في الميدان ، مزين بغداد .

(٧)

الدكتور أحمد غلوش
الدعوة إلى الإسلام

ما يزال اسم الدكتور « أحمد غلوش » واضح الدلالة في العالم العربي كله على دعوته الى تحريم الخمر ، ودراساته المتصلة في هذا المجال ، كما عرف بمؤلفه عن الاسلام الذي كتبه باللغة الانجليزية وطبع عدة مرات وترجم الى عديد من لغات العالم ما عدا اللغة العربية .

ولعل هذا الجانب هو الذي أعطى الدكتور أحمد غلوش شهرتـــه الواسعة حيث أصبح كتابه مرجعاً من المراجع الأساسية لدراسة الإسلام ، وبالرغم ممـا ظهر بعد ذلك من عديد من المؤلفات فما زال يمثل الريادة في هذا المجال .

وكان الدكتور غلوش قد سبق الى هذا المجال منذ عام ١٩٣٦ تقريباً ، حين أصدر كتابه (حقائق الدين الإسلامي) باللغة الإنجليزية في جزءين ، إثر تجربـة طويلة في مجال المثقفين الاوربيين والهيئات المختلفة ، وبعد أن توالت زياراتـه

لأوربا من أجل دعوته الى تحريم المسكرات ، والتقائه بالعشرات من المتعطشين الى معرفة حقيقة الإسلام ، وكان مما أعان الدكتور غلوش على هذا العمل أنــه تخرج من جامعة لندن عام ١٩١٣ أستاذاً في اللغة الإنجليزية ، بالاضافـــة الى دراسة واسعة للعلوم الإسلامية في جامع الشيخ ابراهيم بالإسكندرية على النحــو الذي يدرسه العلماء في الأزهر الشريف . وقد بلغ في إجادته للإنجليزية أنه يعد واحداً من عدد لا يبلغ أصابع اليد في العالم الإسلامي كله .

فلما أحس الدكتور غلوش بحاجة غير العارفين باللغة العربية إلى هذا العمل ، وجه نفسه إليه ، وأمضى سبع سنين باحثاً دراساً ، حتى استطاع إخراج كتابه مشتملاً على دراسات عن الإسلام وسيرة الرسول ، شارحـــاً الرسالة الإسلامية والعقائـــد الدينية ، مقيماً الأدلة على صحتها ، مفنداً للشبهات والمفتريات التي أثيرت حول النبي وحول الإسلام بلغة انجليزية سليمة .

يقول الدكتور غلوش : « كان مفروضاً على جماعة العرب المسلمين أن يهتموا بتبليغ رسالة الإسلام على وجهها لمن لم تبلغه ، فهي رسالة عالمية لا تخص العرب وحـــدهم دون غـيرهم من الأمم والشعوب ، لا سيما وقد كثر الكتاب الأجانب المغرضون ، ونهض المبشرون المحترفون ، لإثارة الشبهات والمفتريات حول أصول الاسلام ونبي المسلمين ، فكان حقاً علينا معشر العرب المسلمين أن نهـب لدرء الشبهات عن ديننا ، ثم أن هناك أقواماً مسلمين يعدون بعشرات الملايين يقيمون في الأقطار الأجنبية مثل الهند والصين والباكستان والملايو واندونيسيا وغيرها، كما يوجد في الأقطار الإفريقية الحديثة الإستقلال أقوام عديدون ، يقرأون باللغة الانجليزية دون العربية ، وهم لا يعرفون من مسائل دينهم الا النذر اليسير ، فهم في حاجة الى معرفة ما خفي عليهم من أمور دينهم وأصوله، باللغة التي يفهمونها وهي اللغة الانجليزية » .

وقد وجد كتاب الدكتور غلوش شهرة واسعة ، نظراً لقدرته الفائقة في إذاعته وإهدائه الى عشرات من الأعلام والسفارات والمسؤولين في مختلف أقطار العالم ، وفي الهند لقي الكتاب رواجاً كبيراً ، وفي الولايات المتحدة شق الكتاب طريقه الى كثير من المسلمين الذين لا يعرفون العربية ، وكان من ترجم الكتاب الى اللغة اليابانية ، وقال البروفسور كلارك الأستاذ بجامعة أكسفورد أنه (بعد أن قرأ في الكتاب سيرة الرسول محمد أكثر من مرة لم يجد لقباً جديراً بـه الا لقب النبي إذ أن صاحب هذه السيرة لا يمكن إلا أن يكون نبياً) .

كما لقي كتاب الدكتور غلوش تقدير الباحثين المتخصصين ، الذين أجمعوا على أن الكاتب أجرى مقارنة بين نصوص الكتب المقدسة ، من شأنها أن تعين القارىء على تفهم حقائق الاسلام على وجهها الصحيح ، وأنـه كان أقرب الى المؤرخ العادل منه الى الكاتب المدافع عن دين قومه ، فـلم يعمد الى المديح أو الميل مع الهوى بل بسط الحقائق كما هي ، على نحو موضوعي دون أن يكون عمله مذكرة دفاع .

كما عد من أسباب أهمية الكتاب في مجال التعريف بالاسلام ، أنـه عالج كافة المسائل الأصولية للإسلام.. وما جاء به من الشرائع الأساسية والإصلاحات والأنظمة الاجتماعية وكما تناول الأحوال الشخصية وحقوق المرأة .

وما زال الدكتور غلوش بعد سن السبعين فتياً صادق الايمان مدفوعـاً الى العمل ، لإضافة دراسات جديدة عن مقارنات الأديان .

وقد صور الدكتور غلوش تجربته في هذا المجال فقال :

« أن هناك أقواماً مسلمين يعدون بعشرات الملايين ، يقيمون في الأقطار المختلفة ، يقرأون باللغة الانجليزية ، دون العربية ، وهم لا يعرفون من مسائـل دينهم الا النذر اليسير ، فهم في حاجة الى معرفة ماخفي عليهم من أمور دينهم ، وأصوله باللغة التي يفهمونها ، وهي اللغه الانجليزية . ولقد وقفت أثناء تجوالي

في الأقطار الأجنبية على هذه الحقائق ، فصح عزمي على وضع مؤلف باللغة الانجليزية يؤدي عن العرب والمسلمين الواجب ، ولقد اطلعت على ما كتبه المؤلفون الأجانب عن الاسلام لأقف على مواطن النقص والأباطيل التي تحتويها والشبهات التي أثيرت فيها .

وقد علمت علم مشاهدة ويقين، من مخالطتي لكثير من الاوربيين والأمريكيين، أن هؤلاء القوم قد أوتوا حظاً كبيراً من العلوم المدنية والمعارف الكونية ، فاستنارت عقولهم وتثقفت أذهانهم ، بحيث اذا عرض عليهم الحق بادروا الى قبوله ، وقد اتفق لي حين اتصلت بآخرين من الأوربيين المثقفين أن وجدتهم يزعمون أنهم على بينة من دين الاسلام ، ولكني حين تحدثت اليهم ألفيتهم لا يعرفون في الواقع من أمر هذا الدين غير ما قرأوه في مصنفات وضعها بعض دعاة الكهنة أو المستشرقين، إما بعدم تمحيصهم لما يثبتون وينقلون، وإما استكباراً، وقد وقعت في يدي مصنفات من هذا القبيل، وقد خلصت الى أمرين (الأول): إن الغربيين، خصوصاً المثقفين والمستنيرين منهم، يتوقون فعلاً الى كتاب من وضع المسلمين أنفسهم ، يرشدهم الى حقيقة الرسالة الاسلامية وما تنطوي عليه من عقائد دينية ومبادىء عمرانية وآداب عامة ، و (الثاني) : أنه قد أصبح من أوجب الواجبات علينا ، ان نهتم جد الاهتمام بأن ننشر ما ينطوي عليه الاسلام من العقائد والمبادىء والأحكام ، في كتاب جامع بإحدى اللغات الأوربية لنبين أمهات المسائل الإسلامية ، ونرد فيه على الشبهات التي أثارها بعض الكتاب ، وإذ كنت بفضل الله مثقفاً ثقافة إسلامية ، وقادراً على تبيانها باللغة الانجليزية فقد صنفت هذا الكتاب » .

● الدكتور أحمد غلوش : داعية منع المسكرات منذ عام ١٩٠٥ والباحث الاسلامي الذي يجيد الحديث عنه باللغة الانجليزية بطلاقة . وله أبحاث عديدة موزعة في بطون الصحف والمجلات خلال اكثر من ستين عاماً .

(٨)

الدكتور أحمد شلبي
الدراسات الإسلاميّة

برز في ميدان الدراسات الاسلامية « الدكتور أحمد شلبي » ، الذي أتيح له أن يبدأ عمله الفكري الاسلامي في (أندونيسيا) ، حين عمل مديراً للمركز الثقافي للجمهورية العربية بجاكارتا ، وأستاذاً للدراسات الإسلامية بالجامعات الاسلامية بأندونيسيا في الفترة بين ١٩٥٥ - ١٩٦١ ، هنالك أتيح له أن يخرج عشر مؤلفات باللغة الأندونيسية أهمها عن « مقارنة الأديان » و « الفكر الاسلامي » ، و « التربية الاسلامية » و « التاريخ الاسلامي » . كما تحقق له أن يترجم عديداً من مؤلفاته وبخاصة كتابه عن تاريخ التربية الاسلامية الى الأوردية ، وأن يترجم أيضاً الى اللغة الانجليزية .

والواقع أن الدكتور شلبي باحث متعمق موسوعي ، فإنه قد وضع لعمله في التعريف بالاسلام خطة ضخمة بعيدة المدى ، وأخذ نفسه بالعمل لها وفق نظام دقيق ، وأبرز أعماله هي دراسات مقارنة الأديان في أربع مؤلفات كبرى ، عن اليهودية والمسيحية والاسلام وأديان الهند الكبرى « الهندوسية — اللجينية والبوذيه » .

وقد أتيح له أن يكون علم مقارنة الأديان من أعماله في عديد من الجامعات ، وكان لعمله في أندونيسيا أثره الواضح في اهتمامه بالدعوة للاسلام في منطقة جنوب شرق آسيا، وفي هذه المنطقة الضخمة بين قارة الهند وجزر أندونيسيا .

وقد استطاع بذكائه الفائق أن يجيد اللغة الأندونسية ، وأن يكتب بها ويحاضر ، بالإضافة الى العربية والانجليزية . ومن ثم تحقق له أن يكتب بها مؤلفاته العشر التي تعد ركيزة الدعوة الاسلامية في هذه المنطقة وأساسها والتي ما تزال تطبع منها عشرات الألوف باذن مطلق من مؤلفها .

والواقع أن الدكتور أحمد شلبي بدأ حياته الفكرية بداية كانت ترمز الى هذا الدور الضخم الذي قام به في مجال التعريف بالاسلام ، فقد كانت أطروحته من أجل إجازة الدكتوراه في جامعة كمبردج عن « تاريخ التربية الاسلامية » ، وهو موضوع شائق مبتكر لم يسبق فيه بمؤلفات أو دراسات ، وقد أجهده هذا البحث الذي تطلب منه رحلة طويلة من لندن الى دمشق وحلب وبيروت وبغداد والنجف والقاهرة ، من أجل الحصول على الوثائق في الموضوع الدقيق ، الذي كان ينقص المكتبة العربية حقاً ، فقد كان الشباب المثقف في العالم العربي والشرق ، يعرف كثيراً عن أصول التربية الاغريقية والانجليزية والفرنسية ، ولكنه لا يعرف شيئاً عن التربية الاسلامية ، فاستطاع بهذا العمل أن يسد هذا الفراغ ، ولقد شهد أستاذه المستشرق الدكتور آرثر اربري بهذا العمل ، فوصفه بأنه دراسة قوية الدعائم وناجحة الى أقصى حدود النجاح ، إعتمد الباحث في إخراجها على المصادر الأصلية المتعددة ، وبخاصة بمجموعة كبيرة من المخطوطات التي تيسر له قراءتها في أثناء رحلته العلمية الى دول أوربا والى دول الشرق ، وأشهد أن الدكتور شلبي في اختباره لهذه المصادر وفي دراسته لها وانتفاعه بها، قد تجلت فيه مواهب البحاثة الدقيق من جلد وعمق وإحاطة وحماسة وامتياز ومقدرة على الوصول الى قلب المشكلة ، وموهبة الوضوح وحسن النظام وروعة العرض .

ثم كان أن اتجه الدكتور شلبي الى عملين كبيرين هما: دراسة الفكر الاسلامي في مجالاته الثلاث : الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، فكان كتابه « المجتمع الاسلامي » الذي ترجم للغتين الأوردية والأندونيسية ، كما ترجم كتابه عن التربية الاسلامية ، ويبدو في هذا البحث الجهد الشاق الذي بذله الباحث في شرح النظريات الاسلامية في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع والاخلاق ، ثم يشرح حال المسلمين وأسباب اضطراب مجتمعهم ، والأسباب التي قادت الى هذا الاضطراب ، وهو كما وصفه مؤلفه رحلة طويلة من جهة الزمان والمكان ، وقد أتيح لهذه الدراسة الخصبة المادة أن تجد مجالاً نافعاً في أندونيسيا والملايو والباكستان ، ووجد إقبالاً وشغفاً حتى عد في هذه الأقطار من الكتب الرائدة البناءة ، وطبع منه عشرات الالآف من النسخ .

وأتيح للدكتور شلبي أن يشارك بدراساته هذه في بناء الحكومة الأندونيسية في أواخر ١٩٥٦ عندما انعقدت الجمعية التشريعية لوضع الدستور .

فقد إستطاع أن يقدم عملاً نافعاً في هذا المجال ، طلبه منه السيدان الحاج محمد ناصر رئيس حزب ما شومي والحاج عبد الفتاح كفراوي وكيل الجمعية التشريعية وأبرز أعضاء حزب نهضة العلماء ، فقام من فوره بعمل رسالة بعنوان « الحكومة والدولة في الاسلام » أقبل عليها القراء العرب والأندونيسيون إقبالاً ملموساً ، مما دعاه الى تعميق البحث حتى برز أخيراً في صورة أكثر كمالاً وإفاضة تحت عنوان « السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي » ويستكمل دراسة الفكر الاسلامي بكتابه عن الحياة الاجتماعية الذي يعده الآن .

وقدم الدكتور شلبي موسوعة أخرى عن التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية في خمسة أجزاء ، تناولت تاريخ الاسلام منذ بزوغ فجره الى الوقت الحاضر ، كما تناول تاريخ العرب من قبل الاسلام ، وهكذا فتحت هذه الدراسات الطريق أمام العمل الكبير الذي أتيح له أن يقوم به ، ويوغل فيه ، ويحقق جهداً ضخماً في أربع لغات : العربية والانجليزية والأندونيسية والأوردية .

ويمكن القول أن الدكتور شلبي نموذج فريد في تكوينه ، فقد تعـلم في الأزهر ودار العلوم وجامعة كمبردج ، وهو مما لم يتح الا للقليل من المثقفين ، ولعل هذا هو مصدر اكتمال بنيانه الثقافي ، على نحو يجعله من أبنـاء المدرسة الوسطى ، التي استطاعت أن تتصل ببيئات المستشرقين ، وتعيش فيها سنوات دون ان تنحرف أفكارها أو تضطرب مقاييسها ، لأن القاعدة الأساسية للبناء الفكري كانت متكاملة وناضجة قبل الرحلة ، مما أتاح له ما أتيح من قبل لعبد العزيز شاويش وحسين توفيق العدل ، وغيرهم من الأعلام ، الذين وردوا موارد الثقافة الغربية ، ثم استفادوا منها أسلحة مشحوذة للدفـاع عن الفكر العربي الاسلامي ، وتنقيته وترقيته وإبلاغه مكانته الحقة .

ويتحدث الدكتور شلبي عن تجربته الثقافية ، فيقول :

عشت في الأزهر تسع سنين ، أبتدأت وسني حوالي خمس عشرة سنـة ، وانقضت وأنا في الرابعة والعشرين ، وفارقت الأزهر بعد ذلك ، ولكني ظللت متصلا به بثقافتي وأقاربي الذين يتعلمون ويعلمون فيه . وقـد سئلت في أوربا هذا السؤال :

– ما أهم الأحداث والمفارقات التي حدثت لك بين الثامنة عشرة والرابعـة والعشرين ؟ .

وسألت أنا بدوري : لماذا تقصدون هذه الفترة من العمر ؟ .

وتلقيت الجواب : إنها فترة الشباب المضطرب : مجازفات ، رحـلات ، رياضة حب ، أخطاء ، أزمات نفسية ، خيال ، أمل ، تردد ، إقبال .

وفكرت في هذه السن وفي حالتي وقتها وأجبت :

– لم تمر علي هذه الفترة بعد .

وقال محدثي بمكر : هل لم تصل بعد الى الثامنة عشرة ؟

قلت : لقد وصلت في حساب الزمن ، ولكني كنت في هذه الفترة طالبـاً بالأزهر ، فلم أعرف المجازفات ولا الرحلات ولا الرياضة ولا الخيال ولا الأمل..

وانما عرفت ألفية ابن مالك والمتون والشروح والحواشي ، وكنت طالباً مخلصاً للعلم ، فكانت هذه الدراسات هى عالمي الذي فتحه لي « الأزهر » دون أن يفتح لي باباً سواه ... ولعل من حقي أن أقرر أن معرفتي بالأزهر كانت أعمق من معرفة الجمهرة الغالبة من الطلاب به ، وسبب ذلك أنني كنت طالباً حريصاً الحرص كله على العلم ، وكنت أتمتع بجانب من الذكاء لا بأس به ، ولأضع لك هذه الحقائق في أرقام أدق بيانـاً وايضاحاً ، أقرر أنني لا أذكر أني تخلفت درساً واحداً ولا يوماً واحداً طيلة هذه السنين ، وأنني كنت أول الناجحين في جميع الامتحانات التي دخلتهـا بالأزهر ، ويدخل ضمن هذه الامتحانات امتحان الشهادة الابتدائية على جميع المعاهد الأزهرية في القطر كله .

ولقد منحت الأزهر كل نفسي ، وأقبلت عليه إقبالاً نادراً ، وكنت موضع تقدير الشيوخ وحبهم » .

* * *

وفي الأزهر اتجه الدكتور شلبي الى الأدب وقراءة الدواوين الشعرية ، فأصبح خطيباً مرموقاً ، وعضواً بارزاً في لجان السياسة ، حتى أسلمت له مقاليد العمل الوطني في المعهد الثانوي بالزقازيق . غير أن العمل الوطني وجد جزاءه الحرمان من دخول الامتحان فاتجه الى دار العلوم بعد نجاحه الفائق في ثانوية الأزهر ، وانتهت دراسته في كلية دار العلوم الى درجة الامتياز ، مما أتاح له أن يسافر الى أوروبا ويعبر البحر ويلتحق بجامعة لندن ، ثم جامعة كمبردج .

يقول : وكافحت كثيراً لأثبت قدمي ، ولكن طالما عرض لي هذا السؤال :
كم لغة كنت أستطيع أن أجيد ، وكم كتاباً كنت أستطيع أن أقرأ لو

وجهت لذلك ؟ وبذلت فيه الوقت والجهد اللذين بذلتهما لحفظ الألفية وفك ألغازها وحفظ قطر الندا وشذا العرف والسعدي والأشموني والخطيب .

وبعد ، فقد قدم الدكتور شلبي للمكتبة الإسلامية في اللغات الأربعة ، آثاراً نافعة بعيدة المدى في خدمة الدعوة الإسلامية ، في مجال التعريف والدفاع عن الاسلام ، وما زال يشق طريقه في قوة وعون من الله .

وفي هذا المجال يمكن أن يذكر الكثيرون ممن قاموا بالعمل في هذا الميدان من العرب منهم : الأستاذ حسن الموجي الذي ترجم البخاري الى الانجليزية ، وأحمد شفيق مؤلف كتاب الرق في الاسلام بالفرنسية ، ومن المسلمين سيد أمير علي ، ومولاي محمد علي ، وعبد العليم الصدّيقي .

● الدكتور أحمد شلبي : من خريجي دار العلوم ، اشتغل بالتدريس فترة في اندونيسيا والسودان .

من مؤلفاته : التاريخ الاسلامي والحضارة الإسلامية (موسوعة) في ستة اجزاء .
موسوعة مقارنة الاديان : الاسلام والمسيحية واليهودية ، وأديان الهند (أربعة أجزاء) .
التربية الإسلامية .
تاريخ الفكر الاسلامي (٥)، السياسة والاقتصاد في الفكر الاسلامي، المجتمع الإسلامي .

(٩)

بدوي طبانه
دراسات النقد الأدبي

من أهم ما تمتاز به نهضتنا الفكرية المعاصرة ، ظهور كتب « أصول » ، لها طابع الشمول والاتساع والدراسة المستوعبة ، وكان طابع المؤلفات في فترة الثلاثينات والأربعينات مقالات مجمعة ، ربما تحمل طابع النقد والعرض ، ولكن ينقصها الشمول والاستيعاب .

أما الدراسات الجديدة ، التي تمثل طابع مرحلتنا الفكرية في الستينات ، فهي العمل الكبير الواعي . ومن أبرز الأمثلة على هذا اللون من الدراسة ، كتاب الدكتور بدوي طبانة الذي صدر بإسم : « التيارات المعاصرة في النقد الأدبي » .

ففي أكثر من (٤٤٠) صفحة من القطع الكبير ، استطاع هذا الكاتب النابه ، أن يلم إلماماً شاملا وافياً بتطور النقد في الأدب العربي المعاصر ، معنياً بمصر على وجه الخصوص ، مستعرضاً في دراسة علمية هادئة مدعمة بالأدلة والأسانيد والوثائق هذه الحركة الضخمة ، في محاولة للإجابة عن سؤال ما زال يشغل الباحثين من مؤرخي الأدب ودارسي تطور النقد ، وهو : « هل استطاع

النقد المعاصر أن يؤدي رسالته في التقدير الصحيح للأعمال الأدبية التي تعرض لها ، ووضعها في موضعها الصحيح ، بين آيات الفن الأدبي ؟ وهل استطاع أن يحقق غايته الكبرى في توجيه الأدب نحو أهدافه المثلى التي ينشدها ، وأن يكون معيناً حقاً لجمهرة الأدباء ، يرسم لهم خير السبل لتحقيق غايتهم في الفن ؟ .

وجملة قوله في الإجابة على هذا السؤال ، هو : أنه رغم أن نقادنا قالوا كلمة الحق ، فأشادوا بما يستحق الإشادة ، وزيفوا الضعف والتردي في كثير من ألوان الأدب ، ورسموا بنقدهم المنهاج الواضح لمن يريدون الإفادة والتوجيه ، إلا أنه يبدو أن الهوى لا يزال طاغياً على الكثرة الكثيرة منهم ، بل ربما زاد طغيانه في هذا الزمن الذي يدعو كل شيء فيه الى التشبث بأذيال الموضوعية ، وربما كانت ذاتية المعاصرين أشد ضراوة من ذاتية القدماء ، فكان ثناء وثناء ، ولكن ثناء على الأسماء لا على الأعمال ، وكان قدح وإنكار ، ولكنه ينصب على الأشخاص اكثر مما يصيب الآثار النقدية على كثرتها وتنوع مؤلفيها ، لا تصلح أن تكون أصلاً ثابتاً ، وهذا الضعف المستولي على البشر في تمجيد ما لا يستحق تمجيداً ، وما ليس صاحبه في حاجة الى التمجيد انما هو ضرب من الملق الرخيص ، وقد تراه في انتقاص ما لا يوجب الانتقاص ، وما قد يكون صاحبه في أمس الحاجة الى التشجيع ، وفتح الطريق أمام بواكيره ، التي تبشر بمستقبل زاهر وحياة فنية خصبة .

وقد عرض الدكتور بدوي طبانة لمعوقات النقد ، فأشار الى أن تلك الآثار النقدية على كثرتها وتنوع مؤلفيها ، لا تصلح أن تكون أصلاً ثابتاً يرجع اليه في نقد الأدب المعاصر او سواه ، لأنها آثار متباينة يتجه كل منها إتجاهاً خاصاً ، وينظر الى الأعمال الأدبية من زاوية خاصة . والسبب في ذلك أن الأدباء أنفسهم قد تباعدت اتجاهاتهم وتباينت مناهجهم واختلفت مبادؤهم ومثلهم ، وعنده أنه لم تقم عندنا مدارس ذات مناهج أو تعاليم أدبية متكاملة ، فلم يستطع هذا العصر أن ينتج معالم موحدة أو تقاليد متشابهة في أدب مجموعات من الادباء ،

ومن عوامل اضطراب النقد التحزب والتكتل حول بعض أعلام الأدب للإحتماء بهم ، والتعلق بأسبابهم للظفر ببعض الأغراض المادية والمنافع المعنوية ، حتى تعددت في حياتنا الأدبية الجماعات التي تقوى صفوفها وتقف في وجه جماعات أخرى ، تنافسها على السيادة ، وقـد تناصبها العداوة ؛ فهو في الحقيقة تجمع لاقتسام الأسلاب ، وتوزيع الغنائم ، خشية أن تظفر بها جماعة مناوئة ...

ويرى الدكتور طبانة أن أغلب النقاد غلبت عليهم الثقافة الأجنبية ، وأن هذا الفريق لا يستحسن من الأدب إلا ما أثر عن الأجانب الذين عرف أدبهم ، وأحس بما ركب فيه من نقص أن لا أدب إلا أدبهم ، فهو مثله الأعلى الذي يقيس عليه كل أدب ، ولذلك وقف على مـا عند الأجانب من أصول النقد ومناهج الأدب ، فلا يعرف غيرها ، وتراه يحاول ما استطاع أن يغض من تلك المقاييس العربية التي لا يعرف عنها قليلا ، ولا كثيراً ، محاولاً تحكيم مقاييس غريبة في الأدب الذي ألفـه أدباء عرب ، عاشوا على أرض العروبـة واستظلوا بسمائها .

وعنده أن هذا الفريق من النقاد ، الذين هام بكل ما هو أجنبي ، يحاول تحكيم الآراء النقدية العتيقـة ، التي خلفهـا أرسطو ، ويحاول أن يوازن بين الأدب العربي والأدب اليوناني ، موازنـة تنتهي الى الحكم بتفضيل الآخر على الأول ، وهذا يبين مدى تطرف هذا الفريق في اتجاههم نحو تقديس آراء أولئك النقاد ، على الرغم من تباينها عنده .

وعنده أن هذه الطبقة اليوم من النقاد هي أعلاها صوتاً ، وذلك بسبب عاملين : أولهما تكاتف أفراد هذه الطبقة وتكتلهم لصد التيار المدافع ، الذي تمثلهم الطبقة الأولى ، ومحاولة تنحية أصحابها عن الحياة الأدبية ، وعن المشاركة في أي لون من ألوان النشاط العام في درس الأدب ونقـده ، وذلك ليضمنوا لأنفسهم السيادة في هذا المجال ، وما قـد تجر من مغانم أدبية وغير أدبية ، وتتمثل المغانم الأدبية في الترويج لبضاعتهم ، وكسب الشهرة ، وذيوع الصيت

في البيئات الفنيـة وغيرها ، فهم أعضاء المحافل ، وأصحاب الأدوات ، وهم المحكون في المسابقات الأدبية ، وقد غرهم ذلك حتى أصبحوا يتكلمون في كل شيء يدخل في دائرة تخصصهم ، في فن الشعر وفن الكتابة وفن القصة .

كما يتكلمون ويكتبون في جرأة غريبـة في شؤون السياسة والاقتصاد والاجتماع . وغير ذلك مما لم يخلقوا له ولم يعدوا أنفسهم لدراسته وعلاجه ..

ولم يعـد أمر هذا الانحراف في النقـد غريباً ، فقد أشار اليه كل باحث منصف وقد عرضت له الشاعرة « نازك الملائكة » حين قالت : أن الناقد العربي اليوم يقف وقفـة الخشوع والتقديس ، أمام النقد الأوربي ونظرياته الوافدة ، وكأن ذلك النقد نموذج في الإبداع والعبقرية ، لا يمكن أن يصله الفكر العربي الا بالتقليد والاقتباس والنقل ، وفي غمرة هذه العقيدة الواهمة ، أغلق الناقد العربي الباب على منابع الفكر الخصوبة والموهبة في ذهنه ، ونسي هؤلاء أن النقد الأوربي ينحدر من تاريخ منعزل انعزالاً تاماً عن تاريخنا ، وكيف يتاح لنا أن نطبق أسس ذلك النقد الأجنبي على شعرنا الذي يتدفق من قلوب غير تلك القلوب وعصور غير تلك العصور ؟ ! .

وأشار الدكتور بدوي أن لآدابنا العربية شخصيتها المستقلة ، وأن النقد الذي يصلح لشعرنا يختلف بالضرورة عن النقد الأوربي .

وأن نقادنا ما يكادون يقرأون اليوت ورتشادرز وبرادلي وفاليري ، حتى يحاولون أن يطبقوا ما يقولون على الشعر العربي ، مهما كلفهم ذلك من تصنع وتعسف وجور .

وأشار الى أن الآداب الأوربية ثروة ضافية اذا واجهناها مختارين ، ولكنها تكون من سقط المتاع اذا نقلناها وانصعنا لها .

ومن أهم ما عرض له الدكتور بدوي طبانـــة من مقاتل النقد المعاصر : « طابع الذاتية » ، وعنده أن السر في إخفاق النقد الأدبي الحديث في تحقيق

غايته ، والوصول الى أهدافه ، هو صبغه بالذاتية ، واتخــاذ النقاد إياه أداة لإشباع شهواتهم ، في النيل من خصومهم من الأدباء ، الذين لم يستطيعوا أن يبلغوا مبلغهم من القوة ، أو القدرة على الابداع ، أو يحققوا ما حققوه من أسباب الشهرة وذيوع الصيت .

وكان ذلك سبباً من الأسباب التي حركت أطماع منافسيهم ، الى الظفر بمثل ما ظفروا به ، من العناية وبعد الصيت في الحياة العامة ، فلم يجدوا من الوسائل لتحقيق مآربهم سوى سهام النقــد نحو خصومهم ، ليسقطوهم من عليائهم ، ويحلوا منازلهم بدافع الحسد أو الطموح . كما اتخذ النقد سلاحاً للنيل من الخصوم والتشهير بهم والحط من أقدارهم ، اتخـذ وسيلة للتنويه والإشادة بالأنصار والأولياء ، ومن ثم تخلى النقد عن منهجه في التقويم والتمييز .

وأشار الدكتور بدوي الى ما كان من أثر للصحافة في النقد ، وهو دور مشهود « هوى بالنقـد وأساليبه الى الحضيض » ، فالصحافة هي التي أذكت أوار المعركة ، وأشعلت نار العداوة ، وأثارت الأحقاد بين الادباء ، وهبطت بأقلامهم وفنيتهم ذلك الهبوط الذي شهدته الحياة الأدبية ، مما قل أن نجد له نظيراً في حياة الأدب والنقد .

كما عرض «للسياسة الحزبية» ودورها في إشعال هذه الفنية وإذكاء نارها فقد كانت لا تتورع أن تتذرع للوصول الى غاياتها من الحط من شأن الخصوم وزعماء الاحزاب المناونة ، بأحط وسائل السباب ، ووجدت من بعض الأدباء وأقلامهم خير معين على تحقيق هذه الغاية .

وهكذا كشف الدكتور بدوي طبانة في صراحة ووضوح عـــن « أزمة » النقد المعاصر ، ثم واصل في إفاضة وعمق تصوير اتجاهات النقد المعاصر ، ونقــد الأغراض الأدبية ، وتحدث عن لغة الأدب ، وصورة الأدب ، ونقد المعـــاني الأدبية . وألم إلمامـــاً واسعاً شاملاً بكل ما صدر من آثار ومؤلفات في مجال النقد الأدبي على نحو لم يسبق اليه من ناحيتي الشمول والعرض الفني .

ولم يكن الدكتور بدوي جديداً على الميدان ، وهو الذي عني بدراسات النقد الأدبي منذ شبابه الباكر ، حين بدأ كتاباته في الأدب والنقد والشعر في صحف البلاغ والاهرام والدستور ومجلة أبولو والنهضة الفكرية منذ عام ١٩٣١.

غير أنه منذ عشر سنوات كتب مؤلفه الأول في هذا المجال (دراسات في نقد الأدب العربي) ، مقدمة لاتجاه ظل يقوى ويعمق حتى أوفى على غايته في كتابه الذي أصدره أخيراً .

وقد عني بالنقد الأدبي منذ مطالع الأدب العربي القديم ، حيث تناول أشهر النقاد ومناهجهم وآثارهم ، من الجاهليين الى اليوم ،وفي خلال ذلك تناول بالدرس شخصيتين من أبرز شخصيات النقد الأدبي هما: أبو هلال العسكري وقدامة بن جعفر .

وللدكتور بدوي جهود ضخمة في ميدان الأدب ، من أبرزها مؤلفاتـــه : البيان العربي ، والسرقات الأدبية ، ومعلقات العرب ، وعلم البيان ، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ومقدمة في التصوف الاسلامي .

وفي خلال إقامته في العراق خلال ست سنوات ، أتيح له أن يكتب دراسة أدبية عن معروف الرصافي (شاعر العراق) ، وبيئته السياسية والاجتماعية ، كما ألف كتابه : « أدب المرأة العراقية » ، حيث تناول بالدرس الأدب النسوي والتعريف بشواعر العراق ..

والدكتور طبانة باحث يتميز بالصدق والصراحة والوضوح ، وقد أجمـــع النقاد على أنه يستعرض شخصياته في أصالة ، ويقول ما لها وما عليها .

وقد أحس منذ مطالع شبابه بالايمان الصادق بالعروبة واللغة والعقيــدة ، ولا غرو ، فان دار العلوم « مدرسة فكرية » لها طابعها وسمتها ، وقــد عاش خريجوها مجاهدين في سبيل المثل العليا والقيم ، وكانوا وسطاً بين جمود المدارس القديمة وبين اندفاع المفكرين المتأثرين بالغرب ، وقد ولد عــام ١٩١٣ ببـــلدة الشهداء (منوفية) ، وأحس منذ مطالع دراساته بالرغبة في التعبير عن النفس،

فقال الشعر ، ونشر منه قصائد متعددة في أبولو والنهضة الفكرية ، ثم اتجه الى النثر ، فكتب في مطالع كتاباته : (الشعر القصصي ونصيب العرب فيـــه) وذلك حوالي ١٩٣٢ في البلاغ .

ثم تحقق له أن يعمل في ميدان التدريس عام ١٩٣٨ ، وأن يتولى التدريس في معهد المعلمين بالعراق بـــين عامي (١٩٤١ – ١٩٤٧) [١] ، وكانت له انطباعات عربية في خلال إقامته بالعراق ، عمقت مفاهيمه في العروبة والقومية والوحدة ، وأتيح له أن يكتب دراسة مخلصة صـــادقة عن « الرصافي » ، هدد بشأنها هناك من الحكومات البائدة ، فقد كان الرصافي خصمـــاً للقصر العراقي ، ومحارباً لحكومة نوري السعيد . وكان الدكتور طبانة مخلصاً فقـال فيه كلمة الحق التي عجز كثيرون عن قولها ، منصفاً لهذا الرجل ، وقد دارت بينه وبين بعض كتاب العراق مساجلات في هذا الصدد .

وليس كتاب (التيارات المعاصرة في النقد الأدبي) هو آخر إنتاج هـذا الباحث النابه ، بل له مؤلفات أخرى ما تزال تحت الطبع ، في مقدمتهـــا (معجم البلاغة العربية) ، ودراسة عن الصاحب بن عباد .

وليست دراساته هذه بالدراسات الخاصة أو المتصلة بعمله في دار العلوم ، بل هي من مستوى الدراسات العامة الشاملة ذات الأثر الكبير في مجـال الفكر ، ولا أعتقد أن باحثاً يكتب في النقد الأدبي ، يستطيـع أن يتجاهل أو يستغني عن كتابه الذي نحن بصدده (التيارات المعاصرة) .

وهو في جملته خطوة في الطريق الذي تجري فيه النهضة الفكرية المعاصرة ، من العمل للموسوعـات والأبحـــاث الكبرى ، التي تتسم بالشمول والدراسة المستوعبة الجادة .

---

(١) عاد الدكتور طبـانة الى العراق ١٩٦٣ وبدأ دراسات جديـــدة في الأدب العربي.

● الدكتور بدوي طبانة :من خريجي دار العلوم ، اشتغل بالتدريس فترة في العراق.

من مؤلفاته : أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية ، البيان العربي ، التيارات المعاصرة في النقد الادبي ، دراسات في نقد الادب العربي في الجاهلية ، السرقات الأدبية، علم البيان ، الفلك الدائر على المثل السائر (تحقيق)، قدامة بن جعفر والنقد الادبي ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الاثير (تحقيق)،معروف الرصافي ،أدب المرأة العراقية ، الخ .

✶

(١٠)

حمدي حافظ
الدراسات السياسية العالمية

أصبحت الكتابة في المشكلات الدولية اليوم فناً مستقلاً من فنون الكتابة المتخصصة ، لا يصلح لها إلا من عاش لها ، ووقف قلمه عليها ، ومضى يرصدها ويتابعها، فقد تعددت هذه المشكلات وتعقدت، واختلفت فيها وجهات النظر، ولم يعد في الإمكان أن يعالجها الكاتب السياسي أو المفكر من خلال دراسات أخرى . فضلاً عن أن الحاجة الماسة الى باحثين متفرغين لكل فن ، أوحت بأن يتجه من لهم شغف خاص لهذا الفن من القضايا العالمية الى مزيد من الاستيعاب والدراسة، وفي السنوات الأخيرة خرجت من القاهرة أبحاث مدروسة متخصصة في عديد من هذه المشكلات ، تكشف وجهة نظر الأمة العربية ، التي أصبح لها ثقل واضح فى المجال الدولي ، ورأي صريح في قضاياه ، قوامه العمل على تحرير الأجزاء الباقية من سيطرة الاستعمار، وتبني مختلف قضايا الحرية والوحدة، ومن ثم أصبح لها صوت مسموع في المجال الدولي ، زاده قوة تضاعف عدد الدول الإفريقية الجديدة ، التي تحررت وانضمت الى المؤسسة العالمية ، وسارت في ركب الدول المتحررة ، وقد بدا ذلك واضحاً في عديد من المؤتمرات ، التي

عقـــدت في باندونج وأكرا والقـــاهرة وأديس أبابا ، سواء على مستوى الأفروآسيوية ، أو في سبيل الوحدة الإفريقية .

وكانت قضية الجزائر خلال سبع سنوات كاملة ، من أبرز القضايا العالمية التي عاشت الأقلام تتابعها وتواجه مختلف تطوراتها ،وما تزال قضايا عُمان وأمارات الخليج العربي وخليج العقبة . وفي المجال العالمي ما تزال مشكلة توحيد ألمانيـــا ومشكلة برلين تشغل الأذهان ، وكذلك قضية الملونين في أمريكا ، وقضية نزع السلاح ، ودور الأمم المتحدة ومستقبلها ، وقضية حق تقرير المصـير ، والعدالة الدولية ، كل هذه القضايا عاشتها الأمة العربية بعمق ، لأنها متصلة بها من قريب أو بعيد ، وكان لها في هذه القضايا رأي ووجهة نظر .

* * *

ويعد الأستاذ « حمدي حافظ » من أبرز الكتاب في العالم العربي في السنوات الأخيرة في التخصص للقضايا العالمية ، وكشف وجهة النظر العربية كلهـا ، وقد ظهرت له عشرات الأبحاث في هذا الصدد ، يمكن أن يطلق عليها دائرة معارف في القضايا والمشكلات الدولية . ومع أن بعض هذه الأبحاث قد اتصلت بقضايا فصل فيها أو تحقق منها النصر ، إلا أن مجموعها ما تزال تمثل قطاعاً مستقـلاً من الدراسة العالمية المتخصصة ، التي كان من الضروري أن يتجرد لها كاتب عـــربي ويصرف كل جهده اليها .

ولم يكن « حمدي حافظ » قبل دراساته وأبحـاثه هذه بعيداً عن مجـــال الفكرة ، بل على العكس من ذلك كان قريبـاً إليها أشد القرب ، فهو بدراسته القانونية وعمله بمجال القضاء ، كان قد أعد نفسه لأن يعمل بعد في قضية كبرى، هي قضية الحرية في عالمنا ، والدفاع عنها على النحو الذي اختـــاره من بعد في أبحاثه المتعددة ، ومؤلفاته الكثيرة ، عن مشكلة توحيد المانيا، ومشكلة برلين، وعُمان والجزائر ، وخليج العقبة ، وايريان الغربية .

وأبحاثه الأخرى هي : عن العدالة الدولية ، وكتابه عن الأمم المتحدة في العالم المتطور ، ففي مختلف هذه الأبحاث نحس روح القانوني وطابع القاضي ، وعندما يعرض مثلاً لحق تقرير المصير يعرّفه بأنه حق كل أمة في أن تكون هي وحدها صاحبة السلطة العليا المختصة ، في تقرير شئونها دون أي تدخل أجنبي ، واستقلالها داخل حدودها ، وحريتها في تكييف حياتها وصلاتها واستثمار مواردها وخيراتها والمحافظة على القيم الأصلية في تاريخها وثقافتها .

ثم يمضي الى القول بأن حق تقرير المصير يهدف أساساً الى التحرر من التدخل الأجنبي ، وأقرب مثال على ذلك هو الشعب الايرلندي ، فإنه لم يكن يفتقر الى الحرية السياسية حين كان مرتبطاً بانجلترا ، كما أن مصالحه لم تكن مهملة ، وكل هذا لم يصرف الشعب الايرلندي عن المطالبة بحق تقرير مصيره .

ثم يتناول البحث ما يتطلبه ممارسة حق تقرير المصير من استقرار الشعب على رأي موحد صادر عن جنسيته والوسائل التي يعبر بها الشعب عن إرادته .

ويرى « حمدي حافظ » أن قضية نزع السلاح هي قضية البشرية كلها ، إذ يجب المحافظة على الجنس البشري من الفناء التام ، لا من دمار محدود أو خسائر مؤقتة .

فإذا عرض لمشكلة « الزنوج في أمريكا » ، كشف عن جذورها الأصلية وأرجعها الى ما بعد الحرب الأهلية الأمريكية ، فالشمال المنتصر في هذه الحرب فرض على الجنوب المنهزم بدون روية نظام احتلال عسكري ، وضغط اقتصادي ، وتركه نهباً للمغامرين الشماليين ... ، وهكذا يمضي أمام كل مشكلة يتعمق أصولها ، ويعرضها في أسلوب قانوني علمي دقيق من ناحية المضمون، سهل ميسر عن طريق الأداء والتعبير .

وحين يعرض لأنابيب البترول وناقلاتها في الشرق الأوسط – وهو أول كتاب من نوعه في اللغة العربية – يعتبر أن كل خط أنابيب في العالم العربي بمثابة

قناة خاصة ، وأنها أداة فعالة في إحياء التجارة العالمية والإبقاء على السلام بين الشرق والغرب ، ويرى أن من حق العرب وضع سياسة بترولية عربية موحدة يكون من أثرها أن يدبّروا بأنفسهم منابع ثروتهم وطرق الانتفاع بها .

وفي كتابه [الأمم المتحدة في العالم المتغير] يعرض الكاتب للمؤسسة الدولية وتكوينها وأهدافها ، وما يتوقع لهـــا من مستقبل في خدمة الانسانية وحل مشاكل الشعوب .

وهكذا يمضي « حمدي حافظ » في نفس الطريق الذي رسمـــه منذ مطلع حياته عندما تخرج من كلية حقوق القاهرة عام ١٩٣٥ .

وهو لم يتغير الا حين استبدل كرسي القضاء بكرسي الدفاع عن قضايا الأمة العربية في المجال العالمي ، فقد بدأ حياته منذ فجرها بالاتصال بالصحافة والكتابة بها ، ويذكر أن أول مقال له في السياسة اليومية ١٩٣١ كان تعليقاً على تعيين مستر ايدين كاول وزير انجليزي لشئون عصبة الأمم ، وهكذا يبين الارتباط بمجـال السياسة العالمية منذ ثلاثين عاماً ، هذا الاتجاه الذي تبلور من بعد وتوسع بعد أن مر بمراحل طويلة ، فقد ظل (حمدي حافظ) يواصل الكتـــابة في الصحف العربية ويتصل بهذا المنبر ، رغم مشاغله في عمله بالقضاء أو النيابة ، وكان أكثر ما يعنى به — تقديم المؤلفات التي يقرأها ، والتي كان شغوفاً بها ، فضـــلاً عن كتاباته عن الشخصيات العالمية وملاحظاته في رحلاته الى الغرب .

وفي خلال عمله كقاض ، أولى اهتمامه للقضايا الحائرة ، وكان قـد رحل الى أوربا وأمريكا زائراً ، متصـلاً بزملائه رجال القضاء ، « جالساً الى جوارهم على المنصة » دارساً باحثاً منقباً فيما يعرض عليهم من القضايا ، ومن خلال هذه القضايا الحائرة أصدر عام ١٩٤٥ كتابه عنها ، وقد أعيد طبعه ١٩٦٢ ونفـــذ بسرعة مذهلة .

يقول في مقدمته : « خرجت من ميدان القضاء بخبرة تقول : أن عديداً من

المشكلات والقضايا والمحاكمات تنتهي ، وهناك خلاف كبير بشأنها ، بين الأحكام التي تصدر فيها ، وبين ما يظنه فيها عامة الناس المتتبعين لها . »

ومن هذه القضايا الغامضه قدم أكثر من خمسة عشر قضية .

* * *

فلما أتيح له أن يعمل مراقباً لمصلحة الاستعلامات عام ١٩٥٤ ، فوكيلا لها ، كان مجاله التحقيق في العمل الكبير الذي تخصص فيه ووهبه كل إمكانياته قد قد فتح على مصراعيه ، ذلك هو مجال دراسة القضايا العالمية والدولية ، والتخصص في دراستها وعرضها ، ووضع الحلول ذات الطابع العربي المستمد من مفاهيمها الثورية ، وقد عالج هذه القضايا بروح القانوني المنصف غير المتحيز ، وحمل لواء العمل فيها على النحو الذي يحمله المحامي في الدفاع عن قضية حق .

وهكذا بلغت مؤلفات (حمدي حافظ) أكثر من عشرين مؤلفاً في الشئون الدولية والمشكلات العالمية المعاصرة ، بعضها بالاشتراك ، وإن كان طابعه القانوني واضحاً فيها جميعاً . وكان هذا جزءاً من عمل ضخم قامت به مصلحة الاستعلامات في سبيل خلق أكبر مكتبة سياسية دولية في الشرق الأوسط .

ومما ساعده على هذه الدراسات اختياره لالقاء محاضرات في جامعات هارفارد (أكبر جامعة فى العالم) وبوسطن ولوس أنجلوس ، عن شئون الشرق الأوسط والقضايا العالمية .

من أعماله كتابه الضخم عن ثورة ١٩٥٢ المصرية العربية الذي يدرس اليوم في الجامعات العربية .

وجملة القول أن « حمـدي حافظ » تخصص في الدراسات العـالمية للقضايا الدولية ، وبرز في هذا المجال بعديد من الابحاث ، ذات الطابع العلمي القـانوني التي تكشف عن وجهة النظر العربية الخالصة .

● حمدي حافظ : تخصص في الدراسات العالمية وأبحاث الامم المتحدة، من أقطـاب الإستعلامات في الجمهورية العربية المتحدة .
من مؤلفاته : الاشتراكية والتطبيق الاشتراكي ، الامم المتحـدة ، أنابيب البترول والشرق الأوسط ، باكستان المعاصرة ، التأميم ، الجزائر : كفـاح شعب ومستقبل أمة ، حقوق الانسان في الصراع الدولي ، قضـايا حائرة ، الملونون في الولايات المتحدة ، توحيد المانيـا ، ثورة ٢٣ يوليو ، وله مؤلفات أخرى بالاشتراك .

✶

(١١)

خالد محمد خالد
الدراسات الإسلامية

بين حين وآخر ، يطوف أحد كتابنا بالمذاهب والأفكار والثقافات من شرقية وغربية ، ثم لا يلبث أن يجد في التراث الاسلامي العربي ضالته ، وهويته ، وزاد روحه ، ومداد قلمه ، وضياء نفسه .

وربما كان الكاتب له إلمام بذلك الفكر منذ قديم ، ولكنه لا ينكشف له في روعته وجماله وإشراقه ، إلا بعد رحلة طويلة في الآداب والثقافات المختلفة ، كذلك صنع الدكتور « هيكل » من قبل ، وصنع الدكتور منصور فهمي وكثيرون ، طافوا بالثقافات والمذاهب والعقائد ، ووقفوا عندها واحدة بعد أخرى ، يلتمسون فيها سعادة لأمتهم وضياء لأوطانهم ، ثم خلفوها واحدة بعد أخرى ، وقد فقدوا الأمل فيها ، حتى إذا ما عادوا الى فكرنا الأصيل ، وتراثنا الشرقي العربي الاسلامي ، وجدوا فيه ذلك الضوء الساطع ، والمورد المنير .

ومنذ كتب الأستاذ خالد محمد خالد كتابه (معاً على الطريق : محمد

والمسيح) ، أحسست أنه قد وجد طريقه الذي يستطيع من خلاله أن يقول كلمته ، ويجد دعاء الانسانية الذي ينشده ، ثم امتدت سلسلة كتبه :

« إنه الانسان ، أفكار في القمة ، نحن البشر ، إنسانيات محمد ، الوصايا العشر ، بين يدي عمر ، في البدء كان الكلمة ، كما تحدث القرآن ، وجاء أبو بكر ، مع الضمير الانساني في مسيره ومصيره ، كما تحـدث الرسول » .

اثني عشر كتاباً قبل هذا الكتاب ، تطوف في مجـال الفكر الإسلامي والعربي ، وتستظهر جواهره وأضواءه ، وتعرضها في ثوب جديد ، حتى ليخيل للباحث المتطلع الى آفاق كاتبنا « خـالد » ، أنه وجد مجـاله الحقيقي الذي يرضي روحه ويلائم فطرته .

وهكذا الكاتب الموهوب ، يبدأ من حيث يبدأ ، ثم يطوف بمجالات الفكر ، حتى يصل الى مكانه الحقيقي ، الذي يحس أنه إنما خلق له ، ويجد المنطقة التي لا بد يدعمها بفكره وآثاره ، ولطالما كان خالد حفياً بالتجـديد والابتكار ، حتى حين يعرض للقديم .

ولطالما كانت دعوته ان ينصرف الكـتّاب عن « أدب الدروب المطروقة » الى أدب الابداع والابتكار ، القائم على الدراسة العميقة والأناة والخلق الفني .

كذلك كان يحكي لي قصة تطور فكره وهو على الطريق الجديد .

هكذا كنت أراه في أوائل عام ١٩٥٧ وفي مجلة « أضواء » . حاولت أن أصور نفسيته في هذه الفترة بالذات ، فقلت : « لا أدري مصدر هذا الصمت الذي يخيم على ذلك القلم الثائر العميق ، الذي قام بدور ضخم في تحطيم الفساد قبيل فجر الثورة في مؤلفاته القوية الحية ، واذا كان هناك كتّـاب تظلّ إمكانيـاتهم الروحية والفكرية مذخورة ، حتى تبرز مرة واحدة ؛ في عمل ضخم كبير ، يهز ويترك دوياً ، فإن « خـالد محمد خالد » واحـد من هؤلاء . كذلك كان كتابه « من هنا نبـدأ » ، عندما أثار عاصفة ضخمـة في محيط السياسة والفكر والدين والحكم .

ولقد كنا نتحدث في هذا المعنى بالأمس ، فقال لي : « أن الكاتب في نظري هو ذلك الذي له انعكاس فكري على المجتمع ، الكاتب الذي له ظـل ، كيفما كان هذا الظل » .

وقلت فيه هذه الكلمة عام ١٩٥٧ : « إنني أراه اليوم يقرأ كثـــيراً ولا يكتب ، لقد أعلنت صحيفة يومية كبرى قبل صدورها عن اسمه كأحد كتابها ولكنه لم يفعل ، لقد رأيت بنفسي ناشراً كبيراً يفاوضه في مؤلف جديد ، ولكنه ليس عنده ما يقدمه الآن .

ولست أدري الى أي مدى تصدق القصة التي رويت عنه ، من أنه منـذ أكثر من عام يمر بمرحلة جديدة في تفكيره ونفسيته ، حقـــاً هل هناك هزة تضطرم في أعماقه ، تحاول أن تنقله مرحلة جديدة في تفكيره .. لقـــد كان خالد في مؤلفاته داعياً الى أفكار جـــديدة مثيرة ؛ في محيط الدين والمرأة والمجتمع ، فهل هو اليوم يجتر هذه الافكار مرة أخرى ، أو يعيد النظر فيها ، لقد ذهب خالد الى أقصى اليمين ثم ذهب الى أقصى اليسار ، ترى هل هو اليوم بسبيل أن يأخذ طابع المدرسة الوسطى ؟ .

انه يقرأ فلسفات الأديان هذه الأيام : زرادشت و كنفوشيوس وغيرهما ، فما هو الاتجاه ؟ انه هو نفسه لا يعرف ، إني اراه حالما : أراه يريد أن يضع يده على الشيء الجديد : إنه منقبض عن القلم ، ترى ما هو موقفه من مؤلفاتـه وأوراقه الأولى ، ترى هل سيكتب شيئاً جـديداً ؟ ومتى ؟ متى تنتهي هذه التهويمة ليعود الى دنيانا ، ترى هل هو في طريقـه الى « بردة الصوفي » أو في طريقه الى « إهاب الفيلسوف » .

إني اراه أقرب الى الأول ..

لقد كنت سمعت قصة أحلام رآها ، أرادت أن تدفعه الى التصوف العميق وسمعت أنه كان ينبغي ان يقصد المدينة المنورة ليقضي بهـــا شهوراً ، مجاوراً لساكنها صلوات الله عليه ، فإلى أي مدى من الحقيقة يصل هذا كله ؟ .

إن الأستاذ خالد الذي تميز بمثاليته وخلقه ، ووضوح فكرته ونبـــل شخصيته ، وروحه العميقة ووفائه.. لا بد أن يقول كلمة صريحة واضحة حول هذه العزلة الروحية ، وهذا البرج العاجي الذي يعتكف فيه .

إنني أول مشتاق الى أن أسمع ما يريح نفسي ..

ترى هل أستطيع بهذا الأسلوب أن أغريه بالكتابة ؟ .

لو نجحت لكان ذلك كسباً ضخماً . »

هذا ما كتبته عام **١٩٥٧** في مجلة « أضواء » تحت عنوان « فترة مخاض »

وكنت أظن يومها أنني قد فهمت الحقيقة ، ومنذ ذلك اليوم بدأ ظهور هذه المؤلفات ذات الطابع الإنساني الواسع .

وقلت لنفسي : لقد اتجه خالد الى « الانسان » ، وثروته الثقافية والروحية كمرحلة جديدة بعد مؤلفاته الخمسة، التي سبقت هذه المرحلة من فكره وحياته. ولكن خالد اليوم لا يريد أن يقال أن حياته الفكرية مرت بمرحلتين ، أو أنــه تطور من صورة الى صورة ، ومن أسلوب الى أسلوب ، وإن كان هدفه الأساسي مــا زال قائماً ، وهو الانسان وتحرير فكره ، كل ما هنالك أنه كان يفكر في حدود القضايا والمشاكل والأحداث المتصلة بواقع السياسة والمجتمع والاقتصاد ، ولكنه الآن يرقى في مجال البحث الى قضــايا الانسان الكـبرى : الحرية والإنسانية والروحية والضمير .

ومعنى هذا أنه انتقل من « القضــايا » الى « القيم » ، وليس في مجــال البحث عن « القيم » أخصب مجالاً من تراثنــا الفكري الاسلامي الانساني الواسع .

ويكشف خالد عن منهجه في مقدمة كتابه « إنه الانسان» ، فيقول : «في صحبة تفاؤل عظيم بمستقبل الانسان كتبت هذا الكتاب ، وفي صحبة هــذا التفاؤل أعيش — دوماً — وأحيا .

وصاحبكم من الذين يربطهم بالانسان ولاء غير مجذوذ ، ولا محدود ، وكل ما في الناس من ضعف ، لا يصرفني عن رؤية الانسان الكامن في داخل ذواتهم وصفوفهم ، والكادح الى الكمال كدحاً فملاقيه . صحيح أنني – أحيـاناً – أبتئس بما يفعلون ، وبما أفعل ، ويتراءى لي مشهد الفيلسوف الإغريقـي « ديوجينز » حين صاح من فوق هضبة عالية « أيها الناس » .. فلما سارعوا اليه هز رأسه أسفاً ، وقال : لم أنادكم .. أنا أنادي الناس .

لكن الانسان لا يلبث أن يظهر ، متربعاً على عرشه القويم فوق كل هذه الفوضى ، حاملاً مشعله المضيء ، وسط كل هذا الظلام ، فتذهب من فورهـا تلك الحسرات الكاذبه ، وتتطـاير غواشي الكآبة واليأس أمام عظمتـه السامقـة » .

ثم يقول: أن عمله هذا جهد متواضع لاكتشاف الانسان، اكتشاف حقيقته ، واكتشاف مشيئته ، واكتشاف الفرص الواجب توفرها له كي يبلغ كماله الميسور ويدرك مجده القادم . ثم يقول :

« ينبغي أن نثق بالانسان ونطمئن الى مصيره ، وينبغي أن يكون جهادنا دائماً مرتبطاً بجهاده ومتمماً له .. وأن نتحرى مشيئته ونعمل وفقها .. علينا أن ننقل الانسان الى حياتنا ، ونمـلأها برؤاه وبإصراره ، وعلينا أن نعمـل من أجل مستقبله ومصيره . لنثق تماماً ، أن هذه الارض لن تشهد يومـاً ما جنازة الانسان ، فالانسان الذي قضى ملايين السنين في أحضان التطور لكي يبلغ الرشد الذي يبدأ منه رحلته الجادة الصاعدة ، لن يقضي نحبه حين تدق ساعة رشده وتبدأ بشائر عصوره ، ولقد دقت الساعة وأهلت البشائر . ولو لم يبق من البشر سوى ألف أو مائة فسيعمل الانسان داخل هذه الألف ، أو هذه المائة .

واذا لم يبق من نوعه الا عشرة ، فسيعمل مع هذه العشرة ، واذا لم يبق الا واحداً ، فسيبدأ بناء عالمه الجديد بهذا الواحـد ، واذا فني هذا الواحـد ،

ايضاً ، فسيكمن الانسان داخل (أميبا) يهرب بها من الفنـاء ، ويبعث من داخلها نفسه مرة أخرى ، وينشر وجوده وحياته ورسالته من جديد » .

هكذا يؤمن « خالد محمد خالد » بالانسان ، وهو بهـذا يضع نفسه في صف كتاب الانسانية الذين يبحثون في وعي وذكاء قضاياه ، وهي جولة موفقة متصلة عندما تصل الى غايتها ستكون من أمجد أعمال الفكر العربي الاسلامي المعاصر.

وهذا كتابه [رجال حول الرسول] يصدر في أربعة أجزاء ، ويتناول « تجربة الحياة » لمجموعة من أعلام الصحابة والرجال الذين جاهدوا مـــع الرسول .. فلقد تعودنا أن نكتب عن أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، ونقصر الكتابة عليهم ونكتفي بأن نرى من خلال حياتهم عظمة العصر الذي ينتمون اليه ، بل الذي ينتمي اليهم ، ولكن أخانا خالد يحاول أن نتعرف في غبطة وشوق الى ثلة مباركة من الرجال العظام الذين عاشوا مع النبي ونهضوا حوله ، ومثلوا فوق أرض الله أعظم ادوار التفوق والعظمة .

وعنده : «أن بطولة أولئك الرجال في حمل أنفسهم على الزهـــد والورع والتقوى والبذل ، وفي أخذهـا الى كل رفيع وجليل من قيم الحق وفضائله ، لشرف كبير للجنس البشري بأسره ، وحتى بطولاتهم في الجهـاد والقتال من أجل الدين ، لا تعدم مكانها العالي في عصرنا هذا الذي يستنكف الحرب ويمجد السلام ، ذلك أنهم مارسوا القتال المشروع في عصر كانت القوة فيه هي الحماية الوحيدة والفريدة للحق ، كما مارسوا الجهاد حين مارسوه ، دفاعاً لا عدواناً ، ومحررين لا متجبرين ..» .

وهكذا يصل خالد محمد خالد – في كتابه (رجال حول الرسول) ، وفي هذا العقد من الدراسات الانسانية الممتازة الى غايته ، الى حق الكلمة عليه ، حيث تجد الانسانية حلولاً لقضاياها العليا في قيم الفكر الاسلامي وميراثه .

- خالد محمد خالد : من خريجي الازهر ومن أقطاب الدراسات الديمقراطية والاسلامية أحدثت مؤلفاته هزة كبيرة في الماضي ، كتب في الاهرام والجمهورية .

من مؤلفاته : الوصايا العشر ، رجال حول الرسول (٥ اجزاء)، أزمة الحرية في عالمنا ، بين يدي عمر ، أخطار في القمة ، انسانيات محمد ، وجاء ابو بكر ، في رحاب علي، الدين للشعب، هذا أو والطوفان، من هنا نبدأ، مواطنون لا رعايا، لله وللحرية (٣ اجزاء)، لكي لا تحرثوا في البحر، كما تحدث القرآن ، في البدء كان الكلمة ، معاً على الطريق : محمد والمسيح ، انه الانسان ، الديمقراطية ابداً ، الخ .

★



(١٢)

خير الدين الزركلي
الأعلام

يقولون أن الأعمال الفكرية الضخمة قد قام بها دائماً « أفراد » من الرجال وأفذاذ من العلماء . وفي تاريخنا الأدبي المعاصر تبرز هذه الظاهرة بوضوح في أكثر من عمل : دائرة معارف فريد وجدي ، معجم المؤلفين « كحالة » ، معجم الأطباء « الدكتور أحمد عيسى » ، معجم النبات « الأمير مصطفى الشهابي » .. و « الأعلام » لخير الدين الزركلي واحد من أهم هذه الأعمال ، فقد شغل به صاحبه أكثر من خمسة وأربعين عاماً ، منذ بدأ إعداده عام ١٩١٢ ، حتى أصدره في صورته النهائية عام ١٩٥٩ ، ومعنى هذا أن أمضى زهرة عمره في مصاحبة هذا العمل إعداداً وإبرازاً في الصورة الأولى ١٩٢٧ ، ثم في الصورة النهائية بعد بضعة وثلاثين عاماً .

ولا يعرف فضل هذا العمل في الحقيقة الا من يحتاج اليه ، ولقد كان لاشتغالي بدراسات الأدب العربي المعاصر ، وما يتصل بها من دراسة تاريخ أعلامه ، ما لفت نظري الى ذلك الجهد الضخم ، الذي استطاع أن يحققه « الزركلي » ، في إعداد موسوعته التي بلغت أكثر من أربعة آلاف صفحة ، تضم أكثر من عشرة

آلاف شخصية ، من العرب والمسلمين في القديم والحديث ، وعبر أكثر من أربعة عشر قرناً متصلة ، فإذا أضفنا الى ذلك الجهد الذي بذله الباحث الكبير في إعداد خطوط وصور أكثر من ١٤٠٠ شخصية معاصرة ، وما حققه من إضافة سبع مجلدات كاملة الى الثلاثة مجلدات الأولى ، وما زال يواصله بإضافة المستدرك ، وما سيصدره من ملاحق وما أضافه من استدراك على المستدرك ، كل هذا يعطي صورة قريبة لأهمية هذا العمل الكبير الذي قام به الزركلي ، فاذا علمنا أن مشروعه في أول الأمر كان عبارة عن إعداد مؤلف مدرس للأعلام ، عام ١٩١٢ ، ثم اتسع من بعد مرة ومرة ، حتى بلغ هذا القدر ، إستطعنا أن نقدر ما لموسوعة الأعلام اليوم من أهمية لدى الباحثين ، في مختلف فنون البحث الأدبي العلمي والتاريخي والاجتماعي .

والحق ، ان كفاية الباحث وظروفه ؛ تكون بعيدة الأثر في إعداد بحثه ، وبلوغه الذروة ، فلا بد أن يكون الزركلي عربياً من الشام يتصل في حياته وظروفه بالعراق وسوريا وفلسطين والأردن والحجاز ، وأن يرد مصر فيقيم بها وينشىء فيها المطبعة العربية ، ثم لا يقف الأمر به عند هذا الحد ، بل يذهب الى المغرب ، فيقيم به ويتصل بالتراث العربي في ليبيا وتونس والجزائر ومراكش، ثم يذهب الى الأسكوريال في الاندلس ويزور خزانات الكتب في لندن وباريس وبرلين ، ويتصل بالمتخصصين بأمور المكتبات ، والمخطوطات ، في مختلف دور الكتب في الهند والأسكوريال والحجاز والشام وأمريكا . وان تقوم صداقات بينه وبين الأعلام من دهاقنة المؤلفات والمخطوطات ، امثال : كرد علي وأحمد تيمور وأحمد زكي الملقب بشيخ العربية وأحمد عبيد صاحب المكتبة العربية بدمشق والعلامة أحمد خيري .

ولو أن عالماً أو باحثاً لم تتح له مثل هذه الظروف السخية ، والمعارف والمراكز المرموقة لما قدر أن يحقق لعمله هذا النجاح وهذا الاكتمال والشمول ، ولو أن الزركلي ظل مقيماً في المشرق ، لنقص جانب كبير من عمله ، وهو

إلمامه بأعلام المغرب في القديم والجديد ، وقد كان هذا الجانب ضعيفاً ومجهولاً لنا في المشرق قبل عام ١٩٥٤ ؛ وقد استطاع الزركلي أن يوفي لأعلام المغرب في القديم والحديث ، وأن يقدم لنا صورة واضحة جلية تعدل صورة المشرق ، وتكمل صورة الأدب العربي في اتجاهاته وأعلامه .

وقد كان شأن الزركلي في هذا ، شأن العلماء المسلمين العرب القدامى ، الذين سبقوه على طريق العمل الموسوعي ، ابن خلكان ، وابن تغري بردى ، وصلاح الدين الصفدي ، وابن حجر العسقلاني ، تواضعاً وخفض جناح واعترافاً بالفضل لأهله فأشار الى الأعلام الذين عضدوه وأعانوه ، وفي مقدمتهم « كرد علي » ، الذي أرشده الى صحاح المصادر وفتح له خزانة كتبه ، وأحمد عبيـد صاحب المكتبة العربية في دمشق الذي أمضى عشرين عاماً يراجع موسوعته الأعـلام الأولى ، بما يقع له من مخطوط ومطبوع وغريب وطريف فضـلا عن نوادر المخطوطـات .

وقد ذكر الزركلي منهجه في العمل في اختيار أعلامه ، وما اختلف فيـه عن غيره من أصحاب الموسوعات ، يقول : « جعلت ميزان الاختيار أن يكون لصاحب الترجمة علم تشهد به تصانيفه ، أو منصب رفيع كان له فيه أثر بارز ، أو فن يميز به ، أو أثر من العمران يذكر له ، أو شعر أو مكانة يتردد بها اسمه ، أو رواية كثيرة ، وضابط ذلك كله أن يكون ممن يتردد ذكرهم ويسأل عنهم وذلك دون أن يغره « من أغدق عليه نعوت التمجيد وصفات الثناء » وقد لقي عناء التوفيق بين التاريخين الهجري والميلادي (مخافة ان أتهم بارتجال التاريخ في عصر كثر فيه مرتجلوه) . وأشد ما لقيه من المتاعب في عمله هو ما عاناه من تراجم المعاصرين ، يقول : « عانيت من تراجم المعاصرين نصباً ، بدت لي فيه ظاهره خلقية غير مرضية في كثير ممن كتبت اليهم أو كلمتهم لاستكمال نقص في ترجمة أب أو أخ » .

وأبلغ ما عاناه خطوط المترجم لهم وصوره : « اندفعت أنقب عن خطوط

المصنفين في أوائل كتبهم وأواخرها ، وبين سطور ما نسخ على عهدهم منها ، ونشط البررة من إخواني فأمدوني بالتحف... وتهيأت لي رحلات اقتنصت فيها خطوطاً لم أكن أحلم بها... وتفتحت أمامي أبواب المتاحف والمكتبات، ومختلف الخزائن السلطانية ، والبيوت العريقة في القدم ، فإذا بي والأفق أمامي لا نهاية له ، كخائض البحر أمام الجزر داهمه المد ، والخطوط الى جانب قيمتها الأثرية فلذ من أرواح أصحابها ، أبدية الحياة ، يكمن فيها من معاني النفوس ما لا تغرب عنه صور الأجسام » .

وقد حرص الزركلي على أن يكتب بالعربية الأسماء الأجنبية كما نطق بهـــا أهلها في الاغلب .

ومن ابرز مشاق عمله اختلاف المؤرخين، وتضارب رواياتهم وتعدد نزعاتهم، واختلاف النسخ من الكتاب الواحد ، وكثرة الاغلاط في المطبوع والمخطوط ، وتداخل أخبار القوم بعضها ببعض ، وفقدان العـدد الأوفر من مصنفـــات الأقدمين ، ومنع بعض الفرق كتبها أن يطلع عليها غير أبنائها . ذلك وما هو باليسير كاف لأن يجعل تأليف كتاب عن الأعلام عملاً شاقاً تكتنفه المصاعب وتعترضه المزالق .

* * *

والحق أن عملا يشغل صاحبه زهرة حيـاته فيبدأه سنة ١٩١٢ ، وهو في حدود الثلاثين من عمره ، ويظل يواصله من بعد ذلك الى اليوم (١٩٦٦)، أي ما يربو على أكثر من أربعين عاماً ، دون أن يشغله عمل فكري آخر، ويظل يأخذ بمجامع نفسه وعقله، ويكون قاسماً مشتركاً على حياته ويومه وأسفاره ورسائله ومعارفه ، ومشغولاً به ، رغبة في تحسينه واستكماله ، والإضافة إليه والارتفاع به الى مستوى العمل العلمي القريب الى الكمال ، ومن عجب أن هذا العمل قـد حجب حياة الزركلي الفكرية ، قبل هذه الموسوعة ، وكاد أن ينسي الباحثين

ما مرت به من عمل الشاعر والأديب ، ما يكفي وحده لأن يدخل صاحبه في عداد شعراء وأدباء الأمة العربية المعاصرين ، فقد عدّ الزركلي منذ مطالع شبابه من بين باقة شعراء الوطنية والعربية في الشام ، في العشرينات : خليل مردم ، وفؤاد الخطيب ، وشفيق جبري ، وخير الدين الزركلي ، فقد هز مع رفاقــه النفس العربيــة بالدعوة الى الحرية والوحدة ، في شعر بالغ الروعة ، مما حمل الفرنسيين على الحكم عليه بالاعدام مرتين . ولم يقف قلمه عند الشعر وحــده ، فقد برز في مجال الصحــافة بعد الحرب العالمية الأولى وأنشأ جريدة « المفيد » سنة في ١٩٢٠ ، فلما اضطر الى الهجرة أنشأ في (حيفا) جريدة الحياة ، وفي هجرته الى مصر أنشأ المطبعة العربية ، وله في هذه الفترة مؤلفات ترسم مراحل حياته وأهمها :

١) ما رأيت وما سمعت : وصف فيه حالة سوريا بعد معركة ميسلون بين العرب والفرنسيين .

٢) عامان في عامان : وصف فيه أيامه في إمارة شرق الأردن .

ولا شك أن الزركلي لم يجد في الشعر مجال طموحه وإن ظل مرتبطاً به يجد فيه وسيلة الافضاء حــين تهزه النفس بالشوق الى وطنــه (دمشق) ، وهو في رحلة الحياة والعمل الدبلوماسي ، بعيداً عن الفيحاء التي حرم منها . فقد عاش في شوق الى مرابع صباه وبلده وهو يقول :

أنا في هــواك كما يشاء هواك لي ... كَـلِفٌ بحبك يا دمشق ودود
لم أنأ عنك قـــلى ولا لنقيصــة ... ما أنت إلا ربعـــي المحمود
ولقد هجرتك حين حاق بي الأذى ... ما للأباة على الهوان تعــود
أقصيت عنك ولو ملكت أعنتي ... لم ينبسط بيني وبينك بيــد

وقد وصف الناقد أحمد الجندي شعره بأنه يتسم بالسهولة والنغمة الحلوة ، دون تكلف أو تقعر ، وانه لا يحتاج الى تعمق في الفكرة ، أو بحث عــن المعاني ، ما دامت هذه المعاني تنثال عليه انثيالاً ،يدفع بها الاحساس الصادق ،

وقد أصدر ديوانه الذي أطلق عليه (الشعرى) سنة ١٩٢٥ . ولقد وجد الزركلي في الشعر أقل اهتمامه حين أتيح له أن يبدأ عمله في « الأعلام » ويتوفر عليه ويوقف له كل جهده ، وبالرغم من طابعه الشعري ، فقد اتجه الى العمل الجديد ، عالماً مرتبطاً بالمنهج العلمي والاسلوب العقلي القائم على البحث والمراجعة والتحقيق والتمحيص ، فأصبح بحق خليفة ياقوت وابن خلكان ...

وما يزال لدى الزركلي مجموعة كبيرة من الأدب والتاريخ ، قديماً وحديثاً لم ينسقها ولم يسمها .

* * *

ولد « خير الدين الزركلي » في بيروت ١٨٩٣ ، وهو دمشقي الأب والأم ، تعلم في بيروت وعاد الى دمشق أوائل الحرب (١٩١٤) ، وأصدر بعد الحرب (لسان العرب) ، واشترك في جريدة المفيد اليومية ، عمل مفتشاً عاماً للمعارف في الاردن ١٩٢١ ، وأنشأ في مصر المطبعه العربية سنة ١٩٢٣ ، وعام ١٩٣٠ أصدر جريدة الحياة ، عمل في الأعمال الدبلوماسية للمملكة السعودية في مصر والمغرب حتى عام ١٩٥٩ ، وفي عام ١٩٣٠ ضم الى المجمع العلمي العربي في دمشق ، والى مجمع اللغة العربية في القاهرة ١٩٤٦ . وأتيح له أن يقوم برحلات الى خارج العالم العربي : انجلترا ١٩٤٦ ومنها الى فرنسا ، والولايات المتحدة ١٩٤٧ ، أمضى سبعة أشهر بين كاليفورنيا وواشنطن ونيويورك ، وزار أثينا العاصمة اليونانية واستانبول وتونس وايطاليا والقاهرة .

● خير الدين الزركلي : دمشقي . طاف العالم العربي والاسلامي ، أبرز مؤلفاته موسوعة الأعلام (١٠ مجلدات) .

وله : ديوان خير الدين الزركلي ١٩٣٥ .
عامان في عامان ١٩٢٦ .
ما رأيت وما سمعت ١٩٢٣ .

(١٣)

خيري حماد
الترجمة من الآداب الأجنبية

هذه النهضة التي يعيشها العالم العربي اليوم ، لا تكتفي بأن تجدد فكرها بالكتابة والتأليف ، ولا تقف عند حد بعث وإحياء الفكر العربي في أمهات كتبه وذخائره ، ولكنها تأخذ خطاً واضحاً في مجال الترجمة . هذا الخط الواضح في حاجة الى مفاهيم وقيم ، يحملها المترجمون أولاً ، وإلا فإن أزمة الترجمة منذ الثلاثينات ستظل مستمرة تعمل عملها ، وتفعل فعلها في تحويل شخصيتنا العربية أو تمييعها أو تدمير مقوماتها ، ذلك أننا في حاجة كبرى الى الترجمة ، فنحن نؤمن بالنهضة القائمة على فتح النوافذ ونقل الثقافات المختلفة ، والفنون الفكرية المتجددة . ونحن حين نؤمن بشخصيتنا العربية القائمة على أساس من مقوماتنا وقيمنا وتراثنا وفكرنا ذي الطابع الواضح ، لا نحب أن نجمد ، ولا أن نقف ، وإنما نؤمن بالتطور والمتابعة للفكر الانساني مشاركين فيه ، متفاعلين معه ، ومن هنا كانت أهمية الترجمة في هذه المرحلة من حياتنا الفكرية الجديدة ، ومن هنا كان هذا التطلع الى المترجمين المؤمنين بأمتهم وقيمها أولاً ، ثم المؤمنين بأمانة الترجمة ومقومات الفن نفسه ، ومدى القدرة على الفهم والتعمق والتجاوب مع الكاتب المترجم له واللغة نفسها ومضمون البحث موضع الترجمة .

* * *

لذلك كان لا بد أن نتلفت بشدة الى مترجم جديد ، نزل ميـــدان الترجمة منذ خمسة أعوام فقط ، ولكنه برز فيه على نحو مذهل ، أثار حوله الشـائعات والتهم – لكثرة إنتاجه – بأنه برأس لجنة من المترجمين يقدمون له الجـــذاذت والسلخ ، ثم يضع عليها اسمه ، وقد كذبت هذا القول « التجربة » حيث نقـرأ له أي عمل من أعماله ، فنجد أسلوبه يسود الكتاب كله ، وروحه واضحة في كل سطر ، وربما جاء هذا الاتهام نتيجة لكثرة الانتاج، فقد استطاع « خيري حماد» أن يصدر سبعين كتاباً حتى نهاية عام ١٩٦٣ وهو عمل كبير يربو على أكـثر من ٣٠ الف صفحة ، غير أن من يقابل خيري حماد ويرى متـــانة بنيانه الجسدي وشبابه وعزيمته الواضحة في ملامحه ، وإيمانه بالأمة العربية وقيمها ، لا يدهش.. فهو الرجل المفطوم من الشهوات ، الذي يعيش أيامه ولياليه لفنه الذي أحبه ، والذي يحيل ساعات ليله سهراً متصلاً في العمل بين قهوته وسيجارته ومدفئته..

ولقد جاء«خيري حماد» ليحتل مكاناً كان شاغراً حقاً بعد وفاة مترجمَيْن من أبرز أعلام الترجمة عندنا ، وهما : « محمد بدران وعـادل زعيتر » . وقد تركا في ميدان الترجمة من الانجليزية والفرنسية آثاراً ضخمة ، ومن قبل سبقهما «المازني»، وكان مجاله في ترجمة القصة والبرقيات السياسية ، ومن قبله محمد السباعي ، ومحمد مسعود ، وحافظ عوض ، وفتحي زغلول وهؤلاء جميعاً من أعلام الترجمـــه في الأدب العربي المعاصر . غير أن مترجمنا « خيري حماد » ربما اختلف عن هؤلاء، ولعل سر نضوجه وحيويته وقدرته البـارعة في الأداء والفهم وامتصاص روح المترجم له ، إنما يرجع في الحق الى ذخيرة ضخمة من التجربة وحصيلة كبيرة من القوة العملية ، فهو رجل أمضى أكثر من ربع قرن في مجال الصحافة ، قطع فيها مراحل ضخمة من القراءة والإستيعاب والترجمة والكتابة ، فمرن ذهنه ومرن أسلوبه ، واستطاع أن يضع النصوص الأجنبية في القوالب العربية المناسبة ، بما يحقق الاحتفـاظ بروح المؤلف ، وايصـــال المعنى في بساطة الرأي ويسر الى القارىء كما أعطته الصحافة تلك القدرة المتصلة واليقظة الدائمة .

وكان خيري حماد قد استهل حياته الفكرية بالعمل الصحفي في جريـــدة « الاستقلال » في بغداد عام ١٩٢٩ وهي صحيفة الوطنية الصادقة فعاش لها على طريقته ، مؤمناً صادق الايمان ، متحمساً ، مندفعاً يكتب مقالاً فيسقط وزارة ، ويتحدى الظروف فيكتب الجريدة كلها ، بعد أن تخلى عنه زملاؤه فيهـا ، ثم يلهب حماس الجماهير ، حتى يرتفع البيع من ٦٠٠ نسخة الى ثلاثة عشر ألفـاً .. وعاش خيري ثورة العراق سنة ١٩٤١ وشارك فيها بقلمه ، وسجن خيري حماد من أجـــل حرية رأيه مرة ومرة ، وعاد الى بلده فلسطـــين ، ليحرر جريدة « الدفاع » ويصدر جريدتيه « المستقبل » ثم « الوحدة » . وتقضي الأيام ، وهو يقرأ ويتابع ويعيش الأحداث السياسية للوطن العربي ، ويتحول خيري حمـاد من فلسطين الى دمشق ، ليبدأ مرحلة جديدة من حياته الفكرية ، هي : « مرحلة الترجمة » التي بدأهـا في حذر وقلق وتطلع ، ووجد متاعب المقتحم لميدان جديد ، وكرس جهده للعمل الذي أوغل فيه وصبر وظفر ، فقد كان ايمـــانه بنفسه وعمله ، يدفعه الى أن يقدم شيئاً ضخماً وجاءت الفرصة تلو الفرصة متتابعة ليـــبرز ويحقق ذاته ، وكانت مطالع شهرته في ترجمة « مذكرات ايدن » التي رفض الناشر أن يضع اسمه على غلافها ، ثم « مذكرات تشرشل » ثم كان كتابه الذي طبع عشرات المرات « الطريق الى السويس » وتوالت مترجمـاته في ثلاثة ميادين : قضايا الوطن العربي ، وكتب السياسة العامة ، ومترجمـــات الأدب ، وفي مقدمتها قصة همنغواي الخالدة ، التي أحرز بها جائزة نوبل . « لمن تقرع الاجراس ».

ولقد أقدم خيري حماد على ترجمة هذه القصة هيوباً مـــتردداً ، فقد كانت تجربة جديدة له ، لما فيها من الإقدام على « تعريب » وهو يفضل هـذه العبارة عن عبارة « ترجمة » وهمنغواي شيخ كتاب القصة في العصر الحديث ، وقصته حازت الجائزة .

ومع ذلك فقد أقدم ونجح ، شأنه دائماً ، كان في تقديره دائمـاً أن التعريب

الصحيح يجب أن يضـــاهي القصة الأصلية ، في قوة أسلوبها ومتانة تسلسل الحوادث فيها ، وروعة حوارها ، وجزالة لفظها ، وبداعـــة تصويرها ، ودقة الوصف الظاهر في كل أجزائها ، وفي هذا ما فيه من عبء ضخم ومهمة شاقة ، وإلا فقدت القصة المعربة ما في أصلها من إبداع حلـّق بهـا الى الاوج ، ومكن واضعها من الفوز بجائزة نوبل ...

يقول خيري حماد : « وقبلت التحدي ، وأقبلت على القصة الطويلة الرائعة ، أنقلها الى العربية ، فأشعر عند نقلها بما يحس به كل من يقـدم على عمل كبير من لذة ومتعة ، ورحت أغوص في هذا البحر الواسع من الفن القصصي الرائـــع ، أتوخى الدقة في التعبير عند نقله الى العربية ، وأستهدف إعطاء الصورة الكاملة التي رسمها المؤلف الفنان بريشته الفذة .. »

وتصور قصة « لمـن تدق الأجراس » الحرب الأهلية الاسبـانية ، وترسم خطوط النضال بين الفاشية والشيوعية ، وبين الدكتاتورية والجمهورية .

ولخـيري حماد مذهب واضح في الترجمة ، فهو يؤمن « أننا في مرحلتنـا الحاضرة في حاجة الى النقل ، لأننا نحاول أن نقطع في العام الواحد مـا قطعه غيرنا في عشرات السنين ، وهذا لا يتوافر لنا الا اذا حشدنا كل النتاج الفكـري عند الأمم المتحفزة » وعنده أننا يجب أن ندرس ونترجم :

أولاً : ما يتعلق بالوطن العربي، ونعطي أهلنا صورة لما يقال عنا،وما يفكر به الغرب في مشاكلنا، أحياناً هذا يحتاج الى الرد والتعليق لانه مهما بلغ الكتاب الغربي من الانصاف فإنه يظل عاجزاً عن فهم كثير من أمورنا ، يضاف الى هذا أنه لا يستطيع أن يتحرر كل التحـرر من عواطفه الشخصية والقومية ، حتى ولو توخى الموضوعية .

ثانياً : الفكر السياسي العالمي ، مثلاً في أمهات الكتب السياسية العـالمية ، ففي هذه المرحلة الثورية ، تجدنا في أشد الحـــاجة الى الاهتمام .. بالنواحي الاقتصادية .

ويرى خيري حماد أن «الأمانة» هي العنصر الأساسي في التعريب والترجمة؛ وعلى المعرب أن يكون صادقاً كل الصدق في نقل آراء المؤلفين الى اللغة التي يترجم اليها، وإلا كان الانتاج الجديد مختلفاً كل الاختلاف عن الانتاج الاصلي وغير محقق للغاية المرجوة .

وتتصل الأمانة في النقل الى ناحية الكفاءة والقدرة على تفهم ما أراده المؤلف تماماً في كتابه ، ولعل مسؤولية المترجم الأولى تكون في أن يحكم على نفسه في ضوء قدرته على تعريب الكتاب أو الموضوع الذي أخذ على عاتقه القيام به ، فإذا ما تحقق من هذه القدرة توجب عليه آنذاك الأمانة في النقل ليحقق الغاية الأساسية من ترجمته لذلك الكتاب .

وعنده أن حركة التعريب قد أسهمت إسهاماً كبيراً في دفع الأدب العربي الى الأمام : وتغذيته بمختلف الصور والمرئيات ، فإذا قدرنا أن بعض أدبائنا لا يلمون بأكثر من انتاج لغتهم ، وأن بعضهم لا يعرف أكثر من لغة واحدة ، اعترفنا بدون مكابرة بأن مائدة الفكر لا تزال عندنا هزيلة وأدركنا مدى حاجتنا الى الترجمة .

ويؤمن خيري حماد بأن اللغة العربية لغة غنية جداً، وأن في الإمكان العثور على مصطلحات عربية كثيرة ، تقابل المعنى في اللغة الأجنبية المترجم عنها ، وأنه في الإمكان عند عدم وجود معنى كامل لها أن يعرب نفس الاصطلاح ، ومع كثرة الاستعمال يصبح هذا اللفظ مستساغاً مثلاً كلمة « تكنولوجي » استخدم له كلمة (التقنية) وهي كلمة عربية ، أو كلمة « ستراتيجي » يمكن استعمال كلمة (سوقية) مقابلها وتكرر حتى يستسيغها القارىء .

وحتى نستطيع أن نستكشف شخصية «خيري حماد» يجب علينا أن نعرف جوانبه الثلاثة : مترجماً ومؤلفاً ومعلقاً. وعلينا أن لا ننسى خيري حماد الأديب الى جانب خيري حماد المترجم والصحفي .. فهذه هي موهبته الأولى ، موهبة الأدب ودراساته ، فقد استهل حياته الفكرية بدراسة عن شكسبير نشرتها مجلة

الرسالة في أوج مجدها القديم عام ١٩٣٦ تحت عنوان « الكائنات الغيبية في شعر شكسبير » ثم كتب سلسلة أخرى عن توماس كارليل وفلسفته . وهذا سر نجاحه في ترجمة همنغواي. وله ترجمات أدبية أخرى عن أوسكار وايلد « امرأة غير ذات قيمة » ، والبير كامي « المنفى والملكوت » ولينا كسوف « الانسان الضائع » ، وكولن ولسون « عصر الهزيمة » ، وباسترناك « شجاعة العبقري ».

وفي مجال التأليف له سلسلته الضخمة التي أصدر منها مجلدين وهي : « أعمدة الاستعمار البريطاني السبعة » تضم سبعة من أعـــلام الاستعمار وهم : فيلبيس ، لورنس ، برسي كوكس ، جوترودبل ، ورونالد ستورس ، وسبيرز وكلوب..

ومن آماله ترجمة دائرة المعارف العالمية مع تعريبها لتلائم ثقافتنا. وله مؤلفه الضخم « قضايانا في الأمم المتحدة » الذي يقع في ٦٠٠ صفحة ، عالج فيها القضايا العربية التي عرضت على الأمم المتحدة بصفة عامة والقضايا الرئيسية الثـــلاث (دورة ١٩٦١) فلسطين والجزائر وعمان .

وهدفه في التأليف سياسي واضح يضع فيه خلاصة خبرته الصحفية والسياسية الطويلة ، فهو يعهد الى تصحيح ما يكتب في تاريخ العرب الحديث ، ويعتقد أن هذا التاريخ قد شوه لعدة أسباب من سيطرة بعض الأسر ذات النفوذ .

وهو لا يقف في الترجمة أحياناً عند حد التعريب ، وإنما يشرح في الهوامش ويصحح ويحقق ، وإن كان لا يمنعه اختلافه مع المؤلف في الرأي من أن ينقل فكرته بأمانة وصدق .

وقد عني كثيراً بجوانب لم يطرقها المترجمون كثيراً ، عني بمكيافيلي وحياته ومطارحاته ، وترجم لبرتراند رسل ، واهتم اهتماماً كبيراً بإفريقية ، وحوار مع نهرو ، ووجه همه الى الجزائر وصحرائها ، وترجم عن اليمن ، والعراق ، ومراكش وألمانيا الهتلرية . ومن الكتب التي ترجمها وعلق عليها : الفتوحات الاسلامية لكلوب ، والجوانب القومية والوطنية ، واهتمامات المترجم بالوطن

العربي ومعاركه مع الاستعمار واضح وضوحاً كبيراً ، وأعتقد أنه يمثل الجزء الأكبر من إنتاجه ، وذلك في حدود عقيدته وايمانه بمرآة الترجمة لما يكتب عن الوطن العربي ، وهو بهذا الاتجاه يكمل رسالته الأولى ، رسالته الصحفية حين عمل في العراق وفي فلسطين ، وقاوم الاستعمار وسجن من أجل إيمانه وفكره .

وكانت جريدته التي حررها « الاستقلال » جريدة الوطنية في العراق وكانت جريدة « الوحدة » لسان حال الحركة الوطنية في فلسطين . وفيهما كتب ألوف المقالات في اتجاه الحرية والوحدة وكانت قضية فلسطين في الأهمية الأولى.

ومما يسجل لخيري حماد أنه لم يجمع بين الترجمة حين بدأها منذ خمس سنوات وبين عمل آخر ، كما جمع المازني ومسعود وحافظ عوض ، وان كانوا جميعاً لم يبلغوا حظه من التقدير المادي ، وذلك ميزته أنه يتفرغ لفنه تفرغاً كاملاً ، فلا يشغل نفسه بالعمل الصحفي ، ويجد من جناحه المطل على النيل مواجهاً الجزيرة والشمس والقلعة ، ما يمده بالقوة على العمل المتصل ويهيئه للإنتاج الضخم .

- خيري حماد : صحفي ومؤلف ومترجم من فلسطين ، اشتهر بإجادة الترجمة ومرعتها وورث في ذلك أعلامها أمثال فتحي زغلول وجلال زعيتر .

له عديد من الترجمات عن البير كامي ، وجون دلوي ، واوسكار وايلد وبرتراند رسل ، كما ترجم عشرات من المؤلفات السياسية عن العالم العربي ومصر ، ومذكرات تشرشل وديغول .

من مؤلفاته : التطورات الأخيرة في قضية فلسطين .
صور من أوروبا .
قضايانا في الأمم المتحدة .

الدكتور زكي علي
الدعوة إلى الاسلام

لفت نظري اسم هذا الباحث الكبير خلال مراجعاتي للصحف المصرية في الثلاثينات ، الى حد أدهشني بغزارة موضوعاته ، وتخصصه في بحث أحوال المسلمين وقضايا الاسلام ، وزاد الأمر أهمية أنه قام بالسعي مع الأمير شكيب أرسلان وغيره في عقد المؤتمر الاسلامي الأوروبي في خريف عام ١٩٣٣ ، بقصد « توحيد صلات التعاون والتآزر والوئام بين جميع المسلمين المقيمين في أوروبا ، مما يكون من ورائه ترقية شئونهم الدينية والاقتصادية والاجتماعية » ، وكانوا يبلغون اذ ذاك « نيفاً واثني عشر مليوناً » وكانت فكرة هذا المؤتمر قد نشأت على أثر مباحثات « المؤتمر الاسلامي العام » في القدس ديسمبر ١٩٣١ .

كما ترجم الدكتور « زكي علي » كتاباً ضخماً عن (نهضة آسيا) لكاتب انجليزي حر هو « هـ. هـ. م. هندمان » بدأ نشره في جريدة البلاغ (١ — ١٢ — ١٩٣٣) .

وقد واصل الدكتور « زكي علي » أبحاثه من (بادن) بالنمسا أولاً ، ثم من

جنيف بعد ذلك ، عن (الاسلام) على نحو رائـع ، حتى أتيح له عام ١٩٣٨ أن يصدر أولى كتبه باللغة الانجليزية ، ثم توالت بعد ذلك مؤلفاته في هذا المجال على هذا النحو :

— الاسلام في العالم (بالانجليزية) لاهور ١٩٣٨ طبعة أولى ، ١٩٤٧ لاهور طبعة ثانية .

— لمحات في الاسلام (بالفرنسية) جنيف ١٩٤٤ .

— أوروبا والاسلام بالانجليزية جنيف ١٩٤٥ وترجمة دار الكشاف ببيروت الى العربية ١٩٤٧ .

— اللغة العربية في العالم (بالألمانية) جامعة جنيف ١٩٥٠ .

— الاسلام على الأبواب : مترجم عن توماس رايشهارت (المانيا) ١٩٣٩ .

— فضل الحضارة الاسلامية على الغرب (أولين بسويسرة) ١٩٦٠ .

وللدكتور زكي علي كتاب طبعه في القاهرة قبل هجرته عـام ١٩٣١ ، هو « رسالة الطب العربي » الذي ترجم الى البرتغالية في البرازيل ١٩٣٢ .

* * *

وقد اثار كتابه (الاسلام في العالم) عند صدوره إهتماماً كبيراً ، فقد ضم ١٣ فصلاً ، وملحقاً به إحصاء المسلمين في أنحاء العالم ، وقد استند المؤلف الى ٢٨٠ مرجعاً من أمهات الكتب ، التي ألفت عن الاسلام والشرق والعروبـة في جميع اللغات الحية .

وعني الدكتور زكي علي بتحقيق إحصاء المسلمين في الثلاثينات ، وإستطاع أن يؤكد أن عددهم في ذلك الوقت ٣٩٥ مليوناً و ٧٥٨ ألفاً . في نفس الوقت الذي كان الأوروبيون وغيرهم يحاولون أن ينتقصوا هذا العدد الى ٣٥٠ مليوناً ،

يقول : « لا يلبث الباحث في إحصائيات المسلمين في أنحاء العالم أن يتبين إختلافاً كبيراً ، وخطأً كثيراً ، مما دونه الكتّاب والمؤرخون والجغرافيون ، الذين عنوا بوضع إحصاء شامل لعدد المسلمين على ظهر الارض ، وجل هؤلاء الكتّاب من الغربيين . وقد وجدنا أثناء قيامنا بمثل هذا البحث تضارباً عظيماً في الآراء ، وخطأً شنيعاً في كثير من الأرقام التي ذكرها المدونون في السنوات الأخيرة أمثال ماسينيون المستشرق الفرنسي ، والدكتور زويمر وغيرهما ، فمعظم تلك الأرقام دون الحقيقة بكثير ، وإن كنا نقرر من باب الإنصاف أن معلوماتنا عن عدد المسلمين في كثير من البقاع ، التي لا يعرف عنها سوى النذر اليسير ، مثل أواسط إفريقية ومجاهلها ، وقد وصلتنا عن طريق المبشرين المسيحيين الكاثوليك أو البروتستانت الذين توغلوا في تلك البقاع » .

* * *

وقد صور الدكتور « زكي علي » هدفه من البحث فقال : « أنه إنما قصد به الى غرضين : الأول تصوير الاسلام على حقيقته منذ بزغ نوره ، والثاني : تطويره وبلوغه الحال الحاضرة التي واجه فيها دول أوروبا وشعوبها ، وصمد في المعارك الطويلة التي أرغمته أوروبا أن يخوض غمارها وخرج من معظمها فائزاً منتصراً ، فليس الاسلام دين تعصب ولا جهل ، وليس في نهوض الاسلام خطر يتهدد الحضارة الاوروبية ، التي هي وليدته في كثير من المناحي ، كما أثبت أكابر علماء الغرب أنفسهم امثال : كوسان دي برسيفال ، وسد ليوت ، وجوستاف لي بون ، وجولد زيهر ، و هـ . ج . ولز ، وعشرات غيرهم » .

وقال : « أن الاسلام المنتشر في آسيا وإفريقية قد بدأ ينتشر في أوربا وأمريكا واستراليا ، وقد يصير في وقت قريب قوة لا يستهان بها ، فوجب إذن أن يحسب له حساب ويؤخذ بيده » .

* * *

وقد تناول « لطفي جمعة » هذا الكتاب في فصلين طويلين في مجلة « الرابطة العربية » (مايو ١٩٣٨) ، وقال : « أنه لم يضع كاتب حديث ولا قديم ، بلغة غير لغته كتاباً على النمط العالي كما صنع الدكتور « زكي علي » نزيــل جنيف وخادم العلم والوطن والملة ، واذا كان هذا الرجل الفذ لا يزال في منتصف العقد الرابع كما علمنا من بعض عارفيه الثقات ، فلا يعلم الا الله ما يصل اليه بعد عشرين عاماً من الدرس والتنقيب والتأليف ، فهو يمتاز قبل كل شيء بالصدق والأمانة في النقل ، كما يظهر ذلك في الفصلين اللذين عقدهمــا لحضارة الاسلام ولتوسع الاسلام وامتداده ونفوذه ، ويمتاز بخلة ثانية نفيسة هي قدرته على سرعة الالمام بحقائق العلم ووقائع التاريخ وسهولة اهتضامها ، وصياغتها في أفضــل قالب وأبلغه وأوضحه ، وقد دل بكتابته في الاسلام على قدرة في التأليف بالانجليزية بدرجة أسلوبه العربي الرائع .

وأن الدكتور زكي علي لم يرم الى تمجيد الاسلام وحسب ، بل رمى الى حل مشاكله المعاصرة ، فقد شرح النضال الحامي بين الشرق والغرب في فصل ممتع ، ألم فيه بكل ما يهم العرب أن يعرفوه عن تاريخ النزاع بينهم وبين أوربا المجتاحة الغاصبة .

وأن أوضح ملامح هذا الكتاب هو غيرة المؤلف ، وسعــة علمه ، وشدة إيمانه بمستقبل هذه العقيدة ، التي صحبتها حضارة هي أرقى الحضارات القديمة والحديثة في الشرق والغرب .

وأن المؤلف يشع ناراً ونوراً في سبيل نصرة هذا الدين ، وسعــة انتشاره والتبشير به لصالح الانسانيــة ، وقد وهبه الله جلداً وصبراً وقدرة فائقة على تحمل المشقات ، لا يكون الا للهواة والمرشدين ، الى جــانب تفكير قوي ، وأسلوب غني ، وفكر منظم ، وارادة نافذة وقاهرة » .

وأشار لطفي جمعة الى أن الدكتــور « زكي علي » الذي غادر القــاهرة ١٩٣٢ ، في جو غامض ، لم يعد حتى كتابة هذه السطور . وقال : « تحريت

البحث عن هذه الشخصية الفذة فاذا هي غير شخصية الطبيب ، الذي كانت له صلة بجريدة المؤيد منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، وهو دكتور في الطب ، أصله من مديرية الشرقية ، تخرج من كلية الطب ، وسافر الى أوربا في بعثة علمية ، أتقن الانجليزية والفرنسية والألمانية ، واشتغل بالطب والتاريخ والسياسة ، وهو ذو شخصية معروفة محبوبة ، ومعدودة في أوساط العلم والسياسة ، كما أنه معروف في فينا وجنيف ولندن معرفة جيدة ، ندبته محطات الاذاعة الأوروبية للخطابة في موضاعات إسلامية وشرقية ، باللغات الألمانية والفرنسية ، وشهرته في الطب لا تقل عن شهرته في السياسة » .

والذي علمناه من سيرة الدكتور زكي علي ، يدلنا على أنه سافر من مصر لسبع سنين خلت في بعثة طبية حكومية ، بعد أن تخرج من كلية القصر العيني ، ومارس عمله في المستشفى الملحق بها ، ولم يدر بخلده اذ ذاك ان طوارىء الحدثان ستطوح به في تيارات غريبة عن مهنته ، وقد استغرقت فكره وعلمه ووقته ومواهبه ، وحولت خطة حياته في العلم والعمل الطبي الى الجهاد العلمي السياسي في سبيل الاسلام والمسلمين ، حتى ذهب ماله ، ونضب معين ثروته ، دون أن يفكر في الاستفادة من جهوده المختلفة ، معانياً في تلك السبيل مرارة العيش والآلام والاغتراب ، كالشهداء والمهاجرين الأول ، الذين لولاهم لما قامت للمعتقدات الكبرى قائمة ، لقد وجد أن أوربا جاهلة شئون الاسلام الجهل كله ، كما وجد علاقة الغرب بالحضارة العربية علاقة مرضية مزمنة تحتاج الى أشد عناية وأدق علاج « فانقطع الى البحث والدرس » .

فكانت نتيجة بحثه هذه الدراسات والاعمال الكبرى في التعريف بالاسلام بالانجليزية والفرنسية والألمانية .

* * *

هذا ما كتبه لطفي جمعة عام ١٩٣٨ ، وللقارىء أن يسأل اليوم « أين الدكتور زكي علي بعد ثلاثين عاماً من هجرته ؟ ..

هذا هو ما كان موضع التساؤل في مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، فإن اسم الدكتور زكي عـــلي الذي كان مدويـــاً ، لا يمكن أن يخفت أو ينطوي، وهذا ما دعاني الى الاتصال به في مهجره ، فهو واحد من هؤلاء الأعلام الذين هاجروا وعملوا من أجل فكره كبيرة ، يوضع في صف شكيب أرسلان وعبد العزيز الثعالبي ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش والخضر حسين وغيرهم ، من أعلام العالم الاسلامي الذين تغربوا من أجل « الكلمة » .

وقد استطعت فعلاً أن أحرز النجاح في الاتصال بهذا العلاّمة المجاهد المهاجر ، الذي كان له الفضل في هداية عشرات من المثقفين الى الاسلام ، ومنهم الصحفي المسلم « أحمد هوبر » الذي زار القاهرة واستقبل فيها استقبالاً رسمياً في العام الماضي .

لقد كان الدكتور زكي علي منذ مطالع شبابه مثقفاً، كان والده من خريجي الازهر وتتلمذ عليه كثير من رجال التعليم والتربية، رباه تربية اسلامية عربية ، فنشأ زاهداً في الدنيا ، راغباً عن زخارف المدنية ، تطلعت نفسه منذ شبابه الى الاشتغال بطب الأبدان وطب الأديان ، وكان في نفسه أن يكون طبيباً لما أصاب الاسلام والمسلمين من المحنة والعلل بالعمل على إقامة معالم الاسلام وإحياء مجد الأمة الاسلامية . وكان هذا في نظره يستـلزم تحرير ديار الاسلام ، وفي مقدمتها مصر ، يقول :

« لهذا كنت في طليعة الطلبة الذين قاموا بالمظاهرات ، وإعداد المنشورات إبان الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ، وأنا يومئذ طالباً بالمدرسة الخديوية الثانوية بالقاهرة ، وقد دونت في ورقة وأنا فتى في الزقازيق رغبتي في أن أكتب عن الاسلام كتاباً بعنوان « لمحات في الاسلام » ليوزع في بلاد الشرق والغرب ، ثم نسيت ذلك ، واذا بهذه الرغبة تتحقق في سويسرا عام ١٩٤٤ ، وبهذا العنوان بالذات (بالفرنسية) .

وحدث عندما تقدمت الى امتحان دبلوم الطب (ديسمبر ١٩٢٦) ، أن

غبنت في الدرجات بسبب غامض ، وكنت حصلت على أعلى درجة في امتحان أمراض العيون في تاريخ مدرسة الطب إطلاقاً ، واذا بهذه الدرجة تنقص بلا وجه حق ولو لم يقع ذلك لكنت أول خريجي الطب، ثم عرضت عليّ بعثة علمية فرفضتها عام ١٩٢٧ ، واشتغلت طبيباً بقصر العيني ، ثم طبيباً بشركة الزيوت الانجليزية المصريه (شل) في الغردقة على البحر الاحمر سنة ١٩٢٨ ، وهالني سوء معاملة الشركة للعمال المصريين ، فدافعت عن حقوقهم ، وفرضت على الشركة كثيراً من الامور لمصلحة العمال » .

وسافر الدكتور زكي علي في بعثة علمية عام ١٩٣١ ، ليقضي وقتاً في باريس، ثم في فينا عاصمة النمسا ، ثم في لندن : « وما أن وصلت الى باريس حتى سارعت ليس بالتردد على المستشفيات الفرنسية فحسب ، بل وبالتردد على الأوساط العربية والاسلامية بها ، وجمعت حولي الكثيرين ، وعرفت عدداً من المستشرقين وكبار الأطباء .. وصار مسكني نادياً يجتمع فيه كل الشرقيين من العرب والمسلمين » .

وحضر المؤتمر العالمي لتاريخ الطب في مدريد ، وقدم بحثاً عن تاريخ الجراحة العربية في الاندلس ، يقول : « وعندما وصلت الى فينا عام ١٩٣٢ ، كنت وطدت من قبل علاقات كبرى مع العاملين في النضال العربي والاسلامي شرقاً وغرباً ، مع قيامي بالكتابة عن الاسلام ومصر والشرق بالصحف وبالخطابة والمحاضرات وبالاذاعة ، وصرت أحلم بتحرير بلادي وبإحياء مجدها، فأسست رابطة الثقافة الاسلامية هناك عام ١٩٣٢ ، وكان لها نشاط عظيم وتأثير بالغ المدى في الأوساط الأوروبية ، ثم ازداد النشاط بتأسيس جمعيات مماثلة في لندن ومدريد والبوسنه .

« غير أن هذا لم يرض الأوساط الاستعمارية والأوساط المعادية لمصر ، والنفوذ في مصر يومئذ كله بيد الانجليز ، فوشى بي بعض الأطباء من الانجليز بقصر العيني الى الحكومة ، وصادف في نفس الوقت مرضي بالكبد في فينا ،

واضطراري لدخول مستشفى للإقامة فيه شهرين ، فأنذرتني الحكومة بالرجوع وبعدم السفر الى لندن ، ورغم احتجاجي على هذا التصرف الظالم ، اذ كنت مريضاً من جهة ، ولم تتم مهمتي الطبية من جهة أخرى ، ولكن الحكومة قررت فصلي من قصر العيني ، وأصبحت بين عشية وضحاها صفر اليدين من أي وسيلة للعيش ، وهنا بدأت حقيقة كفاح مرير من ضيق ذات اليد وعسر الزمن » .

وقال له الامير شكيب أرسلان : « يا دكتور لقد ضحيت بمركزك في مصر ، وليس لك مورد للقوت ، ورغم شبابك فبدون المال ستعاني وستقاسي كثيراً في سبيل ما تصبو اليه من العمل لتحرير مصر وديار العرب وإنهاض المسلمين » .

واقترح عليه الامير شكيب الهجرة الى سويسرا ، وأن ينضم الى زملائه في الجهاد ، غير أن الدكتور زكي علي قال كلمته الفاصلة في خطاب الى « فؤاد » : ان عرشاً لا يقوم على دعامة من رضا الشعب لهو عرش فوق بركان ثائر لا يؤمن له انفجار ، وأن الأمة التي ذاقت طعم الحرية في (بيت الأمة) لن تقبل طبائع الاستبداد في (عابدين) .

ولم يتوقف الدكتور « زكي علي » عن العمل بعزيمة وإصرار ، فأخذ يكتب في الصحف داعياً الى حرية مصر واستقلالها ، ناشراً دعوة العروبة والاسلام ، وأتيح له في خلال هذه السنوات العجاف أن يعمل كثيراً ، وأن يلتقي بالكثيرين من أهل الشرق والغرب فيكوّن حصيلة ضخمة من التجارب والدراسات والثقافة في مجالات مختلفة .

وظل الدكتور « زكي علي » مرابطاً في أوربا بعد أن عاد شكيب أرسلان الى الشرق ، وعاد علي الغاياتي الى مصر ، وقبل ان تشرق أضواء الثورة المصرية العربية كان قد أُصيب المجاهد القديم والمحارب الكبير بالذبحة الصدرية (بسبب كمدي من أحوال بلادي وبسبب الجحود) .

يقول : « إنني منذ سنين اخترت العزلة ، وأنست الاعتكاف ، وحبب الى نفسي سلوك سبيل الصوفية ، مقتدياً في ذلك بالامام الغزالي – رضي الله عنه ، وهكذا استقلت من وظيفتي بجامعة جنيف ، حيث كنت أقوم بتدريس اللغة العربية وآدابها زهاء عشرين سنة ، وتحررت من شواغل الدنيا ، وإنني أجـد راحة النفس وصلاح البال في شقتي الصغيرة ، التي يسميها أصحابي «الصومعة » ، حيث أعيش وحيداً لا زوجة ولا ولد ولا خادم ولا خادمـــة ولا تليفون ولا راديو ولا تلفزيون ، وانما وسط تلال من الكتب والمطبوعات المكدسة في كل جانب ، فلا عجب أن أطمئن الى ما رضيت به نفسي ، وخاصة بعـــد أن انتقل الى الدار الباقية جلّ من عاصرت وعرفت عن كثب أو عن تراسل أو شاطرت الجهاد ، وبعد أن كدت أكون نسياً منسياً لدى أهل هذا الجيل ، وقد تغيرت أحوال الدنيا، وبعد أن امتحنني الله فابتلاني بآلام الذبحة الصدرية منذ ثلاثة عشر سنة فرضيت قضائه وصبرت على البلاء .. » .

وذكر الدكتور زكي علي أنه عام ١٩٤٢ والحرب على أبواب مصر من ناحية ليبيـــا ، كان يعد كتاباً بالانجـــليزية تحت عنوان « The real Egypt » : « مصر الحقيقة» نادى فيه بزوال الملكية في مصر وقيام الجمهورية وكان إهداؤه :

إلى فـــلاحي مصر ... الذين ولدت في إحدى قراهم ، وعـــاشرتهم فعرفت محنتهم وبلواهم ،وسمعت وان سكتوا أنينهم وشكواهم ، والذين عالجت مرضاهم طبيباً وأحن اليهم غريباً » .

وهكذا كان في خاطر الدكتور « زكي علي » دائماً وطنه وفلاحوه ..

● الدكتور زكي علي من مواليد ١٩٠٨ .
طبيب مصري مقيم في جنيف منذ ١٩٣٤ .

من مؤلفـــاته في دار الكتب المصرية : رسالة الطب العربي وتأثـــيره في أوروبا (١٩٣١).

★

(١٥)

عبد العزيز بنعبد الله
التحقيق اللغوي والتاريخي

إن المغرب العربي في نهضته الفكرية بعد الاستقلال ، يرسم صورة رائعة للعمل البنّاء في مجال التأليف والبحث والتعريب جميعاً ، فقد نهض عدد غير قليل من شباب الأدباء والعلماء ، فمضوا يشقون الطريق بقوة ، لبناء الفكر العربي الاسلامي المغربي ، على أسس ثلاثة : (١) : بعث التراث وإحياؤه وتقديمه وفق المنهج العلمي ، باعتباره يمثل صورة الإمتداد التاريخي للأدب العربي منذ فجر الاسلام الى اليوم . (٢) : إحياء التعريب ودراسات اللغة العربية ، باعتبار أن للمغرب في مجال الفصحى دور ضخم يلتقي بالدور الذي قام به اللغويون في المشرق . (٣) : كتابة التاريخ المغربي العربي الاسلامي من جديد في مراحله المختلفة .

* * *

وقد ظهر في هذا المجال عديد من الأعلام ، في مقدمتهم : علال الفاسي ، وعبد الله كنون، وعبد الكريم غلاب، ومحمد الفاسي ، ومحمد بن تاويت الطنجي،

ومحمد الحجوي ، ومحمد ابراهيم الكتاني ، ومحمد داود ، ومحمد عباس القباج ، ومحمد الصبّاغ ، ومحمد عبد السلام بن عبود ، ومحمد عزيز الحبابي ، ومحمد مكي الناصري ، وعبد العزيز بنعبدالله .

وعبد العزيز بنعبدالله هو المشرف على مجلة « اللسان العربي » التي يصدرهـا المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي ، وله دراساته اللغوية المتعددة . ولقد كان عليّ أن أذكر عمـله الضخم الذي يقوم به ، وهو معجمه الضخم عن الفصيح في العامية المغربية ، ويحتوي آلاف الألفاظ ذات الأصل العربي ، وقـد أرفقه بدراسة مقارنة لتطور استعمال تلك الألفـاظ ووجوه اشتقاقهـا ، مع موازنة ذلك بالتأثيرات اللغوية التركية والفارسية واليونانية واللاتينية والفرنسية والاسبـانية . وقد حمل عبد العزيز بنعبدالله منذ وقت بعيد لواء الدعوة الى تفصيح العامية في العالم العربي ، وأجرى مقارنات بين عامية المغرب وعـامية الشام من ناحية ، وعامية المغرب وعامية مصر من ناحية أخرى .

وفي دراسة لمنهجه يقول : ان أغلب الأصول والقواعد الأساسية مشتركة بين الفصحى والعامية المغربية ، حتى ما يتصل بالقلب والإبدال والتسهيل والترخيم والنحت ، وتمتاز العامية بمظاهر بسيطة تجعلها في بعض الأحايين أكثر إيغالاً في القلب والتسهيل .

ويقول: يجب أن يعيد التاريخ نفسه في تفصيح العاميات العربية وتوحيدها، فقد تعددت اللهجات في الجاهلية بتعدد القبائل الكبرى ، وخفت أوجه الخلاف بمـا استوثق اذ ذاك من صلات في الاسواق الاقليمية والمبادلات التجـارية والمصاهرات ، ولقد لعبت فرنسا دوراً هاماً في انتقاء أجود اللغـات فنسقت واجتنت أفضل لغات العرب ، وحاول بعض العلماء تفصيح اللهجات العـامية (مثل الأستاذ عبد القادر المغربي)، ويرجع عدم نجاحهم الى عدم اتخاذ مسطرة منطقية فعالة جماعية ، مصادق عليها من مجموع الدول العربية ، لمواجهة الفروق

المختلفة الناتجة من تشعب القواعد العامة ، تبعاً لاختلاف التأثيرات القبلية العربية أو التأثيرات اللغوية الدخيلة .

* * *

وللأستاذ بنعبدالله أبحاث مختلفة متعددة، نشر كثيراً منها في المجلات العلمية المغربية ، وقد قرأت أولها في مجلة رسالة المغرب (١٩٤٦) التي كان يرأس تحريرها الأستاذ عبد الكريم غلاب مدير تحرير جريدة العلم كبرى الصحف المغربية اليوم . وقد كشفت هذه الأبحاث عن اتجاه كاتبنا نحو إحياء التراث والتحقيق العلمي في مجال الأدب والتاريخ معاً، في دراسات عن تراث ابن خلدون، وتراث المغرب الفلسفي ، ومؤرخي الدولة العلوية ، ومراكز المغرب الثقافية ، والمعاهدات بين المغرب وأوربا في العصور الوسطى .

وأعظم ما لفت نظري دراسته « مظاهر الحضارة المغربية » وهو بحث مطول بدأ في نشره عام ١٩٥٢ ، ثم أصبح من بعد مؤلفاً ضخماً من مؤلفاته ، استكمله بدراسة أخرى هي (معطيات الحضارة المغربية) ، ثم « الفن المغربي في مختلف العصور » ثم « التيارات الكبرى لحضارة المغرب » ،وأضاف اليه تاريخ المغرب في دراسة مقارنة للنصوص العربية والأجنبية » ، ثم « جغرافية المغرب ، ثم « الطب والاطباء بالمغرب » ، من هذه المجلدات السبع تكونت موسوعة ضخمة ، تعد من المراجع الأساسية للحضارة المغربية ، ولا عجب فالأستاذ عبد العزيز هو أستاذ الحضارة والفن بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس ، بالإضافة الى إدارة المكتب الدائم للتعريب . فهذا عمل تخصص فيه منذ عشرين عاماً ، فإذا عرفنا أنه من مواليد عام ١٩٢٣، وأنه أحرز الليسانس في الآداب والحقوق عام ١٩٤٦ ، ثم درس العلوم الاسلامية على مجموعة من كبار العلماء بالرباط عجبنا لهذا الذكاء والنبوغ .

ولقد لفت نظري عبد العزيز بنعبدالله بصورة باهرة ، في خلال إعداد دراستي عن الفكر والثقافة في المغرب العربي بأقطاره الأربعة في فترة الاحتلال الفرنسي لهذه الأقطار حتى عام ١٩٥٤ تقريباً ، لفت نظري بإنتاجه الضخم

الواسع المنوع ومنهجه العلمي ، وله الى هذه الموسوعة عن الحضارة المغربية آثار أخرى منها « الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب » و « الاسلام في تطور » أو الاسلام في طريق التقدم كتبه باللغة الفرنسية ، وله بالفرنسية أيضـــاً « الفن المغربي » .

ومن هنا كان اهتمامي بكتابه عن تاريخ المغرب في العصر الحديث والفـترة المعاصرة ، الذي تحدث فيه عن تاريخ المغرب منـــذ قيام الدولة العـــلوية ، وتجديد وحدة المغرب الى العصر الحديث ، مولياً اهتمامه للعصر الاسماعيلي ، ثم الاستعمار الفرنسي بالجزائر ، والمقاومة المغربية المسلحة ، والكفـــاح السياسي لهذه الحماية ، ودور الملك محمد الخامس والشعب في المقـاومة ، وقد اهتم المؤرخ بحركة الأمير عبد الكريم الخطابي في الريف ، ومضى في دراسته مفصــلا تطور الحضارة والفن ، وموارد الدولة ، ونظم البلديات ، والتعليم ، والمحاكم الأهلية. ثم رسم صورة رائعة للمقاومة والمطالبة بالاستقلال وقيـــام الكتلة الوطنية ملتفة حول الملك محمد الخامس .

* * *

ولعل أروع ما في هذه الدراسة ، ذلك المعجم التـاريخي عن أهم الأحداث والأعلام والأماكن ، الذي يبدو جمّ الفائدة للباحث من خارج نطاق المغرب ، حيث تبدو بعض الكلمات ولها طابع فريد معين :

(١) فالبحر الأخضر مثلا تعبير كان يطلق على البحر الأبيض المتوسط .

(٢) (الراية) حيث أشار الى أن أقدم راية مغربية كان لونها أزرق وأحمر وأبيض ويرجع تاريخها الى القرن الثامن الهجري .

(٣) وأشار الى أنه يوجد في المغرب إقليم اسمه الشام (الصغير) وهو اقليم من تطوان الى وادي سبو .

(٤) من هذه الاصطلاحات (الغدير) وهي المراعي التي احتفظ بها المخزن

(أي الحكومة في عهد الاحتلال) لنفسه في الأراضي التي كانت تابعة لبيت المال .

(٥) أشار الى (العرب) التي أوردها ابن خلدون ، وقال أنه تناقض في الظاهر مع نفسه ، حيث وصف العرب بالتوحش والنهب وروح التخريب من مقدمة تاريخه ، ثم ذكر أنهم بعد الفتح الاسلامي تمدنوا فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بتطور الحضارة ، وقال « والواقع أنه لم يقصد بالتوحش سوى الأعراب الأجلاف في الجاهلية أو بعدها ، أما العرب الحضريون فهم غير ذلك . وبهذا لا يكون العرب بدعاً من الشعوب الأخرى كالبربر مثلا ، الذين نلتمس فيهم نفس الخصائص في البادية ونفس الاستعداد للتطور في الحاضرة.

(٦) أشار الى عروبة الفينيقيين وقال: أكد الاستاذ توفيق المدنيفي (تقويم المنصور الصادر سنة ١٣٤٨ هـ)، أن الكشوف الحفرية ونقوش الحجارة أثبتت كنعانية الفينيقيين ، كما أبرزت أن كلامهم كان عربياً شديد الشبه بالعربية العامية المستعملة بالعاصمة التونسية وجزيرة مالطه قبل أن تختلط بمختلف اللغات الاوروبية .

(٧) أشار إلى مدينة « فاس » فقال أن القلقشندي في صبح الأعشى ذكر أن فاس مدينتان ، إحداهما بناها إدريس بن عبد الله وتعرف بعودة الأندلس ، والأخرى بنيت من بعده وتعرف بعودة القرويين .

(٨) في مادة (جامع القرويين) قال أن « دلفان » قال في كتابه « فاس وجامعتها » أن جامع القرويين هو أول مدرسة في الدنيا .

(٩) في مادة (المغرب العربي) قال : أن وحدة المغرب العربي تحققت سياسياً منذ القرن الأول ، حيث ولىّ هشام بن عبد الملك (عبد الله ابن الحبحاب) مصر وإفريقية والأندلس ، فكان له من العريش الى طنجة) الى السوس الأقصى ، الى الأندلس وما بين ذلك .

(١٠) قال في مادة (**اليمن**) أن هانز هو افريتز في كتابه حول اليمن ، قد أشار الى التشابه الملحوظ بين الألحان في أغـاني الجنوب العربي وبـين الموسيقى البربرية ، التي تمكن العالم كارل وهلم لحان من تسجيلهـا ، فأبرز وحدة إنشاد الأغـــاني . أضف الى ذلك وجود أبنية مرتفعة بالأطلس،تشبه تلك التي تقوم في الجنوب العربي ، وتحمل نفس المظاهر المعمارية كالنتوءات والأنابيب الخشبية لنقل مياه الأمطار والكوات والثقوب .

* * *

وبعد فقد توسعت في إيراد جوانب من المعجم التاريخي ، الذي ضمه المؤلف الى كتاب المغرب ، والذي تناول فيه أكثر من ثلاثمائة مـادة ، لأدلل على منهج البحث العلمي ، الذي يبرز دائماً في دراسات عبد العزيز بنعبدالله ، بمـا يدل على تنوع دراساته وتعمقها واشتمالها على أبحاث التراث واللغة والتاريخ والحضارة.

● عبد العزيز بنعبدالله (الرباط) المغرب .

من مؤلفاته : تاريخ المغرب في العصر الحديث والفترة المعاصرة .

معجم الأصول العربية والاجنبية للعامية المغربية .

الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب .

الطب والأطباء بالمغرب .

(١٦)

عامر محمد بحيري
شعر الملاحم

لا شك أن الشعر العربي المعاصر ، يخطو اليوم خطواته الواسعة في المجـــال العالمي والانساني ، بظهور عديد من الدواوين التي يبرز فيها طابع الشعر الملحمي واضحاً من الغلاف الى الغلاف ، متخصصة فيه ، مستقلة به .

وقد أصدر « عامر بحيري » ملحمته الثالثة (الجـلاء) وبذلك وضع نفسه في مكان واضح من مجال تجديد الشعر العربي ، الذي كان طبيعياً أن يتجه بالشعر العربي المعاصر الى « الملحمة » ، بعد أن كتب شوقي وحافظ ومطران قصـائد مطولة . وفي مقدمة من تنـاولوا هذا اللون « أحمد محرم » حـــين نظم ملحمة (الألياذة الإسلامية) ، التي ظلت سنوات طويلة لم تنشر حتى أتيح لها ذلك في هذه الأعوام .

وكان عامر محمد بحيري في مقدمة من حمل هذا اللواء ومضى به طويلاً ، حتى نظم ملحمته الشعرية « أمير الأنبياء » في ١٢٠٠ بيتاً . ثم أتبعها بملحمة (إيزيس وأوزيس) فملحمة « الجلاء » .

ويظهر عمل عامر محمد بحيري في ميدانين كبيرين : فن الملاحم ، وتجـديد العروض .

وقد كان عمله هذا في خلال ثلاثين عاماً خليقاً بأن تلقي اليه نظرة فاحصة ، فعامر بحيري منذ عام ١٩٣٢ بدأ يعمل على تجديد الشعر ، حتم عليه هذا الاتجاه دراسته للشعر الانجليزي وفي مقدمته شعر شكسبير ، ومقـــارنته بمسرحيات شوقي التي ظهرت في هذه الفترة وشغلته كثيراً ، حتى أنه بدأ ينسج على منوالها في محاولات متوالية .

وقد هيأ له ظهور مجلة « أبولو » في ذلك التـــاريخ فرصة لنشر منظوماته ونقوده ، ولم يلبث أن أصدر عام ١٩٣٦ مجموعة شعره الأولى « اليخت الذهبي » تحمل طابع التجديد الذي أخذ نفسه به .

كان اتجاهه في التجديد .. ينصب على القـــالب ومضمون الشعر في وقت واحد . وكان تجديد القالب يتمثل في إدخال أوضاع شعرية جديدة أظهرهـــا الأسماء الرباعية والثمانية والتساعية التي أخذها من بعض الشعراء، وخاصة تساعية « أدموند سبنسر » وثمانية « بيرون » .

ثم جرت محاولته فيما بعد لادخال نظـام « السونته » ، وهو يتكون من ١٤ شطراً أدبياً وسمّاه « الصدحات » لما لمسه من قرب الجرس الصوتي بين الكلمتين العربية والأفرنجية ، ولما تؤديه كل منهما من معنى اللحن والغناء .

وشغل عامر بحيري في أهم ما شغل به من فكرة تجديد الشعر ، بتجــديد العروض، فقد لاحظ أن بحور الشعر العربي تنقسم الى قسمين : بسيطة ومركبة. بينما بحور الشعر الأوربي مثلا كلها بسيطة . ومعنى البحور البسيطة أن البيت يتكون من تفعيلة واحدة متكررة نحو : مستفعلن ، مستفعلن ، مستفعلـــن (في الرجز) ومتفـــاعلن ، متفاعلن ، متفاعلن (في الكامل) و : فعولن ، فعولن ، فعولن (في المتدارك) .

وفي البحور المركبة ، أن البيت يتكون من تفعيلتين مختلفتين تتكرران واحدة تلو الأخرى . نحو فعولن مفاعيلن ، فعولن ، مفاعيلن (في الطويل) ومستفعلن فاعلن ، مستفعلن ، فعلن (في البسيط) وفاعلاتن ، مستفعلن ، فاعلاتن (في الخفيف) .

يقول : ولما كنت قد تبينت تمام التبين أن الشطر في الشعر إنما هو البيت نفسه ، وأن البيت المعروف في قصائدنا العربية والمكون من شطرين ما هو الا نوع من الشعر المزدوج،وذلك يظهر بوضوح أكثر من البيت الأوربي الذي يسمونه سطراً أي بيتاً ، كما يظهر بوضوح أيضاً عند ترجمة الشعر الأوربي ، الى شعر عربي – وهو ما عالجته – فيقع المعنى الوارد في البيت الأوربي حينئذ ، في شطر واحد من الشعر العربي ، لذلك رأيت أن أول واجب نحو تجديد العروض العربي ، وجعل الشعر العربي يستوعب الموضوعات الكبيرة كالملاحم والمسرحيات ، إنما هو في الرجوع الى هذه الحقيقة ، وهي رد بيت الشعر العربي الى شطر واحد بدلاً من شطرين ، لا داعي لهما خصوصاً مع التزام القافية في الشطر الثاني على طول القصيدة ، مما كان مثار الشكوى من جمود الشعر العربي ، من حيث المعاني والموضوعات، على أيدي ضعاف الشعراء ، وأدعياء الشعر على مر العصور .

غير أن جعل البيت شطراً واحداً في العربية لا يكفي ، لأنه لا يزيد عادة عن ثلاث تفعيلات ، بينما هو في الشعر الأوربي خمس أو ست ، لذلك رأيت أن أنسب وضع للبيت العربي الجديد هو أن يكون من خمس تفعيلات في البحور البسيطة .

على أن ما حاولته فعلاً هو النظم في خماسيات البحور البسيطة ، وإن كان النظم في سداسيات البحور المركبة ممكناً ، إلا أن الأول أيسر منه ، وأنسب لموضوع القصة أو الملحمة .

ويبدي عامر بحيري رأيه في محاولات التجديد في الشعر العربي ، وبخاصة

من حيث العروض التي ظهرت في الفترة الأخيرة (عام ١٩٥٠) ومـــا بعد .. فيقول :

إن كان المقصود بها تطوير الشعر العربي فعلاً، والخروج به من حيز الجمود الى حيز المرونة والانطلاق والاستيعاب ، وان كانت تتفق كذلك مع بعض القواعد الا أنها في أكثرها بحاجة الى تصحيح وتقويم،ومن مأخذي على هذه الحركة تحطيم التفعيلة الواحدة، واختيار البحور الضعيفة، وعدم التقيد بالقافية او اهمالها،مع ضعف الأسلوب غالباً ، مما يجعل هذا النوع حتى الآن أشبه بالترجمة النثرية لشعر أوربي منه بنظم شعري مبتكر، ولو روعيت فيه بعض الضروريات من تكامل التفعيلة واستقامة البيت والاعتماد على قوة القافية، مع العناية بالأسلوب الذي هو روح العربية وريحانها، لكان منه شيء قريب مما ذكرته الآن، وبنيته على دراسة مستأنية واعية أمينة على تراث العـــربية المجيدة وثروتهـــا اللغوية والموسيقية الخالدة .

هذا بالنسبة لتجديد العروض عند « عامر بحيري » . أما بالنسبة لدوره في الملاحم والمسرحيات ، فقد ذكر أنه تأثر بمسرحيات شوقي ، وشغل بها الى حد كبير ، كما راح منذ مطالع حياته يترجم من مسرحيـــات شكسبير فترجم من العاصفة ومكبث وأنطونيو وكليوباترا وغيرها .

كما قام بمحاولات خـــاصة منها « ماري أنطوانيت » و « الجيل الجديد » و « الرسالة العادلة » و « خالد بن الوليد » و « الأمين والمأمون » وله محـاولة لم تتم عن قناة السويس .

أما الملاحم عنده فهي الميدان الذي لم يجد في حلبته من شعراء العـــربية فارساً ، رغم ما هو موجود فعلا في أدبنا القديم من قصص شعري ومن مـلاحم أغلبها نثري يتضمن في أثنائه أبياتاً من الشعر تمثل حواراً بين الشخصيات .

وقد دفعته دراساته للقصص الشعرية في الأدب الانجليزي الى تجربة مثل هذه المحاولة ، على نحو يختلف عما فعله شوقي الذي يرى عامر بحيري أنه اكتفى بنظم

التاريخ (كما فعل في تاريخ العـرب والاسلام) ، أما هو فكان يتجه الى القصة الفنية الخالصة . واستطاع في خلال السنوات المتوالية منذ عام ١٩٣٦ كتابة : الساحرة ، يوسف الصديق، الحمامة البيضاء ، إيزيس واوزوريس ، أمير الأنبياء يقول : « أن هناك فرقاً كبيراً بين نظم التاريخ ونظم القصة المستكملة لقواعـد الفن القصصي وشرائطه ، وبالرغم من أن بعض محـاولاتي ، ربمـا يبعد من نظم التاريخ، مثل ملحمة « أمير الأنبياء » التي كان جلال موضوعها وشخصية البطل فيها ، مما يدعوني الى الاقتراب ما أمكن الى حوادث التاريـخ ، بل الى تحـري الصحيح منهـا دون الموضوع . إلا أنني في محاولات نظم الملحمة بصفة خـاصة كنت أهدف الى نظم القصة الشعريه الفنية ما أمكن ذلك » .

ثم كانت المرحلة الطبيعية بعد ذلك في تطوير عمل عامر بحيري أن يتجه الى عمل كبير ضخم في تاريخ مصر كقصة الجلاء ، فهي عنده قمة في المحاولات التي مر بها في تريث وصبر ، مدى سنوات طويلة ، وقد نظمها في بحر مبتكر ، لا يبعد عن أصول العروض العربي ، ولا تكاد تختلف في نظائرهـــا في القصص العالمية الكبرى . وقد بدأت الملحمة منذ بدأت نذر الحرب العالمية الثـــانية ، عندماتصدر شباب الجامعة الصفوف وتعرضوا لرصاص الانجليز ، وتساقط منهم الشهداء، وكيف انطوت هذه الحركة، ولم يلبث الشباب أن جدد حركته وكانت الدعوة لا تعتمد على الاحزاب وانما تعتمد على منطق القوة ، بدأت هذه الحركة في داخل الجيش وبـدأ الشباب المتحمس في داخل الجيش وخـارجه يتصيدون جنود الانجليز ، أفراداً وجماعات ، وبدأت تنتشر خلايا هذه الحركة التحررية الكبرى التي انتهت بقيام الثورة ١٩٥٢ ثم كيف توالت أحـداثها في إعلان الجمهورية وتحقيق الجلاء وتأميم القناة .

وهي مع اتصالها بالتاريخ القريب ، فقـد نظمت على نحو فني متحرر من كل القيود والالتزامات ، أفرادهـــا جميعاً من خلق المؤلف ، وليس فيهم شخصية واحدة لها نظير في الوجود الخارجي ، أعطت صورة من حيـاتهم ، كما صورت الحياة الجامعية في مصر ، وبعض مشاكل المجتمع ، وحياة الريف والمدينة .

ويدل هذا العمل في جملته على استمرار عامر بحيري في رسالته التي آمن بها، والتي لم يتحول عنها على الرغم مما لقي من إغراء ، الا أنه آثر الاخـلاص لرسالة مدى الحيـــاة ، ثم أخذ في تطوير هـــذه الرسالة حتى شملت القصة والملحمة والمسرحية ، وقد لقي في سبيل هذا الاتجاه خصومة شديدة ، وتأخر بـــين الصفوف عن حد قوله ، لولا إيمان بالله وبالرسالة التي وهب نفسه لها .

- عامر محمد بحيري : من خريجي كلية الآداب بالجامعة المصرية .

من مؤلفاته : تحية الهجرة ، خالد بن الوليد (مسرحية شعرية) ، اليخت الذهبي ، الجلاء ، تحت لواء العروبة ، قصائد إفريقية .

وله : تحقيق ديوان إسماعيل صبري ، والمختار من كتاب الإتقـــان في علوم القرآن للسيوطي .

★

عمر الدسوقي
تطور الأدب العربي

ما تزال دار العلوم تمثل المدرسة الوسطى في الفكر العربي المعاصر بين الأزهر والجامعة ، حيث الأزهر يوغل في الدراسات الاسلامية واللغوية التقليدية ويحتفظ بطابع المحافظة والتعمق والتوسع ، وحيث الجامعات تأخذ بالدراسات العصرية الحديثة دون أن ترتبط بجذورها من الثقافة العربية .

أما دار العلوم فتمثل الارتباط والتعاقد بين المنهجين ، ومن هنا كانت لها قيمتها الذاتية ، كحلقة تربط الثقافة الحديثة الغربية بالثقافة العربية الاسلامية وتخلق التفاعل بينها . ومن هنا كانت أهمية دراسة الاستاذ عمر الدسوقي كركن من أركان الدراسات فيها منذ ربع قرن تقريباً حين عاد من لندن ١٩٣٩. ومزية عمر الدسوقي تنوع فكره وثقافته وتجربته في المجال الثقافي العربي الحديث . فهو قد جمع بين ثقافة الأزهر وثقافة دار العلوم وثقافة أوربا حيث أقام دارساً في جامعة لندن خمس سنوات ، ثم هو ذلك الكاتب الذي يؤمن بالقومية العربية باكراً ، ويرتبط بصلات الصداقة والثقافة مع عشرات من شباب العالم العربي ،

وهو الذي أقام فترة في بيروت مديراً لكلية المقاصد الاسلامية، ثم أقام فـــترة أخرى في ليبيا رئيساً لأقسام الأدب واللغة العربية بجامعتها في برقة .

وهو فيما بين ذلك مؤلف وباحث ، له عديد من الدراسات عن اخوان الصفا والفتوة عند العرب وكثير من أعلام المفكرين العرب وكتابه « الرائد في الأدب الحديث » . وهو ليس أستاذاً جامعياً بقدر ما هو « مرب كبير » ، استطاع أن يبني عقولاً وشباباً ، وأن يترك آثاراً حية في عقول وقلوب كثير من المثقفـــين الذين اتصلوا به وتأثروا به ، ولعل طابعه في الجــدية أبرز من طوابع غيره من الأساتذة والرواد في « المجاملة » .

ولقد كان في مطالع حياته رمزاً للتفرق ، فكان عام ١٩٣٢ أول الناجحين من خريجي دار العلوم وأصغرهم سناً، ثم هو يسافر الى لندن ليدرس أمرين كانا اذ ذاك جديدين حقاً : علم النفس ، واللغتين الحميرية والآرامية .

وهو في خلال طريقه الطويل يتصل بالسيدمحب الدين الخطيب سنة ١٩٢٦ ، فيذهب الى المكتبــة السلفية ، وهي اذ ذاك خلف محكمـة الاستئناف ، حيث يحضر الطلبة تلك الندوات ، ويشترك فيها العلامة أحمد تيمور ، والسيد الخضر حســين ، وأبو بكر يحيى ، وعبد العــزيز اليمني الرجبوتي ، والمرحوم ابراهيم اطفيش . يقول : « هذه الندوة وجهتني الوجهة العامة ، أفهمتني في وقت مبكر واجبي نحو القومية العربية والاسلام ، ومن خلالها حددت الهدف الذي أقصــد اليه في هذه الفترة :

(١) خدمة الاسلام (٢) خدمة الوحدة العربية (٣) خدمة مصر .

يقول : « وقــد بدأت عام ١٩٣١ اؤلف جمعية الوحدة العــربية في مصر . وكان أعضائهــا أحمد حسين المحــامي وفتحي رضوان وصالح جودت وبديع شريف . »

كما اشترك في مشروع القرش ، وجمعية الطلبة الشرقيين التي شارك فيها أحمد

حسين وفتحي رضوان وتوفيق البكري وعبـد الرحمن الشهبندر وعبد الحميد سعيـد .

يقول عمر الدسوقي : وفي هذه الاجتماعات ارتفع صوتي بالدعوة الى العروبة ، وكانت النغمة هي « الجارات الشرقيات » ، ومنذ ذلك اليوم انضموا الى الفكرة التي دعوت اليها وكان رئيس الجماعة محمد عـلي علوبة بعد اشتراكه في المؤتمـر الاسلامي الذي عقد في القدس في نفس العام (١٩٣١) .

* * *

يقول عمر الدسوقي :

ومن مكتب السيد محب الدين الخطيب تألفت جمعية الشبان المسلمين ، فقـد تأثرنا لوجود قاعة للشبان المسيحيين ، فلما كلمناه في ذلك : أخـــرج مشروع الدعوة من درج مكتبه . وبدأ عملنـا : محمود الخضري ، محمود شاكر ، عبد السلام هارون ، عبد المنعم خلاف ، عمر الدسوقي . وفعلاً خرجت الى الجمـاهير عام ١٩٢٧ .

ويقول : « في انجلترا نشأت جمعية الوحدة العربية عام ١٩٣٧ وكان من أعضائها الدكتور عبد الرحمن البزاز ، والدكتور عبد العزيز الدوري (العراق) وعيسى نخله في نيويورك ،وكان لي منبراً في (هايدبارك) يومي السبت والأحد ، أدعو فيه الى قضية فلسطين ، واخواني من حول المنبر يحموني من سطوة اليهود ، واضطرتنا انجلترا الى التحدث في قضية فلسطين ، فقد جاء الاحتفـال بتتويج جورج السادس ، ودعي الملوك والأمراء ، وانتهزنا الفرصة وأقمنا حفلاً كبيراً في هايدبارك. وفي نادي ألف ليلة وليلة في لندن حيث أعضاء مجلس اللوردات. كانت الدعوة كلها مركزة على قضية فلسطين . والمركز العربي في لندن أيضـاً

أفتتحناه بالحديث عن فلسطين » .

* * *

أما في مجال الكتابة فقد بدأ التأليف باكـــراً في عام ١٩٢٧ ، ألف أول كتاب في التاريخ الاسلامي ولهذا سبب يقول : « كان لدينا مجموعة من الشباب الاندونيسي منهم محمود يونس ، نصر الدين طه ، مختار يحيى عميد كلية الآداب في جامعة جاكرتا اليوم ، أشعروني بالحاجة الى كتاب في التاريخ الاسلامي فألفته ونشره السيد محب الدين الخطيب ، وكان من خير مؤلفاتي رواجاً ، وقد سار في مختلف بلاد العالم الاسلامي . وقد كتبت في مجـلة الهداية الاسلامية (الشيخ خضر حسين) وكان أول بحث عن النظريات العلمية في القـــرآن الكريم ، ثم كتبت فصولاً في مجلة الفتح » .

وبعضها كتبه من لندن أهمها مقالاته تحت عنوان « في مفترق الطرق » . ثم كانت مقالاته في مجلة الرسالة .

ولقد كان لعمر الدسوقي معارك مع أبرز كتاب مصر في فـــترة الثلاثين : العقاد وطه حسين ، يمثل طابع المدرسة الوسطى ، وطابعه كمفكر غير منحـاز لثقافة معينة ، وفي نفس الوقت مرتبط بالثقافة العربية الاسلامية المفتوحـة على الانسانية ، لقد درس عمر الدسوقي في الغـرب ، ولكن بعد أن أتم ثقافته في مصر ، وغاص في أعماق الثقافة العربية الاسلامية : « اللغة العربية والاسلام ». ومن هنـا كانت « قاعدته الفكرية » سليمة وركائز ثقافته راسية ، ومن هنـا لم تستطع الثقافة الغربية أن تحوله ، كما حولت غيره ، وحمت فكره من الاهتزاز ، فقد استطاع أن يقتبس ويمتص كل ما يريد وطنه وعالمه وفكره قوة وحيـاة . يقول : أفادتني تجربة الدراسة في الغرب (انجلترا) منهجاً ، فقد أخذت بالمنهج العلمي الحديث ، وأفادتني ثقافة لغتين أساسيتين هما الانجليزية والفرنسية مـع إلمام باللغة الالمانية ، لقد أفدت اللغة وأفدت المنهج ..

وإذا كان الحديث عن اللغات الحية ، فقد تعمق عمر الدسوقي في مقـــارنة

اللغات السامية ، فدرس الحبشية والحميرية والعبرية والسريانية .

ومن ناحية أخرى نرى عمر الدسوقي مؤمناً بالالتقاء الطبيعي والارتباط بين العروبة والاسلام ، وقد كون نظريته تلك منذ وقت باكر ، وزادته الايام إيماناً بها ، لخص ذلك في كلمته الواضحة الدلالة :

« الاسلام روح والعرب جسم »

يقول : « تفسير القومية العربية ، شعور كل فرد عربي أياً كان مكانه بانتمائه الى أمة واحدة هي الأمة العربية ، ولما كان الاسلام في شعائره وعقيدته يوحد مشاعر المسلمين ، ولما كان المسلمون في الوطن العربي يكونون ٩٦ ٪ من مجموع سكانه ، كان الاسلام عاملاً من أهم العوامل في توحيد هذا الشعور بالوحدة العربية . ثم إن العروبة مرتبطة بالاسلام ارتباط لغة وارتباط تراث ، ولا أنظر الى الاسلام على انه شعائر فحسب ، وإنما هو إطار حضاري ضم هذه المنطقة وصبغها بصبغته سواء من كان فيها مسلماً أو غير مسلم ، فوحدّهم تاريخياً وثقافياً وأدبياً ، فلولا الاسلام ما كانت هذه الحضارة ولذلك أعده من أقوى العوامل التي تؤدي إلى نمو القومية العربية في نفوس الناس ، ولا عروبة بغير إسلام ولا إسلام بغير عروبة » .

* * *

ومن أجل هذه المفاهيم اختلف عمر الدسوقي مع ساطع الحصري ، الذي يرى القومية العربية منفصلة عن التراث العربي الاسلامي كأساس الوحدة الفكرية للأمة العربية .

أما خلافه مع طه حسين والعقاد فهو مرتبط بقضايا الأدب والنقد ، وعنده أن طه حسين يحكّم الهوى في القضايا الأدبية وبدون تعليل ، ومصدر خلافه مع طه حسين على حد قوله « أنه رجل لا يثبت على رأي » .

أما العقاد فقد كان للدسوقي معه مواقف ربما هي التي جعلته سيء الرأي فيه ، ومما يروى من ذلك موقفه يوم كان مشرفاً على مجلة البلاغ الاسبوعي ، وصادر نشر بعض كتابات له ولغيره من شباب دار العلوم ، وأجرى شطب السطور بالقلم الاحمر الذي كان العقاد معروفاً باستعماله في مختلف كتاباته ، فلما اعترض عمر الدسوقي ، قال العقاد كلمة بلغ فيها غاية الاندفاع ، حين أعلن من باب التحدي في الأغلب ، أنه قادر على إجراء القلم الأحمر في أي كتاب ، ولو كان من الكتب المقدسة .

* * *

ولا شك من خلال أربعين عاماً في مجال العمل الأدبي والفكري : مربياً ومحاضراً وخطيباً وكاتباً ومؤلفاً ورحالة ، تكونت لعمر الدسوقي تجربة الكاتب وتجربة المعلم ، وأبرز معالم هذه التجربة الإيمان بالأصالة والقيم الأساسية لفكرنا العربي الاسلامي .

وعنده أن الأديب بطبيعته « ملتزم » ، إذ أن الغاية من الأدب هي دفع الانسانية دفعاً حميداً في درج الرقي والسمو بالغرائز . والعاطفة الانسانية وإعطاء العصارات الفكرية والتجارب القومية كانت من الضروري أن يكون الأديب ملتزماً ، بمعنى أنه يرمي الى هذه الأغراض السامية سواء تأثر بها الفرد أو تأثر بها المجموع .

ويرى عمر الدسوقي أن المذاهب الأدبية لاتستورد ، وأنها تقوم في الأمم نتيجة عوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية ، تولد حالة نفسية عند أمة من الأمم ، يحاول الأدباء التعبير عنها ، فيجد أدبهم صدى ، يقول : « وفي رأيي أن الأدب يجب أن ينبع من الداخل لا من الخارج ، ولا بأس من اتخاذ القوالب التجديدية عند الغرب ، ولا شك هناك تراث عالمي عام من الممكن أن نفيد منه ، ونطعّم به أدبنا كما فعل شكسبير حين استوحى الأدب اليوناني والروماني والأساطير

الغربية ، وعندئذ نكون قد أفدنا لأدبنا دون ان نمسخه مسخاً فيأتي لا هو بالشرقي ولا بالغربي »

* * *

وعمر الدسوقي بعد هذا كله شاعر بدأ به فجر حياته ، ثم عاد اليه في السنوات الأخيرة ، ولعل إقامته في « بني غازي » قد هز في نفسه هذه العاطفة ، ولعله قد نظم شعره تحت تأثير بعض المشاعر النفسية التي لا سبيل الى تصويرها بالنثر . ومن ذلك قصيدته التي نظمها تحت تأثير تخلفه عن حضور مؤتمر عن أدب البطولة . وهو أول من ألف عن الفتوة عند العرب ، فلما سئل في ذلك قالوا له : « لو كنت أقل فضلا مما أنت عليه لتصدرت » ، قال عمر الدسوقي : « إذن ، فالفضل في هذ الزمان يحجب صاحبه » ..

ثم قال :

قلبي عرته اكتئابة — لم أدر ماذا أصابه
قد عاش دهراً خالياً — لم يطرق الهم بابه
دنياه كانت كفاحاً — للمجد شد ركابه
يطوي الحزون اليه — ويستقل هضابه
إن آذه الناس حقداً — وحدد الشر نابه
ألفيته في تسام — لبس الصغار نصابه
يمر هوناً عليهم — كما تمر السحابه
وكلما شام مجداً — أذكى الكفاح حرابه
لكن دنياه قامت — بالزيف فيها عصابه
سلاحهم كلمات — معسولة كذابه
والنابهون تواروا — في كبرياء مصابه
لكن عزمي باق — يحكي الحديد صلابه
وطنت قلبي ألا — يأس لما قد أصابه

سيعرف الحق يومـاً فضلي ويطرق بابه

* * *

ولا شك هذه الثروة الضخمة من التراث الأدبي في مجال النقد والشعر والأدب والتراجم ، إنمـا تصدر عن ذلك العقل المنوع الذي أُتيح له أن يـلم بالدراسات الأزهرية والدرعمية والأوروبية ، فقد بدأ حياته في « الكتـّاب » ، ولم يلبث أن هرب منه لمنظر « الفلقة » واستطاع أن يحفظ القرآن في ستة أشهـر ، كما حفظ مجموعات من الشعر : لامية العرب ، ولامية العجم ، وألفية ابن مـالك ، حفظ ذلك في بيته ودخل الأزهر تواً دون أن يمر على (الكتـّاب) ولكنه لم يستقر في الأزهر أكثر من عام ونصف عام ..

كان منهج التعليم فيه قد أزعجه ، وفي نفس هـذا العام سنة ١٩٢٢ افتتحت تجهيزية دار العلوم فأسرع اليها ، وكان من رفقائه : عبد المنعم خلاف وعبد السلام هارون ... يقول : « فأنا أزهري مثل جـدي ، ودرعمي مثل والدي » . نشأ في جو العلم والفقه ، فقد كان جده الشيخ الدسوقي العربي من علماء الأزهر ، وهو الذي أسقط طه حسين في شهادة العالمية ، وقد تفتح في شبابه على مكتبة جـده ووالده ، وقرأ في مطالع حياته في كتب العلم العميق ، فقرأ الخصائص لابن جني وكتب المالكية وكان يقرأ في جلسات تطول حتى تبلغ الثماني ساعات .

ولا شك كانت حياة عمر الدسوقي ولا تزال ، صورة للايمان بالثقافة والفكر والعمل الدائب ، الذي لا يتوقف في سبيل العربية والعروبة والاسلام .

● عمر الدسوقي : من مواليد عام ١٩١٠ ، ومن أبرز أعلام دار العلوم . تعـلم في لندن ومصر ودرّس في بيروت وليبيا ومصر .

من مؤلفاته : في الأدب الحديث ، المسرحية : نشأتها وأصولهـا ، دراسات أدبية ، اخوان الصفا ، النابغة الذبياني ، الفتوة عند العرب ، الوان من ثقافات الشعوب (ترجمة بالاشتراك) ، الاشـتراكية والاسـلام ، محمود سامي البارودي ، خريدة القصر وجريدة العصر للأصفهاني (تحقيق) الخ .

(١٨)

عبد العزيز الدسوقي
نقد الشعر العربي الحديث

أثار صدور كتاب (جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث) دوياً وضجة ، ربما لم يكن أحد يتوقع حدوثها لبعد الشقة بيننا وبين قيام هذه الجماعة منذ ربع قرن . ولكن مهما كانت هذه الجماعة المنوعة الأغراض في فنون الشعر ، والتي جمعها رائد قوي الشخصية ، عرف بالبراعة واللباقة والقدرة على كسب صداقات المريدين والشعراء في محيط الشعر ، هو الدكتور أحمد زكي أبو شادي . مهما كانت هذه الجماعة قد طوت لواءها ، فإن روادها ما زالوا أحياء ، ينتجون وينظمون ، وان تكن هذه الجماعة قد قطعت شوطاً في مرحلة الحياة ثلاث سنوات فإنها ما تزال — كمرحلة عريضة في تاريخ أدبنا المعاصر — تؤثر تأثيراً واضحاً في محيط الشعر المعاصر .

وقد استطاع « عبد العزيز الدسوقي » بكتابه أن يرسم صورة عميقة خصبة ، لهذه الفترة القصيرة في عمر الأحداث الأدبية والتاريخية ، البعيدة المدى في تطور الشعر العربي ومضمونه ومدارسه وتياراته المختلفة . فقد استطاعت جماعة أبولو أن تجمع هذه المدارس والتيارات في محيط واحد ، على الرغم من اختلاف ألوانها

ومذاهبها ، وأن تشكل منها صورة من صور النهضات التاريخية التي يحفل بهـا تاريخ الأدب العربي .

ففي ظل جماعة أبولو ومجلتها ، أتيح لعدد كبير من الشعـــراء أن ينشروا إنتاجهم ويخرجوا دواوينهم الى النور ، فتلمع أسماؤهم ، وبذلك أتيح لكثير من المغمورين أن تنكشف كفاياتهم وتبرز ، وتأخذ مكانها في مجـــرى ذلك النهر الشعري الممتد الحافل بالحياة والتطور .

ولم يقف عمل عبد العزيز الدسوقي عند جماعة أبولو وحدها ، كما يبـــدو من عنوان مؤلفه الضخم ، الذي هو في الأصل رسالة الماجستير في معهد الدراسات العربية بالقاهرة . وإنما أفرغ المؤلف الذي هو في الأصل شاعر أيضـاً له لون ومذهب وطريقة ، أفرغ خلاصة دراساته للشعر العربي المعـــاصر ، منذ فجر نهضته المسماة بحركة البعث بزعامة (محمود سامي البارودي) ، ثم تعرض لميـلاد شعر شوقي وحافظ باعتبارهما أكبر رواد هذه المدرسة .

وتدرج الى بحث حركة التجديد في تيارها الموضوعي ، الذي قـاده خليل مطران ، وفي تيارها الذاتي الذي قاده شكري والعقاد والمازني وهو الفـــريق المسمى بجماعة الديوان ، وفي تيارها الروماني الذي قـــاده شعراء المهجر .. ثم خلص من ذلك الى حركة أبولو .. فتوسع في عرضها .

ولعل أبرز ما يلفت النظر في هـــذه الدراسة الجامعة ، موقف الكاتب من خليل مطران ومن زكي أبو شادي .

فالدسوقي يرى أن خليل مطران من أوائل دعاة التجديد في الشعر العـربي الحديث ، ولأن أبو شادي صاحب جماعة أبولو قد اعترف صراحة بأنه تـــأثر بخليل مطران ، كما تأثر به علي محمود طه وناجي. ولكنه يقرر أن خليل مطران ليس قائد حركة التجديد التي ظهرت في الشعر العـربي المعاصر ، والتي تبلورت في حركة الديوان ، وجماعة أبولو ، وفي حركة شعر المهجـــر . وأن الذي أثر

تأثيراً مباشراً في حركة التجديد هذه إنما هي جماعة الديوان ، ممثلة في شعر عبد الرحمن شكري وتعاليم وأبحاث عباس العقاد وابراهيم المازني .

ويرى أن هذه الجماعة هي التي حملت راية التجديد في مطلع القرن العشرين ، ووقفت في وجه الحركة التقليدية العاتية ، التي كانت تحتل المكان الأول في الأمة العربية ، بقوة موسيقاها وجمال صياغتها .

وهو في هذا يخالف غالبية النقاد ومؤرخي الادب ، الذين يجمعون على أن مطران هو قائد حركة التجديد في الشعر العربي المعاصر . ويرى أن السبب الذي دعا الى أن يردد النقاد هذا الرأي ، هو دماثة خلق مطران ولين جانبه ، وأصالته النفسية . ويرى أن التطاحن بين الأدباء والشعراء ، والصراع الذي وصل الى درجة التنابذ والاقتتال الحاد العنيف ، هو الذي جعل النقاد والشعراء الجدد يلوذون بكنف مطران الرقيق المهذب ، يعقدون له لواء التجديد ، نائين بأنفسهم عن ضراوة القتال بين شوقي والعقاد والمازني وشكري . ويحاول الكاتب أن يؤكد نقضه لزعامة مطران فيقول : أن مطران عاش في مصر على الحياد بين التيارات السياسية والاجتماعية المتلاطمة ليرضي الجميع . وأنه لم يستجب لظروف الحياة السياسية والاجتماعية كما استجاب لها شكري والعقاد والمازني ، فوقف عند حد محدود استوحاه من ثقافته وطبيعة نفسه وظروف حياته . وأنه ظل حذراً في تجديده ولم يحاول الخروج دفعة واحدة على تعاليم الحركة التقليدية ، ولم يحاول أن يفاجىء السليقة العربية في صراحة وجرأة .

وعندي أن مطران رائد من رواد التجديد لا شك في ذلك ، وقد تأثر به زعيم مدرسة أبولو وبعض شعرائها ، وأنه بدأ دعوته قبل أن تبدأ جماعة الديوان التي مكنها العمل في الصحافة والسيطرة على النشر ، من إذاعة آرائها ، وتوسيع نطاق دعوتها .

ويمكن القول بأن مطران الرائد المجدد لم يكن قائد حركة لها صحيفة أو ناد أو جماعة ، تفرض رأيها بالكتابة والخطابة ودعوة الشعراء وكسب الأنصار ،

وهذا هو الفارق بين خليل مطران من ناحية ، وبين جماعة الديوان وجماعة أبولو من ناحية أخرى .

أما أبو شادي رأس مدرسة أبولو ، فإن الدسوقي يقول : « بأن أحـــداث حياته قضت بأن يظل قلقاً مضطرب النفس والأعصاب ، لا يستقر عنـد شيء ولهذا أصيب باضطراب في عملية الخلق الشعري . تقرأ قصيدته فتجد فيها المعاني الجديدة والألفاظ الجميلة ، ولكن تشعر بأن هناك شيء ينقصها ، هذا الشيء هو جوهر الشعر الذي يكسبها الإنفعال العميق والقدرة على التـأثير ، وقد تكون سرعته هي التي تجعله يخرج تجاربه في عجلة دون أن يحتضنها ، وقـد يكون اضطرابه العصبي قد أفقده التركـــيز الفني ، والإحساس المرهف الذي يدرك النسب الدقيقة ، والعلاقات الخفية بين الألفاظ والمعاني، وهذا هو العيب الرئيسي في شعره ، الذي جعل بعض تراكيبه الشعرية قلقة مستوفزة ، تحس أنها في غـير موضعها ، وأنه يضطر أحياناً الى حشد بعض الألفاظ لا تتلاءم مع الصورة التي يرسمها ، كما يضع كلمة تقتضيها القافية دون أن يكون لها محل ، فتفقد البيت كله الحرارة والإيحاء ، وأنه يتبع كل الرخص اللغوية ، وأحياناً يخرج عن قواعـد اللغة دون داع فني » . ولكنه يرى أن هذه العيوب لا تغض من قيمة أبو شادي ومنزلته الشعرية ، كرائد من رواد التجديد تجمعت له الثقـــافة النقدية الواسعة والمقدرة الشعرية .

« وعندي أن أبو شادي زعيم حركة أكثر منه شاعر . وأنه ناقـــد رقيق اللفظ والعبارة في النثر بما يفوق مكانته كشاعر .. وأعتقد أن دراسة أبو شادي الناثر ، لو أتيحت لباحث لكانت أبعد أثراً في حياة الفكر العربي الحديث من دراسة شعره ، فهي الجانب الضخم الخفي الجدير بالتقدير » .

ولقـــد كانت دراسة جماعة أبولو كفيلة بأن تكون دراسة للشعر العربي المعاصر كله . فـإن شعراء مصر والأمة العربية قد التقوا جميعـاً في ورد هذه المجلة الشعرية الاولى التي أطلق عليهـا زعيم الجمـاعة اسم إلهة الشعر والحكمـــة

اليونانية . فشعراؤنا المعاصرون اليوم كانوا جميعاً ينشرون آثارهم في هـذه المجلة على اختلاف مذاهبهم بين موضوعية وذاتية. وتباين نزعاتهم بين عاطفية وتأملية ووصفية واجتماعية وإنسانية .

وقد امتد رواق الجماعة الى تونس والسودان وفلسطين والمهجر والعـراق ، فنشرت لعدد من شعراء هذه الأقطار ونشرت شعر ابو القـاسم الشابي وعرّفت به لأول مرة ..

وقد شملت الدراسة عرضاً لحياة وآراء ونماذج لأكثر من مـائة شاعر ، حتى ليمكن القول بأن هذه الدراسة تعد مبحثاً متكاملاً للشعر العـربي الحديث ، ومرجعـاً كاملاً لكل تيارات الحصـاد الشعري ، والنقد الشعري ، وأساليبه وفنونه ومدارسه ، خلال فترة نصف قرن كامل . فما من شاعر إلا وقـد ورد اسمه ونموذج من شعره في تيار من هذه التيارات . وما من بحث عن الشعر أو نقد له الا وقد عرض له المؤلف في مجال دراسته الواسعة المتشعبة، التي امتدت أربـع سنوات من حياة كاتبها ، وليس ينقص من قدر هذه الدراسة أنهـا كانت رسالة جـامعية أو أطروحة ماجستير ، فـإنه مهما تكن نظم الرسائل مقيـدة لرأي الكاتب ضمن إطار معين ، أو تحت إشراف رقابة محدودة . فإن رسالة الدسوقي قد تميزت بالجرأة والوضوح والصراحة .

ولعل السر فيما تلقـاه هذه الدراسة من اعتبار، أنهـــا ليست العمل الأول لكاتبها ، الذي أسهم في الدراسات والأبحاث الأدبية والعمل الصحفي ، منـذ أكثر من خمسة عشر عاماً ، بإنتاج منوع في المقالة السياسية والأدبية ، وأبحاث القومية العربية ، وبحصاد ديوانين من الشعر . ولا شك أن عبد العزيز الدسوقي هو واحد من رعيل الشعراء الذي تأثر بمدرسة أبولو وجاء من بعدهـا ، ورغم هذا فإن أحكامه قد تميزت بالانصاف والصراحة والبعد عن المجاملة .

وممـا يتصل بهذا أن المؤلف شاب في مستهل العقد الرابع من عمره ، بـدأ دراسته في الأزهر حتى حصل على أعلى درجاته . واتصل خلال ذلك بالبيئات

الوطنية التي كانت تعمل قبـل ثورة ١٩٥٢ المصرية العربية لتحرير مصر ، وكان في نفس الخط الذي يؤمن بالقوميـة العربية وأمجـاد الأمـة العربية ، كما اتصل بالثقافة العربية عن طريق دراسته الجامعية في معهد الدراسات، وقراءاته المتصلة، وقد أعانه هذا على أن يكون واحداً من المدرسة الوسطى ، التي تؤمن بالبناء على الأساس ، والتي تفتح النوافذ للثقافات المختلفة ، لنأخذ منها ما يزيد شخصيتنـا العربية الواضحة الملامح قوة وحياة وأصالة ، بحيث تلحق دائماً بركب الحضارة ، دون أن تضيع في موكبهـا الضخم . ولذلك فهو قد اتجـه الى أساليب الأدب الغربي ومذاهبه ، فأوغل في دراستها بالاضافة الى أصالته في الثقـافة العربية وأبحاث اللغة وعلوم اللسان ، حتى تكوّن له ذلك المزاج الثقافي ، الذي قلّ أن يتوفر للباحثين الذين هم إما غربيون خالصون أو محافظون مسرفون . ممـا أتاح له أن يقف من تراثنا الفكري الحديث والقـديم موقف النقد والمراجعة ، وفق منهج علمي واضح المعالم ، فيه جرأة الشباب ، وعمق النزعة الأزهرية ، ووضوح الاتجاه الفكري المعاصر .

● عبد العزيز الدسوقي : من خريجي الأزهر الشريف، ماجستير من معهد الدراسات العربية

من مؤلفاته : المؤتمر الوطني للقوى الشعبية ، إقرار الميثاق والتنظيم الشعبي . (أحمد حسين – ١٩٥١) ، فجر العرب ، الأمة العربية وجيشها الموحد ، جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث ١٩٦٠ .

(١٩)

عبد الله كنون
تراجم أعلام المغرب

ما يزال المغرب الكبير يزحف في قوة نافذة لتعويض ما فاته طوال السنوات الماضية في ظل النفوذ الأجنبي ، وليستعيد مكانه مع جناح المشرق العربي في عالم الفكر والآداب والثقافة على نحو واضح حقاً ، مثير حقاً ، فالمطابع في القاهرة وبيروت وتونس والرباط وطرابلس والجزائر مشغولة دائماً في هذه الأيام بهذا النتاج الثري القوي ، وأسماء عبدالله كنون ومحمد علي دبوز وأبو القاسم كرو وعلي المصراتي في الأقطار الأربعة : المغرب والجزائر وتونس وليبيا ، وعشرات أخرى من الأسماء تلمع وتزداد قوة ، ولا تتوقف عن تقديم الجديد في مجال الكشف عن التراث القديم ، والأثر الخفي وتحليل جوانب التاريخ ، وابراز مجد الأمة ، ورسم صور البطولات العربية الاسلامية التي برزت خلال العصور ، وتغطية جوانب النقص في مجالات الفكر والتاريخ والآداب على نحو يلفت النظر حقاً ، ويستدعي التقدير والاعجاب ، ويفرض على الباحث الناقد أن يرقب الظاهرة الجديدة لدرسها والمضي معها. ولست حين أذكر هؤلاء الأعلام الأربعة، أقف عندهم ، ففي هذه الأقطار أعلام كثيرون وكتاب ونقاد ومؤرخون ،

ولكني أجد في هؤلاء العمل المتصل بحيث لا تنسى أسماؤهم ، وبحيث يتجدد الكلام دائماً عن آثارهم ، وبما يمثلونه من طابع واضح الاتجاه نحو الكشف عن الجوانب الغامضة وإبراز الزوايا المجهولة وإحياء القطاعات التي طال عليها الأمد.

* * *

والأستاذ العلاّمة «عبدالله كنون» اسم لامع في المشرق والمغرب جميعاً، وله في المشرق مكانة كبرى ، فقد طوّف به واتصل بمعاهده وأعلامه ومفكريه ، وانتسب الى مجمعيه العظيمين في دمشق والقاهرة، وطبع مؤلفاته في بيروت، وهو ما يزال منذ أكثر من ثلاثين عاماً يسهم مساهمة فعالة في نشر الثقافة العربية على نحو رصين ، قوامه الفهم الصادق والتقدير العميق لقضايا الإحياء والترجمة والنقل والاقتباس من الفكر الانساني ، على قاعدة مبسوطة ثابتة من الثقافة العربية الأساسية، ومع إيمان كامل بشخصيتنا أساساً وبكل مقوماتها،ولعل هذا «الوجه الأول» الذي التقينا به على صفحات الرسالة منذ عشرين عاماً، يكشف لنا تراث المغرب وأقطاره وأعلامه ، ولم يحل النفوذ الأجنبي يومها دون أن يكتب وينشر وتصادر كتبه ، ويوالي عمله في مجالات واسعة ، مواجهاً مختلف التحديات ، في وقت كان النفوذ الأجنبي يصنع بيننا وبين هذا الجزء من أمتنا العربية ستاراً كثيفاً ، فكانت أبحاثه أنواراً كاشفة ، وكان ارتباط (طنجة) بالقاهرة عن طريق (الرسالة) جزء من الدعوة العربية للوحدة والحرية . ولعله بهذا يسجل فضل السبق في عملية ربط المغرب بالمشرق ، وتعريف المشرق الى المغرب سائراً في ذلك على هدي صفوة من الأعلام أمثال عبد العزيز الثعالبي ، ومحمد بيرم الخامس ، وعلال الفاسي والبشير الإبراهيمي .

وهو يرى أن رسالة الأدب العربي رسالة خالدة ، يجب أن لا تقتصر على الأغراض اللفظية ، ولا على المتعة الذهنية ، ولا على المعاني الذاتية ، التي لا يشعر بها إلا الأديب المتكلم عن نفسه ، ومهمته الهدم والبناء والعمل الجماعي المؤدي

الى الغاية ، وغايته فتح الآذان الصم والأعين العمي والقلوب الغلف . وقد وجه نفسه منذ شبابه الى ميادين ثلاثة :

أولاً : التمهيد والتمكين للغة الضاد وآدابها ، خشية أن تجرفهـــا الرطانات الأجنبية .

ثانياً : الكشف عن ذخائر التراث القديم من آداب وعلوم وجوانب باهـرة ويمثل ذلك في كتابه « النبوغ المغربي » .

ثالثاً : دراسة أعلام المغرب ، الذين كانوا ذوي أثر باهر في الحضارة العربية.

وفي هذا المجال الأخير يبدو عمله الكبير (ذكريات مشاهير رجال المغرب)، وهي حلقات صغيرة منفصلة ، يتناول كل منهـا شخصية ، وقد أصدر منه ٢٥ جزءاً ، ثم توقف خمس سنوات ، وعاد في العام الماضي الى إصدار أجزاء جديدة في طباعة بيروت الأنيقة ، وقد تناولت هذه الدراسات من المعروفين في المشرق أمثال : الشريف الإدريسي ، وابن بطوطة . ومن الذين نتعرف اليهم أمثـال : عبد العزيز القشتالي ، وأبو القاسم الزياني ، ومحمد بن ادريس ، ومحمد السنوسي ، وبو جعفر بن عطية ، وأبو العباس الجرادي ، وميمون الخطـــابي ، ومالك بن المرحل ، وعبد العزيز الملزوزي ، والأمير سليمان الموحد، وعثمان السلالجي، وابن غازي وابن زاكور، وابن الطبيب العلمي، وابن الونان، وابو عبدوس المكناسي، وأبو بكر ابن شيرين ، وابن رشيد ، وأبو موسى الجزولي ، وابن جروم ، وأبو القاسم الشريف ، وابو الحاج الفاسي ، وأحمد زروق ، وعبد المهيمن الحضرمي ، وأبو العباس العزقي .

ولهؤلاء الأعلام تاريخ باهر وعمل كبير في حياة المغرب الثقافية والحضارية.. وقد كانت أسماؤهم مدفونة في الأضابير . ولا يعرف عنهم النـاس الا القليل ، فأراد « كنون » أن يذيعهم ويطلع الناس على فضلهم ، كجزء من خطة ضخمة في سبيل الإحياء الأدبي والثقافي للتراث العربي الإسلامي .

وقد وصف هذه الشخصيات بأنها « الشخصيات التي كان لها أثر محسوس في هذا الصراع الحيوي ، والتي فازت بإكليل الغار فبقي ذكرها محفوظاً في الدفاتر وإن محي من صدور الناس الا قليلاً من قليل » . وتعتبر هذه الدراسات تكملة لعمله في كتاب النبوغ المغربي ، الذي قدم فيه طائفة من أعلام الأدب المغربي العربي ، يقول: « وبعد كتابة (النبوغ) بقيت في النفس حاجات متعلقة بتراجم الأشخاص المذكورين فيه ، خصوصاً المشهورين منهم ، والذين يوحي تتبع تراجمهم بمعاني من السمو النفسي والفخر الأدبي » .

وهو لا يعد هذه الدراسة القصيرة ، تراجم علمية لهؤلاء الاشخاص قائمة على التحليل ، ومستوفية الأغراض الواجبة ، « لان المصادر تعوزنا كثيراً ، وما جمعنا من الأخبار والآثار على كونه أكثر مما جمعه أي ديوان عن هؤلاء الأفراد ، ومنهم من لم يكن أحد يعرف أنه مغربي أصلاوأنه لا يكفي لكتابة ترجمة حياة لواحد منهم ، ولهذا دعونا الكتاب (ذكريات مشهوري المغرب) ، ولم ندعه (تراجم) على سلاسة العبارة ، وطلاوة الأسلوب ، وحرارة النكتة ، واستثارة روح الإعجاب ، مع الأمانة والصدق ، وعدم الغلو في مدح أو تقدير شيء من الأشياء » . وهذه (الذكريات) طبقات مختلفة : منها أهل الأدب ، ورجال العلم والسياسة ، وقد رتب أسماءها على العصور ، ثم على التقدمية ، وتناول فيه أشهر المشهورين ، والشهرة عنده هي : « شهرة المرء في عصره بالصفة التي ميزته عن غيره ، لا شهرته عندنا . فقد يكون الشخص غير معروف عندنا بالمرة ، ونذكره ، وبالعكس قد يكون مشهوراً لدينا ولا يستحق الذكر هنا ، لتخلف الموازين في عصرنا عنها في العصور السابقة ، بسبب ضعف ملكة النقد ومرض الذوق وقعود الناس عن التحصيل » . ولا شك أن هذه الموسوعة جديرة بالتقدير حقاً ، ككل أعمال السيد عبد الله كنون ، هذه الأعمال التي نالت تقدير المفكرين وكبار المنصفين ، وآية ذلك رأي أمير البيان « شكيب أرسلان » حين قال عن كتابه النبوغ : « كنت أعهد نفسي من المشارقة الرجل الذي اطلع أكثر من غيره على تاريخ المغرب وأهله ، وأنعم النظر فيما يتعلق بثقافته وسياسته

وسائر شئونه ، ولكني رأيت نفسي بعد أن طالعت هذا الكتاب كأني لم أعلم عن المغرب قليلا ولا كثيراً ، وكدت أقول أن من لم يطلع على هذا الكتاب لا حق له أن يدعي في تاريخ المغرب الأدبي علماً ، ولا أن يصدر في حركاته الفكرية حكماً » .

وعبدالله كنون مؤمن إيماناً صادقاً بالأمة العربية وبالمغرب وكفاحه « كأحد الشعوب العربية الاسلامية ، التي أثلت مجداً وحضارة ، وضربت بسهم وافر فائز في ميدان العلم والسياسة ، ثم تعدّت به الجدود العوائر في مجاراة الاحياء وسنن الكون ، فوجب تنبيهه الى ما كان له من عز وكمال ، ونفخ روح الحفاظ والحمية فيه . وقد بذل المغرب جهداً في سبيل إثبات شخصيته والمحافظة على كيانه امام المؤثرات القوية التي حاولت مراراً أن تمحوه من صحيفة الوجود »..

ويتحدث عبدالله كنون عن تطور فكره فيقول : أنه لا يستنكف أن يصرح بأنه — أي نفسه — أعد إعداداً ليكون من الفقهاء الذين يحكمون ويفتون، ولذلك فهو قد جعل من قول القاضي شعبه نبراساً له « كل علم ليس فيه حدثنا وأخبرنا فهو خل وبقل » يقول : « ما عالجناه منذ فجر النهضة التعليمية بهذا الوطن العزيز كان (التمهيد) والتمكين للغة الضاد وآدابها ، خشية أن تجرفها الرطانات الأجنبية المختلفة ، وأسجل أن دراساتي الفقهية والحديثية قد أفادتني كثيراً من الناحية الأدبية ، وأني لاحظت مآخذ كثيرة على آثار بعض الأدباء ، إنما جائتهم من عدم إلمامهم بشيء من تلك الدراسات » .

وهو من المؤمنين باللغة العربية « التي تتسع اليوم لكل الأفكار الحديثة من فلسفية واجتماعية وعلمية وفنية تؤديها بكل وضوح » . وقد تأثر بكتابات عبد الحميد بن باديس التي وصفها بأنها.« كان لها كبير الأثر في توجيهي وإنارة الطريق أمامي الى كثير من الخير » . ويرى أن مؤلفات محمد عبده ، وفريد وجدي ، ورشيد رضا ، ومصطفى الغلاييني ، ورفيق العظم ، وكرد علي ، كان لها نفس الأثر .

وقد وجه نفسه منذ مطالع شبابه الى دراسة الجوانب الغامضة والمهملة من

من تاريخ الأندلس والمغرب ، وتحليل الشخصيات التي كان لها أثر واضح في أدب المغرب، كما اهتم بالأبحاث اللغوية ، والعامية المغربية ، وجامعة القرويين ، وكتب عن أثر محمد عبده والكواكبي وأحمد زكي باشا والرافعي والمتنبي ، كما كتب عن تحرير المرأة ودعا الى تعليمها ، وعني بالتصحيحات اللغوية ، وإحياء الكلمات ، وتحقيق الوقائع التاريخية ، كما تحدث عن المخطوطات العربية والكتب المنسوبة لغير أصحابها ..

وبالجملة فإن فضل عبدالله كنون على الأدب العربي المعاصر واضح جلي ، وان أعماله الأدبية والفكرية : (خل وبقل ، التعاشيب ، واحة الفكر) هي مجموعة من المقالات المنوعة تناولت عديداً من الدراسات الأدبية . وله كتاب (التحقيقات) الذي أعلن عنه منذ وقت طويل ، ولم يصدر بعد ، وقد درس فيه مجموعة أخرى من أعلام المغرب، غير التي قدمها في كتابه الضخم (النبوغ)، وموسوعة الذكريات، والأمل أن يصدر قريباً ليستكمل حلقة هذا العمل الكبير النافع .

● عبدالله كنون : أمين عام جمعية العلماء بالمغرب .

من مؤلفاته في دار الكتب المصرية : النبوغ المغربي ، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب ، ديوان ملك غرناطة (تحقيق)، رسائل سعدية ، مفاهيم إسلامية ، واحة الفكر ، مدخل الى تاريخ المغرب ، من أدبنا الشعبي، التعاشيب ، خل وبقل .

(٢٠)

عز الدين الأمين
دراسات النقد الأدبي

تعددت الأبحاث والدراسات التي تتناول فن النقد الأدبي الحديث ، غير أن تاريخ نشأة هذا الفن وتطوره لم تكن موضع دراسة مطولة مستقلة ، حتى كتب الأستاذ عز الدين الأمين كتابه الذي ألقى فيه الأضواء على تطور النقد في الأدب العربي المصري ، منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي الى نهاية الربع الأول من القرن العشرين (١٩٢٥ تقريباً) .

ويرى المؤلف أن هذه الفترة كافية لتحديد أسس النقد الحديث عند نشأته في مرحلتيه ، (١) المرحلة الاولى : وهي النقد القديم ، كما يتمثل عند حسين المرصفي، وحمزة فتح الله ، ومحمد المويلحي ، وسيد المرصفي(٢) المرحلة الثانية : عندما نشأ النقد الحديث ، ممثلاً في كتابات الرافعي ، ونلينو ، والعقـــاد ، والمازني ، وطه حسين ، وهيكل ، وزكي مبارك ، وأحمد ضيف .

وقد قصد المؤلف الى أن يكشف عن نشأة فن النقد وميلاده في العالم العربي . وعنده أن بيان هذه المقاييس الأولى من شأنه أن يهدي الأدباء المثقفين ، بما يرسم لهم من أصول وقواعد ، ينبغي أن يتنبهوا لها حين ينشئون أو ينقدون.

ومنها أن تاريخ الأدب ينتفع بتاريخ النقد نفسه ، إذ أن النقد وسيلة من وسائل التاريخ الأدبي وتطور فنونه . وكذلك بيان قيمة كل من شارك في بنـــاء هذا الصرح الضخم من فن النقد الحديث . وكذلك الموازنة بين النقد القديم كما انتهى في مطلع القرن العشرين ، وبين هذا النقد الحديث ، وكيف اختلفت الاتجاهات والوسائل ، إذ همـا عصران متمايزان يمثلان فترتين من فترات الحضارة العقلية والشعورية والجمالية .

والمؤلف عز الدين الأمين من ألمع الشباب السوداني المثقف ، الذي يلي اليوم عملا متصدراً قوي الدلالة في النهضة الأدبية السودانية ، فهو رئيس جماعة الأدب المتجدد في مؤتمر الخريجين ، وهو من المؤمنين بوحدة الأدب العربي في العالم العربي . وقد أتاح كتابه هذا أن يكشف الطريق أمام جوانب كثيرة من فنون الدراسة الأدبية المعاصرة . وهو يستخلص من بحثـه أن النقد الأدبي الحديث قد اتجه في جملته نحو النقد الغربي ، وخاصة النقـد الإنجليزى والنقد الفرنسي ، فأصبح لا يقيس الأدب من ناحية عامة الا بتلك المقاييس الغربية .

وعنده أن هذه المقاييس الغربية لا يجوز الأخـــذ بها على اطلاقها ، نظراً لاختلاف طبيعة أدبنا العربي عن هذه الآداب . وعنده أن التقليد المسرف للنقد الغربي لا شك يضعف اللغة العربية ، ويضعف أدبها ، وإن كان نقدنا قد استفاد من النقد الأجنبي كثيراً من هذه المباحث ، في الخيـــال ، والعاطفة ، ودراسة الشخصية ، والبيئة ، والعصر ، ووحدة القصيدة . وقـــد كان هذا التطور في النقد واضحاً ، بعد أن كان النقد القديم يعتمد على وحـــدة البيت ويجتزىء الأحكام ويتعجلها ويعممها .

وعنده أن النقاد المحدثين قد ذهبوا في النقد مذهبين رئيسين ، تبعاً لثقافة كل منهما ، سواء كانت ثقافة عربية أم ثقافة غربية ، وجملة القول أن المدرسة القديمة كانت تعنى بالنقد اللغوي ، كما كان يفعل نقاد العرب القدماء ، فتحفل بالصيغ والألفـــاظ والنواحي البلاغية . اما المدرسة الحديثة فتعنى بالتجربة

الشعرية ، والصياغة الفنيه ، وينصب نقدها على الناحية الموضوعية ، وتنتهج نهجاً غريباً في نقدها ، ولا تهمل العناية بالنقد الفقهي .

وجملة القول أن كتاب الأستاذ عز الدين الأمين كان عملاً جديداً نافعاً يعين الباحث في مجال تطور النقد ، والذي نطالب به الكاتب هو أن يواصل دراسته منذ توقف عند عام ١٩٢٥ حتى يصل بها الى مرحلة أوسع ، حيث استكمل هؤلاء النقاد أبحاثهم ، وتطور فن النقد معهم تطوراً له ملامح جديدة .

وحبذا لو عني بدراسات النقد المعاصرين في المراحل الاولى ، كالمعارك التي أثارها طـــه حسين قبل سفره الى أوربا مع المنفلوطي ، وآراء الرافعي ، والمنفلوطي ، وشكيب أرسلان في الشعراء والكتّاب، وهي الآراء التي أثارت ضجة في أول هذا القرن .

وعز الدين الأمين رائد من رواد الأدب العربي المعاصر في السودان ، ورئيس جماعة « الأدب المتجدد » وهو كاتب نابه ، استطاع أن يشق طريقه بقوة في مجال الدراسات الأدبية المعاصرة، فألف عدداً من الأبحاث والكتب والدراسات، اتسمت جميعها بالدقة والأصالة ..

● عز الدين الأمين : الأستاذ بجامعة الخرطوم ، ورئيس جماعة الأدب المتجدد .

من أبرز مؤلفاته : مسائل في النقد ، نظرية الفن المتجـــدد وتطبيقها على الشعر ، نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر .

(٢١)

علي أدهم
الترجمة والدراسات الإنسانية

قلة هؤلاء الكتاب الذين مضوا يشقون طريقهم دون جلبة أو ضوضاء ، أو مشاركة في معارك أو مساجلات ، أو تطلعاً الى شهرة أو مال ، أولئك الذين خطوا لأنفسهم طريقاً عاشوا يعمقونه ، وقدموا الى الفكر العربي خلال أكثر من أربعين عاماً أو يزيد ، حصيلة ضخمة من النتاج الخصيب الثر ، من هذه القلة : « علي أدهم » الرجل الذي أغنى الأدب العربي المعاصر ، بأضواء الفكر الانساني في مختلف نتائجه وفنونه وأعلامه وقضاياه ، حتى ليكاد إنتاجه وحده أن يكوّن موسوعة ضخمة يتوافر لمن يلم بها دراسة واسعة عميقة ، لمختلف تيارات الفكر العالمي المعاصر ، معروضة في أسلوب عربي رصين وعلى نحو علمي دقيق ، وهي خلاصة دراسة متصلة دقيقة لكل ما تصدره المطابع ، أو تتناوله أقلام المفكرين والباحثين، مع سلامة القصد والحيدة في العرض والايمان بمقومات الفكر العربي الأساسية ، وإلمـــام دقيق بالتراث العربي الإسلامي والتاريخ والأدب واللغة ، على نحو لا يستطيع أن ترجح فيه أن المفكر يبدو أشد تبريزاً وأصالة في فكره العربي الذي يقدم له هذا الفكر الانساني ، أم في ذلك الفكر الانساني المنوع الذي يهضمه في يسر ويقدمه في براعة ، دون أن يتحول

معه الى التبعية أو الولاء ، إنما ولاء « علي أدهم » هو لأمته ولفكرها ، إيماناً منه بفتح النوافذ على الثقافات الانسانية ، وإغناء الفكر العربي وإثرائه على قاعدة الاقتناص والاقتباس ، لا التحول والانصهار في الثقافات الأممية .

والذين يعتمدون في دراسة أدب علي أدهم على آثاره المطبوعة ، لا يصلون الى نظرية كاملة عن فكره وأدبه وتطوره . فقد عدت الى بطاقاته في دار الكتب المصرية في القاهرة ، فوجدت له مجموعة من المؤلفات لا تكاد تمثل حقاً آثاره التي قدمهـــا خلال السنوات الطويلة الى المثقفين العرب ، والتي لا تزال مدفونة في بطون الصحف والمجلات .

ولعلي أذكر ان اول ما قرأت عام ١٩٢٠ كان منشوراً في جريدة الدستور التي كان يصدرها العلامة فريـد وجدي ، ومنـــذ الثلاثينات بدأت آثاره تظهر في :

الهلال، الثقافة ، الرابطة الاسلامية ، وفي السنوات الاخيرة في مجلة المجلة ، والكتاب العربي .

ولا أبالغ إذا قلت أن له في الهلال والثقافة ما يزيد على ٥٠٠ مقال . وقد كتب في الثقافة وحدها من (١٩٤٠ — ١٩٥٢) أكثر من ٤٠٠ مقال ، ولم تنسق من هذه المقالات إلا قلة قليلة في مؤلفاته ، وما زال أغلبها لم يحظ بأن يقدم للمثقف العربي .

ومن خلال هذه الحصيلة نستطيع أن نرى « عقل » علي أدهم ، وهو ينطلق من خلال دراسات منوعة ، تتصل بمختلف فنون الفكر الانساني : فالأبطال والبطولة ، والجبرية الاجتماعية ، وإحتمالات التاريخ ، والتراجم الذاتيـــة ، والروايات التاريخية ، وعلاقة التاريخ بالأدب ، والأخلاق بالسياسة ، والقومية، والأممية ، والوحدة الانسانية ، والشك ، وسفر أيوب ، وأفكار غانـدي ، وتولستوي ، والدوس هسكسلي ، وشوبنهاور ، وهيني ، وجيتي ، وكارليل ، وأمرسون ، ودراسة مصـــادر التاريخ الاسلامي ومؤرخيهم ، والنواحي

الانسانية ، وقضايا التاريخ ، وكتب الأدب العربي وكتّابهم وشعرائهم ، كل هذا يلم به علي أدهم في دراسات جادة عقلية ، قائمة على النظرة الذهنية والعلمية ، مما لا يقع تحت حصر ، وما يظلم على أدهم ظلماً كثيراً اذا درست آرائه من خلال بضعة عشر مؤلفاً طبعت له . وندهش لأن تظل هذه الآثار مخبوئة في المجلات دون أن تقدم من جديد الى المثقفين .

ومن عجب أنك اذا أردت أن تبحث حياة (علي أدهم) وفكره ، فأنت لا تستطيع أن تعثر على أثر ذاتي له ، فهو كاتب يواجهك بعقله ، ويعرض عليك عشرات من نظريات الفلسفة والعلم والتاريخ في القديم والجديد ، دون أن يتحدث عن نفسه .

صحيح أن هذه الآراء تعطي صورة نفس الكاتب ، فاتجاهـــات الكاتب ومفاهيمه تظهر حتى من خلال مقتطفاته أو نقوله ، غير أن إنكار الذات بلغ بالعلامة علي أدهم الى حد أن المراجع لكتاباته لا يستطيع أن يحصل من آثاره على طابع حياته أو أفكاره الخاصة ، أما منه هو ، فإن ذلك عسير غاية العسر .

فهو مفكر مؤمن بقلمه وبالفكر الانساني ، يتابع خلال أكثر من خمسين عاماً تطورات العلوم والآداب والثقافة ، ملم بالنزعات والقضايا المختلفة ، قارىء مثابر للإنتاج العالمي ، واسع الأفق ، حر الفكر ، ولكنه مؤمن بأمته وفكرها ، حريص على أن يقدم لهـا زاداً جديداً ، يزيدها قوة ، له قاعدة عريضة هي مقومات الفكر العربي الاسلامي ، الذي هو بطبعه فكر إنساني .

أما دراساتـه في التاريخ الاسلامي والأدب العربي فهي واسعـة ، وله استشهادات دائمة بالشعر والوقائع ، فهو ليس منحازاً ، ولكنه يسكب القديم والجديد في إناء « النهضة » ويذيبه لخلق فكر عربي حديث ، لا ينفصل عن جذوره وتراثه ، ولكنه يستشرف دائماً الجديد والتطور والركب الانساني .

* * *

ولقد استطعت أن أجد بعد البحث الطويل رسالة كتبها « علي أدهم » ووجهها الى أحد تلاميذه ، تحقق رغبتي في النظر الى باطنه والكشف عن أعماقه ، والتعرف اليه معرفة ذاتية بعيداً عن دراساته وأبحاثه ، ومن خلال هذه الرسالة أرى (علي أدهم) الانسان في صفاء روحه ، ولقد أمدته الثقافة بمزيد من الانصقال والتعمق لطوابعه العربية الاسلامية ، وخير ما تمدني به هذه الرسالة أن أكتشف منها تلك العوامل التي وجهت ذلك الرجل الذي يغلب عليه طبعه في إيثار العزلة والانصراف عن أحداث الضجيج أو طلب الشهرة ، مع مثابرة عجيبة في الدراسة والبحث والعمل ، كأنما هذا العمل لذة ذاتيــة له ، ويجري هذا مع رجل عرف الأستاذ العقاد وقرأ له وعُدّ فترة من الزمن من تلاميذه . وهنا يتجلى طابع الاستقلال والذاتية الواضحة في العناصر التي تجمع بينه وبين العقاد ، والعناصر التي يختلفان فيها . فهو من ناحية الدرس والبحث والقراءة والإتصال بالفكر الإنساني ومواصلة متابعة تطوراته الاخرى من الرغبة عن عوامل الشهرة والضجيج ودخول المعارك والتبريز يختلف عنه .

وهذه رسالة « علي أدهم » تلقي ضوءاً على مفاهيمه وترسم فلسفة في الحياة بأوفى مما نجد في عديد من آثاره مفرقاً :

« إن الحياة ليست متعة ولذة وسروراً ، وإنها ليست كذلك كارثة وحزناً وهماً معقداً مقيماً ، وإنما هي رسالة نضطلع بها ، ومهمة خطيرة يعهد إلينا في القيام بأعبائها ، وعلى كل منا ان يستغل جهوده ، ويبذل أقصى ما عنده في القيام بواجبات هذه الرسالة ، وإذا تأثرنا قليلاً أو كثيراً بهذه الفكرة ، قل اهتمامنا بالكثير من الصغائر والتفاهات التي تلهينا عن الأمور الجليلة ، وتحصرنا في دائرة من الهموم الصغيرة .

الإيمان بخالق الكون إيماناً بصيراً ، هذا شيء جميل مستحب في هذا العصر الذي تنازعته عوامل الفوضى والدمار ، وطغت عليه الشكوك من كل ناحية ، إحتفظ بهذا الإيمان فانــه كنز ثمين ، واعمل على تعميقه وتوسيعه حتى لا يصير

إيماناً ضيقاً جامـــداً ، لا نزاع أن الإيمان الصادق بالله ينفي عن نفوسنا الشك بالفضائل والاسترابة بالمثل العليا ، ومتى آمنا بالفضيلة وصدقنا بالمثل الأعلى هان علينا المضي في طريقنا واثقين مطمئنين .

من الخير ألا نبادر على الدوام الى التوفيق بين أحلامنا وأمانينا ، وبين الواقع ، والا أصبحنا من فريق الواقعيين الذين لا يؤمنون بغير الأمر الواقع ، ولا يعالجون الأمور الا على هذا الأساس الضيق ، ويقولون مع فريق من أتباع « هجل » قولته التي تحمل تفسيرات عـــدة : « الحق هو الواقع والواقع هو الحق » ، والاطمئنان الى الواقع والامتناع بما يغري الجمود والإثرة ويزهد في التغيير والاصلاح ويزين للناس استغلال الظروف والافادة من الفرص المتاحة ، وانما علينا ان نفرق بين أحلامنا الصادقة وأوهامنا العارضة ، ونفرض أحلامنا وأمانينا وأفكارنا على الواقع وهذا هو ما يحاوله كل فرد ممتاز بعقله وخلقه ، ولا خير في هؤلاء الناس الذين يتركون الدنيا كما كانت يوم ولدوا ولا يفرضون عليها شيئاً جديداً من أحلامهم وأمانيهم .

فهذا الشعور بالتناقض بين الخيال والواقع شعور كريم ، من حقك أن تحمده وتستبشر به وتغذيه ، وهو من غير شك من بواعث قلقك وازعاجك ومللك وتبرمك .

ان الغايات البعيدة لا تنال الا ببذل الجهـد والمثابرة الدائبة ، الهدف الذي يحاول الوصول اليه زورقنا في بحر الحياة قد لا يبلغه ، ولكن هذا خير من السير على غير هدى بين التيارات الجارفة والأمواج المتلاطمة .

وصاحب الغاية المقصودة في الأغلب يصل الى غايته مهما عاكسته الرياح وقاومه التيار ، ودروس الحياة تعلمنا دائماً أن العقبى للصابرين ، وأن الذين يسرع اليهم اليأس وتخيفهم الموانـــع والعقبات لا يصلحون لعمـــل شيء من الأشياء .

وكلما تقدم الانسان في تاريخ الحياة ازدادت أعباؤه ثقلاً ، وواجباته كثرة واستلزم الأمر جهداً أضخم وحزماً وعزماً ، فلا نستطيع متابعة التقدم الا اذا زادت قوتنا لتزايد أعبائنا وتكاثر واجباتنا ، وعلينا أن نأخذ الأهبة لمطاردة الكثير من الشكوك والأهواء والاغراءات والنزوات ، فاعمل على إطلاق القوى الروحية الحبيسة في نفسك وإظهار قدراتك وممكناتك ولعل أكبر هـدف للانسان هو محاولة الوصول الى أقصى مـا يستطيع من النمو العقلي الأخلاقي .

إن التزام العفة التي تقضي بها الضرورة لا يضر ما دمنا لا نحصر تفكيرنا في المسائل الجنسية ، بل إنه قد يزيد العقل نبلاً ، والنفس قوة ورفعة ، ويمكننا من السمو بنوازعنا الجنسية واستغلالها استغلالاً أدبياً أو فنياً أو علمياً .

الحياة الحقة هي الحياة التي يكون لنا في كل من أيامها انتصار على الأهواء التي تتحرك في نفوسنا ، والشهوات التي تعصف بنا ، ونتغلب فيها على روح القلق والتمرد التي تهـدد سلطان العقل وتهز أركان الارادة ، أمثال هذه الانتصارات التي ترتفع بنا فوق الجزء التافه الحقير من نفوسنا وتشعل النار التي تذيب أخطاءنا وعيوبنا وتلتهم نقائصنا وسقطاتنا .

لا يمكن الانسان أن يكون إنساناً صالحاً إلا إذا كان مواطناً نافعـاً ، وفي أعماق كل انسان بذرة الحياة الروحية وهي تنمو وتزدهر اذا تعهدها الانسان وولاها بعنايته » ا . هـ .

* * *

ويمكن القول أن « علي أدهم » قد تتلمذ على مجلة « البيان » التي أصدرها المرحوم عبد الرحمن البرقوقي عام ١٩١١ ، ومنذ ذلك اليوم جرى أدهم في هذا الخط وعمقه وخلف فيه كل العاملين من رواده الذين سبقوه: ابراهيم عبد القادر المازني ، ومحمد السباعي ، ولطفي جمعـة ، والعقاد ، وعبد الرحمن شكري ، منذ ذلك الوقت مضى « علي أدهم » في هذا الخط : خط الترجمـة والتعريف

بالفكر العالمي والانساني خلال دراسات أعلامه في الآداب الفرنسية والانجليزية والأوروبية والأمريكية والروسية جميعاً ، ودون تحيز لثقافة معينة وان كان لسانه فيها هو اللغة الانجليزية فإن بيانه فيها هو اللغة العربية .

وقد حمل أدهم أمانـــة مجلة البيان التي كان يغرسها البرقوقي في تلاميذه وكتابه وهي « شرف الديباجة » ، فقد لبث وما زال حفياً باللغـــة العربية يكتبها في أسلوب جميل مشرق ليس مستعلياً وليس صحفياً . ومنذ ذلك الوقت وقد ترجم علي أدهم وقدم وألف وناقش مئات من الكتب والأبحاث ، يلتزم خطه وأمانته بعد أن اتسع نطاق حركة الترجمة ودخل اليه عشرات من الكتاب ، ومع ذلك فما زالت خطته مؤذنـــة بالاستمرار على النحو الذي ارتضاه ، وهو العمل الذي ينتظره المثقف المتصل بالصحافة والمجلات الأدبية ، والذي يحرص على الحصول على أكبر قدر من الآراء والأفكار وفهم تطورات الفكر العالمي ومراحل تجدده .

* * *

واذا أردنا أن نصور علي أدهم في كلمات قليلة قلنا « الرصانة في الأداء » و « الأصالة في المضمون » ، فهو حـــين يصف المنهج العلمي في الكتابـــة الأدبية يقول :

« العلم يوسع آفاق النفس ويزيد من حصيلة تجاربها ويأخذ الكاتب بتحري القصد والتزام الدقة ، والحذر من إلقاء الاحكام على عواهنها » .

فاذا عرض للنقد وأصوله قال : « لا زلنا نعتمد في النقد على الذوق المهذب المصقول ، الى جانب الاستعانة بالقواعد والاصول النقدية والموازين البلاغية ، وأن العنصر الذاتي يلعب دوراً كبيراً في النقد وإصدار الأحكام » . أما هو في مجال النقد فيقول : « كنت في فصول النقد التي كتبتها موضوعياً جهد الطاقة ، أود أن أتخلص ما وسعني الإمكان من المآرب الذاتية ، وأسمو فوق نزعات

الحب والكراهية ، ولكني كنت أعلم في الوقت نفسه أن توفيقي في تحري هذا المسلك لا بد أن يكون محدوداً بقدرتي الذاتية ومزاجي الشخصي ، وغاية ما يطلب مني باعتباري وانطباعاتي » .

* * *

والحق أن على أدهم قلّما يذكر نفسه أبداً ، وقد ترفع في حياته عن مطامع الشهرة وبريق الصحافة وخلابة المادة ، كما ترفع في كتاباته عن الجوانب الذاتية حتى في الفصول التي طلب اليه كتابتها وهي تجري حول مفاهيمه الخاصة ، وتلك خلة من أشرف خلاله ، وبها سيبقى له في الأدب العربي ذكر لا ينتهي .

● علي أدهم : باحث متخصص في الدراسات الانسانية والأدبية والتاريخية ، يجمع بين ثقافة عربية خالصة وانجليزية رفيعة .

له مئات المقالات في المجلات الأدبية المختلفة ، وله عشرات الأبحاث في موسوعة تراث الانسانية ، راجع عشرات الكتب المترجمة الى اللغة العربية .

من مؤلفاته : نظرات في الحياة والمجتمع ، المذاهب السياسية المعاصرة ، على هامش النقد والأدب ، الجمعيات السرية ، بين الفلسفة والأدب .

وله مترجمات : ألوان من أدب الغرب ، لماذا يشقى الإنسان .

ومن تراجم الأعلام : المعتمد بن عباد ، مزينى (سلسلة أعلام التاريخ) صقر قريش (عبد الرحمن الداخل) ، تلاقي الأكفاء .

(٢٢)

الدكتور عمر فرّوخ
الدراسات الإسلامية العربيّة

يعطي الدكتور عمر فروخ صورة العالم الواضح الهدف منذ الخطوة الأولى ، كأنما قد رسم طريقاً منذ مطلع حياته ، ومضى فيه يعمقه ويوسع آفاقه دون أن ينحرف عنه ، فهو يعيش حياة أمته مربياً وكاتباً . يصحح الأخطاء ، ويكشف الحقائق ، ويعمل في مجال المدرسة الوسطى « مدرسة البناء على الأســـاس » ، المدرسة التي ترى أن لنا شخصية وكياناً فكرياً وتراثاً وتاريخاً ، وأننا بهذا كله نكوّن هذه الأمة ، ولا ضير علينا أن نفتح الأبواب للثقافات ونأخذ منها مـــا يزيد شخصيتنا قوة ونماء ويدفعنا في الحياة الى مصاف الأمم الناهضة. ودون أن يضيع كياننا في دوامة الأفكار والمذاهب والآراء المتضاربة .

وقد أتاح للدكتور عمر فروخ تكوين منهجه هذا ، تجربة طويلة واتصالات بالمفكرين والباحثين ، ودراسة واسعة في الشرق والغـــرب ، فهو الذي طوف بالعالم الاسلامي ، وكتب عن الباكستان والمغرب ، وعـاش سنوات الدرس في ألمانيا يتصل بالمستشرقين والباحثين ويكشف عن مدى فهمهم لفكرنا وثقافتنا . ثم يتاح له من بعد أن يواجه هذا التيار الذي يدعو الى تبديد شخصيتنا وكياننا

بكتابه « التبشير والاستعمار » وهو العمل الضخم الذي قدمه مع زميله الدكتور مصطفى الخالدي ، والذي كان له أبعد المدى في دق الأجراس إزاء غفلة بعض الدوائر الفكرية التي كانت تولي إعجابها لكل ما يقوله الغرب .

ولعل أبرز ما استهدفه الدكتور فروخ أن يفرق بين اللاتينية والعربية ، فاللاتينية والعلوم اليونانية قد أصبحت تراثاً، أما الثقافة واللغة العربيين فما تزال حية تعيش بيننا وترتبط بحياتنا . ومن هنا يجيء الفرق بين اللغة اللاتينية التي ماتت ودخلت المتاحف وبين اللغة العربية « لغة القرآن » التي ما تزال تنبض بالحياة ، يتحدث بها مائة مليون ويتثقف بها أربعمائة مليون من البشر .

« والدين » عنصر هام في الثقافة العربية ، التي هي قوة الدفع الحيوية وراء مقومات الوحدة العربية ، فهذا الطابع الروحي والنفسي هو قوام التاريخ واللغة ، وتاريخ العرب عنده في أي قرن من القرون هو تاريخ الاسلام نفسه . وهو من أجل الكشف عن مقومات شخصيتنا عمد باكراً الى دراسات قصيرة بدأها خلال الحرب، ومع غلاء الورق عام ١٩٤١ تقريباً، تناول فيها عشرات من أعلام الفكر العربي : أبو العلاء وبشار وأبو تمام ، وعن ابن المقفع وأبي نواس وعمر بن أبي ربيعة وابن الرومي وابن ماجه والفارابي وابن سينا وابن خلدون وشوقي ونهج البلاغة وإخوان الصفا .

ولا شك أن لهذه الدراسات القصيرة أثر واضح في الكشف عن شخصية الدكتور عمر فروخ ومفاهيمه ، وهو يصحح الكثير من الآراء الشعوبية التي حاول بها بعض الكتاب الغربيين ومن تابعهم من الكتاب العرب غمط العرب والمسلمين حقهم ، والغض من قدر فكرهم وثقافتهم . فابن خلدون يواجه حملة عنيفة ، يتهم فيها بالضعف ، وهو مؤرخ الحضارة الاسلامية بلا منازع ، وواضع أسس تاريخ الحضارة ، وواضع الأسس التي يجب أن تقوم عليها كتابة التاريخ عموماً : « إن ابن خلدون قد أدرك خضوع حوادث التاريخ لعلل وأسباب تنشأ عن الاجتماع الإنساني بكل ما فيه من بيئة طبيعية ومن اقتصاد وسياسة ودين ،

والتاريخ عنده هو تطور العمران البشري والاجتماع الانساني على مر الزمن بكل ما يتصل بها من الناحية المادية المحسوسة ، وما يعرض فيها من الناحية العقلية المعنوية » .

ومما يجري عليه رأي الظالمين إنكار أثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الأوروبية ، والدكتور فروخ يصحح هذا الخطأ ، فالعرب قد أدوا رسالتهم الثقافية على أتم وجوهها. ولم يستفيدوا فقط من نتائج الفكر البشري بل قاموا بدورهم مع كل ما اعترضهم من مشاق ومثبطات ، ولم يكتف المسلمون بنقل الفلسفة اليونانية الى العربية، بل درسوها وشرحوها وفسروا الغامض منها بقدر ما كانت تسمح لهم الممكنات وأمانة النقل، ثم أضافوا اليها طرق تفكير جديدة واختبارات جديدة وقوانين تشمل البيئات الجديدة .

ويصحح الدكتور فروخ أخطاء أخرى ، فقد اتهم العرب بأنهم لم يعرفوا الفن التمثيلي ، والفن التمثيلي ظهر في القرون الوسطى عند العرب في : أحاديث ابن خلدون والمقامات ورسالة الغفران للمعري، والسبايا (أيام عاشوراء) وقصة عنترة وألف ليلة وما اليها ، ولكن هذه كلها لا تخرج عن مدلول (مسرح) كما يعرف عند اليونان قديماً ، أما أن العرب لم ينقلوا الأدب اليوناني والتمثيلي إلى العربية فيرجع ذلك الى صعوبة نقل الشعر من لغة الى لغة. وكان العرب يذهبون الى أنهم أهل الشعر فلم يحفلوا بشعر غيرهم . وكانت في الشعر اليوناني خرافات وثنية مبنية على تدخل الآلهة في أعمال البشر فانصرف المسلمون عنه .

ولا يترك الدكتور فروخ اتهاماً آخر هو نسبة عبقرية ابن الرومي الى الأصل الرومي وإنكار عربيته ، فهو يعرض لما كتبه سليمان البستاني في الالياذة ، والعقاد في كتابه عن ابن الرومي ، مما يتصل كله بالقول بأن أصله العجمي له أثره في طول نفسه وميله الى وحدة الموضوع . ويقول الدكتور فروخ أن البستاني والعقاد قد غفلا عن طبيعة الاجتماع وفاتها كثير من حقائق التاريخ وأسس الأدب ، وأن الوراثة العرقية أو وراثة الدم تؤثر في الاستعداد العام أو

في الذكاء الفطري وفي الصفات الجثمانية ، ولكنها لا تؤثر في الانتاج الأدبي . ثم إن ابن الرومي نشأ في بيئة عربية يجهل اللغة اليونانية وكذلك أبوه ، وله عبقرية تكونت من عوامل البيئة وعناصر الشخصية .

ويواجه الدكتور فروخ ما ذهب اليه الباحثون الذين تابعوا بعض المستشرقين من الشك في الشعر الجاهلي ، فيقول : نحن أيضاً نشك في صحة بعض الشعر الجاهلي ، ولكن لا نشك فيه كله ، ولا نشك في بعض الشعراء الجاهليين كذلك ، لأن (الناحل) يستطيع أن يقلد البيت أو البيتين أو القصيدة أو القصيدتين ، ولكنه لا يستطيع أن يخلق شاعراً ، ولا أن يتلبس بشخصية شاعر ، واذا استطاع أن يتلبس بشخصية شاعر واحد فهل يستطيع أن يتلبس بشخصيات مشاهير الشعراء ؟ .

* * *

وهكذا يمضي الدكتور عمر فروخ في طريق واضح يكشف الحقائق ، ولا يدع الآراء الضالة لتأخذ مكاناً في عقول المثقفين العرب ، مؤمناً بأن « الثقافة العربية الاسلامية » بحاجة الى استعراض المؤلفات الأصلية ، والى تحليل الآراء المبثوثة فيها ، ويرى أن الدراسة الأدبية يجب أن تقوم في أساسها على أسس تاريخية ، وأننا يجب ألا نقبل من كل انسان أن يجرب ذوقه في فهم قلائد الأدب العربي وهو بعد لا يعلم أحرف الإعراب ولا يفرق بين أوجه البلاغة ، بذلك حقق نتائج هامة ، لعل أكبرها أثراً هو الكشف عن بعض الحقائق التي لم تستقصى بعد وكانت مغمورة في بطون التاريخ .

واذا جاوزنا هذا الجانب من دراسات الدكتور عمر فروخ الى دراساته الأخرى وجدنا عملاً ضخماً متكاملاً : الأسرة في الشرع الاسلامي ، أثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الأوروبية ، التصوف في الاسلام ، عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، القومية الفصحى ، هذا بالاضافة الى كتابيه عن : باكستان والمغرب ، وكتبه

الأخرى عن : ابراهيم طوقان والشابي وشوقي . ومترجماته عن الأدب الغـربي : الاسلام في مفترق الطرق، والثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، وغيرها من نتاج ضخم له طابعه الواضح الصريح، فضلا عن كتبه المدرسية التي تدرّس من لبنان الى ماليزيا ، والتي تتسم بهذا الوضوح واليقظة في الكشف عن حقيقة شخصيتنـا وعظمة أمتنا ، والقضاء على الآراء المضللة التي بثها الاستعمار والنفوذ الاجنبي في عديد من الكتب التي تدرّس في البلاد المحتلة، وهو بذلك يمثل عنصراً ضخماً في جبهة واضحة المعالم ، تحمي ثقافتنا وتكشف عن عظمتها وتقيم بناء حضارتنـا الجديدة على أساس من شخصيتنا الأصيلة ، دون انحراف الى ثقـافات الغرب أو الشرق .

* * *

وقد تخرج الدكتور فروخ من الجـامعة الأمريكية ١٩٢٨ ، وعمل معلمـاً ومدرساً وأستاذاً خلال حياته كلها — وما يزال — في نابلس وبغـداد ودمشق وبيروت . وفي خلال ذلك أتيح له أن يحرز إجازة الدكتوراه من ألمانيـا عن صورة الاسلام في الشعر العربي (من الهجرة الى القرن الثالث) .

وكانت هذه الأطروحة رداً على ما أذاعه بعض المستشرقين من أن الأدب الإسلامي لم يظهر الا في العصر العباسي ، وقد استطاع أن يجمع من الشعر العربي في خلال فترة القرون الثلاث الأولى منذ الهجرة ما يعطي صورة الاسلام بعقائده وأفكاره وثقافته .

وللدكتور فروخ إلمـام واسع بدراسات المستشرقـين والمبشرين ، وخبرة كاملة باتجاهاتهم وآرائهم ، ومتابعة تامة لكل ما يتصل بدورهم في العـالم العربي والاسلامي ، وقد أغنى المكتبة العربية بهذه الدراسات ذات الطـابع الواضح والدلالة الصريحة . وقد أجهده ذلك وأضناه ، إذ طبع أغلب هـذه الدراسات في أيام الحرب العالمية الثانية، وكان يشتري الورق من السوق السوداء، ربما اشترى الورق بسبعة أضعاف ثمنه مدفوعاً بإيمانه الصادق الى العمل لتقـديم

عصارات الفكر العربي ، كاشفاً عن هذه الجوانب الثرة الغنية من ثقافتنا العربية النابضة بالحياة ، المتصلة منذ ماضيها بحاضرنا ، الحية بفاعليتها وتأثيرها في تطورنا ونهضتنا .

وقد اعترف الدكتور فروخ بفضل أستاذه الدكتور يوسف هل « الذي فتح أمامي في أوربة مجال الاختيار العلمي المنتج » ووجد فيه عالماً ذا إيمان صادق ببحث العلم وحرية البحث ، وكان حظه في ذلك خيراً من حظوظ الكثيرين ممن فرض عليهم أساتذتهم أبحاثهم ، أو اتجاههم في البحث .

ولقد حاول الدكتور فروخ أن يغطي جميع جوانب الثقافة الاسلامية ، ولا يزال يمضي في طريقه ، وربما كان اهتمامه بدراسة النصوص في الإسلام مما يكشف عن هذا الفهم العميق ، فهو بالرغم من إيمانه بالتصوف النقي ينظر اليه على ضوء اهتمام الأوربيين به والكتابة عنه ، ينظر اليه بريبة ، ويرى أن هدف الأوربيين من الاهتمام بالصوفية هو تثقيف قومهم بأسلوب من أساليب الاستعمار ، وكذلك إغراق المثقفين من سكان الشرق بكتب الصوفية لصرفهم عن عمود القومية وعرين العزة .

وهكذا يبدو الدكتور عمر فروخ في كل مراحل دراساته واضح الهدف يرمي الى الكشف عن الحقائق ، وتنوير الأذهان وبناء فكرنا العربي الجديد المتجدد (على الأساس) ، الأساس الحقيقي من عصارة ثقافتنا مع وضوح معالم شخصيتنا ، حتى نظل أمة واضحة الملامح لا تضيع في خضم الأقطار والمذاهب والتيارات ، التي تجد نفسها في غنى عنها بمالها من فكر ومذهب عميق الجذور سليم المقومات .

● الدكتور عمر فروخ : أستاذ في الجامعة اللبنانية ، له مؤلفـــات منوعة في الأدب والفلسفة والثقـــافة العربية ، أبرزها : التبشير والإستعمار في البلاد العربية (بالإشتراك) ، القومية الفصحى .

وله : العرب والفلسفة اليونانية ، أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوربية، الفلسفة اليونانية في طريقهـــا الى العرب ، عبقرية العرب في العـــلم والفلسفة ، التصوف في الإسلام .

ومن تراجمه : حكم المعرة، شاعران معاصران (إبراهيم طوقان وأبو القاسم الشابي)، ابن الرومي ، أبو تمام ، ابن ماجه ، أبو العلاء المعري ، اخوان الصفا، بشار بن برد ، الحجاج بن يوسف ، ابن خلدون ، أحمد شوقي ، خمسة شعراء جاهليـــين ، عبد الله بن المقفع ، شعراء البـــلاط الأموي ، الكندي، عمر بن أبي ربيعة ، الفارسيان .

★

(٢٣)

علي الجندي
الشعر ونقد الشعر

أتحدث عن الشاعر الكبير « علي الجنـــدي » : الشاعر المصري العربي الاسلامي ، أقول ذلك حتى أحـــدد من أتحدث عنه ، فقد عرف بهذا الاسم كتّاب وشعراء آخرون . أما شاعرنا فهو ذلك المجلي الذي ما زال ينشد الشعر منذ مطالع شبابه في ثورة ١٩١٩ – الى اليوم ، وما زال – أطال الله عمره – شاعراً من مفرق شعره الى أخمص قدميه ، كأنما قد وكل اليه أمر الشعر كله فهو حفظة له ، طوف به ما طوف وعرف قديمه وحديثه واستوعب غزله ورثاءه ومديحه وهجاءه على نحو مدهش رائع ، ولعله بقيــة هذا الجيل العجيب الذي عرف بأنك لا تكاد تطوف بأمر أو موضوع أو حادث حتى تجده قد ألقى اليك من الشعر العربي ما يصور مشاعر الانسان إزاء كل موقف ، كأنما لم يغادر شعر الضاد من شيء ، وكأنـــه كتاب الانسانية الكبير ، ولقد عاش علي الجندي شاعراً في حياته وفي دار العلوم التي تخرج منها وعمل بهـا حتى ولي عمادتهـا ، وتتلمذ عليه وتخرج عشرات من الشعراء والشاعرات ، وما زال وأنت حين تراه في سمته الكريم ووجهه الأبيض المشرب بحمرة وفي مشيته وحركته وفي صمته وحديثه وفي خطابته وإلقاء شعره ، تحس أنه فارس من فرسان العرب الأوائل

أو أحد من آل البيت أتباع الحسين[1] ، وما تزال حياة علي الجندي كلها قسم من بين الفروسية والشعر ، فهو شاعر ومؤرخ للشعر ، ولم يغادر الشعر القديم حتى كتب عن فنونه الثلاثة الكبرى: شعر الحرب وشعر الغزل وشعر الطبيعة .

* * *

وقد كان تلميذاً في دار العلوم للشاعر البدوي محمد عبد المطلب ، وكان له به صلة روح وطبيعة فهو صعيدي من أنقى الانساب العربية ، وبالرغم من أنه جاء القاهرة منذ العشرينات فانـــه ما زال عربياً صعيدياً بطبعه ، حفاظاً لكل مقومات الايمان والكرامة والوفاء والإباء الذي عرف به أهلنا في الصعيد ، لم تغيره القاهرة ولا الحضارة ، الا ذلك التطور الفكري الذي يجري معه العقل العربي في مجال النهضة والحياة . أما طبيعته النفسية : «طبيعة الشاعر الفارس» فقد عاشت معه وعاش معها ، فهو مؤثر للعزلة عزوف عن المجتمعات، ومع ذلك فهو نابض بالحياة متصل في شعره بكل مـــا يصل النفس بالحياة ، مؤمن عميق الايمان ، في أسلوب حديثه ومناقشاته العادية طابع الأصالة والفهم والقدرة على الاستيعاب والعرض واستخلاص النتائج .

* * *

ولقد رأيت له في مطالعاتي الكثيرة في الدوريات العامة ، فصولاً وبحوثاً ومقالات وآثاراً متعددة ضخمة لاحد لها ، ما تزال مدفونة في أعماق الصحف لم تخرج ولم تنشر في كتب ، وهي على ما هي عليه غاية في الروعة ، فقد طوف أستاذنا علي الجندي بالأدب العربي منظومه ومنثوره ، فاستوعب عصارة هذا التراث في مختلف فنونه وعرضه قصصاً وأحاديث عرضاً جديداً على نحو لم يتح لكثير من الباحثين ، وما تزال هذه الفنون الرائعـــة جديرة بأن تبث روحاً

---

(١) علي الجندي فعلاً من أصحاب النسب الحسيني.

جديدة في أجيالنا وشبابنا الذين لا يعرفون كثيراً عن تراثنا وفنوننا ويخافون الكتب القديمة ولا يستطيعون الاتصال بها ، وهكذا عاش الشاعر الكبير علي الجندي يعلّم في دار العلوم ويعلّم في صحف مصر ، ويكشف عن جوهر الأدب العربي ، وعن تراثه وعظمته وقصصه وبطولاته ومواقفه، وفي نفس علي الجندي يرتبط الاسلام بالعروبة ، والصوفية بالشعر ، والحب بالجمال ، والفن بالحياة ، على نحو رائع وامتزاج دقيق ، فهو شاعر عاطفي رقيق الحس أبلغ الرقة ، وهو كاتب وباحث له مطالعات وفهم لقضـايا الفكر العربي الحديث وشئون العالم الاسلامي والأمة العربية في مجال الفكر والثقافة والحضارة ، وقد كان في مطالع حياته شاعراً ومبشراً وكاتباً وخطيباً ، وأمانته للشعر والإسلام لا حدّ لها ، فهو يخلط بينهما في عراقة الايمان بأمتنا وفكرنا وتراثنا على مستوى الأصالة والجزالة وعلى مستوى الاستعلاء عن الدنايا .

* * *

يقول : سئلت غير مرة : كيف تكون شاعراً ولا نجدك متحللا ؟

ويجيب : لا أدري أي صلة بين الشعر والتحلل مع أن اللغة تقول : أن كل علم يسمى شعراً ، ولكن الشعر غلب على منظوم القول لشرفه بالوزن والقافية ، ويقول ابن رشيق : الشعر أكبر علوم العرب ، ومن قول الرسول : « إن من الشعر لحكماً » أو حكمة ، ويكتب عمر رضي الله عنه الى أبي موسى الأشعري : « مُرْ من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معاني الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الانساب » . ويقول « علي » كرم الله وجهه : « إن الشعر ميزان القول أو ميزان القوم » ، والتاريخ يحدثنا : أن معظم الشعراء في القرون الأولى كانوا من الفرسان المغاوير والأبطال الأنجاد ، خاضوا المعارك وسعروا لظاها بأسلحتهم وألسنتهم معاً ، وما أبعـد رجال المعامع وصناديد الوقائع عن خنث الطابع وتميع الأخـلاق ، والشعراء ينظرون الى فنهم نظرة إجـلال وإكبار فيقول الأعشمي :

والشعر يستنزل الكريم كما ينزل رعد السحابة السبلا

هذا هو مفهوم الشعر عند علي الجندي كما عبر عنه في كتابه « خمسة أيام في دمشق الفيحاء » .

وعنده أن الشعر لم يفقد ماله من سحر وفتنة وسلطان بالغ على النفوس ، وانه سيظل الى الأبد برغم استعلاء الروح العلمي وسيطرته ، متعــة الأذهان وبهجة القلوب وغذاء الأرواح ، ما دام للناس عواطف ومشاعر وأحاسيس ، وسيبقى ما بقيت الضاد أجمل فنون الجمال وأرقى لغة كشفها الانسان ، للتعبير عن خوالج نفسه ، ومآربه العليا السامية ، وأن أمتنا العربية الشاعرة لم ينقطع نسلها من فحول الشعراء ، وأن في يدهــا من الشعر عصا سحرية تستطيع — إن حسن توجيهها — أن تفعل بها العجائب وتصنع المعجزات .

* * *

وعنده أن الشعر — وهو أنفس الفنون — قـد كان أبطأ سيراً في العصر الحديث بحكم طبيعته من الفنون الاخرى ، ولكن إنتفاضات الأمــة العربية المتوالية ، وهز الأحداث لها هزاً عميقاً ، قد بعث قوى شعرائها وأذكى لهيبهم المقدس ، وفجر فيهم ينابيع الالهام الثرة ، وأهاب بهم أن يؤدوا لأمتهم مالها قبلهم من حقوق مفترضة ، فانطلقوا كالسيول العارمة يشدون أزرها ويجبرون كسرها ، حتى ليمكن أن يقال : أن الأشعار التي قيلت في محنــة فلسطين والجزائر ، والأشعار التي قيلت في تمجيــد القومية العربية والتبشير بالوحدة العربية ، وما قيل في معركة بور سعيد الخالدة ، تربو على ما قيل في عصر كامل من عصور الشعر العربي التاريخية الزاهية .

ويمضي أستاذنا علي الجندي فيقول : إننا يجب أن نكون على حذر دائم ، من الدعوات الهدامة المدمرة ، التي تريد أن تقطع صلتنا الوثيقة بماضينا الحافل بالمآثر ، وتأتي على مفاخر ستة عشر قرنــاً من القواعد باسم التجديد الزائف

المنكر ، الذي يجعل من المقالة دردشة جوفاء ، ومن القصص إباحية صارخة ، ومن الفن تهريجاً وبهرجاً ، ومن الشعر رقعاً مهلهلة ممزقـــة ، ومن النقد هزءاً وانتقاصاً .

* * *

وبعد فإن ديوان « ترانيم الليل » آخر انتاج الشاعر علي الجندي المصري العربي المسلم ديوان ضخم أنيق ، يعد نموذجاً رائعـــاً للشعر العربي الحديث ، صيغ بأسلوب يمثل ديباجة البحتري أصدق تمثيل، وقد سجل الشاعر في ترانيمه ما هز نفسه من حوادث ، وما راقها من مناظر ، وما مر بها من آلام وأشجان ، وتغنى بالحب والجمال السامي غنـــاء مهذباً يشجي ويطرب ، ونظم وقائع الحياة في صورة قصصية مبتكرة ، توشحها الحكم البالغـــة والآراء الفلسفية والنظريات الاجتماعية ، وقد قسمه ناظمه الى أبواب وطنية وعربية ، وصور من الحياة وزفرات وذكريات الصبـا وخواطر وأفكار ، وفي مجموعها تضم حوالي مائتي قصيدة ومنظومة ، تمثل مختلف مشاعر هذا الشاعر الفنان في مرحلة السنوات الاخيرة وهو بالإضافة الى ديوانيه السابقين : « أغاريد السحر » و « ألحان الأصيل » يمثل تطور شعره في مراحله المختلفـة خلال حياة خصبة طائـلة باذن الله ، ومن خلال نفسية غنيـة بالحسّ تهتز لكل أحداث الحب والجمال والحياة ، وترتبط بالانسانية والوطن والاسلام والعروبة ولا تنفصل ، ويكاد يكون هذا الديوان سجلاً كاملاً لتطور الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية التي يعيشها الشاعر الكاتب الخطيب ، تمثل شخصيته في أصالته وبلاغته ، وفي نبالة خلقه ووفائـه ورقته ، وفي مروءته وفروسيته وارتفاعه عن المادة والحس ، كأنما هو شاعر من أعمـــاق العصر الاسلامي الزاهي ، ويقول الدكتور شوقي ضيف في تقديم الديوان : « نراه مولعاً بكل

جمال يملأ بصره ، ويملك عليه لبه ولكن في إحتشام وفي تلطف رقيق ، ولعلي لا أبعد إذا قلت أنه ممن يحبون الجمال نفسه لا من يتجسد فيه » .

* * *

وإذا كان يسعدنا أن نذكر ديوان « ترانيم الليل » آخر انتاج الشاعر ظهوراً ، فاننا ما نزال نتطلع الى آثاره الأخرى الكثيرة ، التي طالما حرضناه على نشرها وإعادة إبرازها من جديد ، بعد أن طوتها بطون مجلات وصحف البلاغ والرسالة والرابطة العربية وعشرات أخرى . وبعد فالاستاذ « علي الجندي » يصور مذهبه على هذا النحو : « إنني لا أستطيع أن أصوغ بيتاً واحداً في عرض لا يملك علي شعوري كله الى الحد الذي يستقطر الدمع من عيني أحياناً ، فكل بيت فيض العاطفة ونبض الشعور ، لا فرق في ذلك بين الشعر الوجداني الخالص كالنسيب مثلا وبين غيره كالأماديح والتهنئات مما يسمى شعر المناسبات هو عندي خاصة من صميم الشعر ، لأني أنظمه بهذه الروح التي أغني بها آلامي النفسية من الاعماق ، أما رسالتي فمشتقة من وراثتي ونشأتي وبيئتي ودراستي ، وهي الاشادة بمفاخر العرب والاسلام وأمجاد مصر الخالدة ، والتنويه برجالها العاملين وتخليد مآثرهم وتسجيل ما يهز النفس من أحداث » .

● علي الجندي : من مواليد الصعيد الأعلى من مصر ولد عام (١٩٠٠) عميد دار العلوم السابق . ومن أبرز شعراء العربية في العصر الحديث .

من مؤلفاته : شعر الحرب ، أغاريد السحر ، فن التشبيه ، أدب الربيع بين الورد والنرجس ، الشدا المؤنس في الورد والنرجس ، فن الجناس ، أطوار الثقافة والفكر (بالاشتراك)، رمضان في الأدب، خمسة أيام في دمشق الفيحاء ، البلاغة الفتية ، سياسة النساء .

قدري حافظ طوقان
إيقاظ العقل العربي

في مقدمة دعاة « المدرسة الوسطى » التي تؤمن ببناء فكرنا العربي الحديث على قاعدة من شخصيتنا ومقوماتها الأساسيه العلامة « قدري حافظ طوقان » ، الذي أعلن صحيته في أوائل عام ١٩٤١ الى رد اعتبار العرب علمياً في تقدير دورهم الكبير في بناء الحضارة ، بعد أن ساقت الثلاثينات كثيراً من غبـار التغريب والشعوبية متنكرة لفضل العرب ، وجرت الريح بالاستخفاف لكل ما هو عربي إسلامي شرقي ، والغض من جهد السلف وفضلهم ، وبينما كان ذلك يحدث في الشرق ، كان علماء منصفون من الغرب يدافعون عن الحقيقة لأنهـا حقيقة ، ويعلنون فضل العرب على مدنية أوربا ، فقد ثبت لهم أنه كلما تقدم العلماء في البحث تكشف لهم فضل العرب على العـلم والعمران بصورة أوضح ، وظهر لهـم أن العرب سبقوا الغرب في وضـع النظريات الرياضية والفلكية والفلسفية ...

فالعلماء فلوريان وويلز وسيديو وجوستاف لوبون قد أكدوا هذه الحقيقة :

« كان للعرب عصر مجيد عرفوا فيه بانكبابهم على الدرس ، وسعوا الى ترقية

العلم والفن ، وظلت أوربا مدينة لهم بخدمتهم العلمية ، تلك الخدمة التي كانت العامل الأول والأكبر في نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد ، وأنهم بذلك أساتذة أهل أوربا فى جميع الأشياء .

هذه هي الصيحة الباكرة لقدري حافظ طوقان ، العـــالم المتخصص في دراسات أعمال العرب العلمية وأثرها في الحضارة المعاصرة . كشف عنها ونماها في اكثر من عشرين كتاباً في خلال ربع قرن ، منها : تراث العرب العلمي ونواح مجيــدة من الثقافة الاسلامية ، والأسلوب العلمي عند العرب والنزعة العلمية في التراث العربي والعلوم عند العرب ، والتمهيد الى اللوغاريتمات ، ومقــام العقل عند العرب ، وأثر العرب في تقدم علم الفلك ، والروح العلمية عند العلماء العرب والمسلمين ونشاط العرب العلمي ..

وهي رسالة واحدة واضحة صريحة ، تنظم حياة هذا الباحث وكتاباته ، لا يتوقف عن إذاعتها في كل دوائر العلم ومؤتمرات الفكر ، ترمي الى اعادة الثقة الى هذه الأمــة التي انحرف بعض مفكريها الى التشكيك في قيمهــا ودورها ومكانتها في الثقافة الانسانية .

وعنده أنه لا بد من إعادة الثقة أولاً ، حتى تستطيع هذه الأمة أن تعود مرة أخرى الى مكانتها والى أداء دورها ..

وقد كان دور العلماء العرب والمسلمين كبيراً وضخماً ، وكان التزامهم بالمنهج العلمي واضحاً ، وبمراجعة تاريخ هذا النضال تتجلى أخلاقهم لتحقيقه ، وتمجيدهم للعقل والتقيد بأحكامه ، فهم قد ترجموا آثار اليونان العلمية ، ولكنهم لم يقفوا عند الترجمة بل راجعوها ومحصوها ، وقبلوا منها ورفضوها ، ثم زادوا فيها ، وكانوا غاية في التعظيم والاستقلال وتفتح الذهن ، ممــا دفعهم الى مخالفة فلاسفة اليونان وحكمائهم في بعض آرائهم وتفنيد أقوالهم ، وظهرت روحهم العلمية في عــدم إيمانهم بالتنجيم ، وفي الدعوة الى إبطاله وابطال نظريات تحويل المعادن الى ذهب .

وبدأ دور العرب واضحاً في التجارب التي أجراها جابر بن حيان ، وابن الهيثم ، والرازي ، وابن الصوري والبيروني وغيرهم في الطبيعة والكيمياء، فقد ثبت أن العرب عرفوا الطريقة العلمية الحديثة ..

ويظهر هذا الفهم العلمي لمنطق البحث في عبارة ابن رشد في كتابه « فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة » حيث يقول :

« يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك ، وسواء كان ذلك الغير مشاركاً لنا أو غير مشارك في الملة ، فإن الآلة التي تصح بها التزكية ، ليس يعتبر في صحة التزكية بها كونها آلة لمشارك لنا في الملة أو غير مشارك ، اذا كانت فيها شروط الصحة ، وأعني بغير المشارك في نظر هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الاسلام، واذا كان الأمر هكذا ، وكان كل ما يحتاج اليه من النظر في أمر المقاييس العقلية قد فحص عند القدماء ، ثم فحص ، فقد ينبغي أن نضرب بأيدينا الى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك : فاذا كان صواباً قبلناه منهم ، وان كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه ... »

وقد اختط هذا المنهج اغلب علماء المسلمين وفلاسفتهم : كالغزالي والجاحظ ، وابن حزم ، والكندي ، وابن الهيثم ، والبيروني ، وابن خلدون .

* * *

ويمضي قدري حافظ طوقان فيكشف عن أثر العرب في الحضارة الحديثة ، وسبقهم في الرياضيات والفلك والحساب والجبر والهندسة .

وكانت دعوته الى الكشف عن دور العرب مقدمة لعمل ضخم ، اشترك فيه مع الدكتور مصطفى نظيف والدكتور علي مصطفى مشرفة ، حيث أمكن تحقيق بعض المخطوطات العلمية .

وقد أجاب طوقان عن السؤال الحائر الذي يتردد حول الماضي وانكاره

وتجاهله وتلك صيحة شعوبية تغريبية ، فإذا كان الماضي والقديم يترك ويقضى عليه ، فقد كان أولى بأروبا أن تتنكر لثقافتها اليونانية وحضارتها الرومانية ، وهي ما تزال تلح على ارتباطها بها ، وان حضارتها الحديثة وثقافتها الأوربية ليست الا امتداداً لذلك الماضي .

يقول قدري طوقان : « أن التراث الذي خلفه الأقدمون ، والانقلابات التي تتابعت هي التي أوصلت الانسان الى ما وصل اليه ، وجهود فرد أو جماعة في ميادين المعرفة تمهد السبيل لظهور جهود جديدة من أفراد أو جماعات أخرى، ولولا ذلك لما تقدم الانسان ولما تطورت المدنيات ، ذلك لأن الفكر البشري يجب أن ينظر اليه كـكائن ينمو ويتطور، فاليونان مثلا قاموا بدورهم في الفلسفة والعلوم ، وكان هذا الدور الذي قام به العرب ، وهو الدور الذي مهد الأذهان والعقول للأدوار التي قام بها الغربيون فيما بعد ، وما كان لأحد منهم ان يسبق الآخر ، فوجود ابن الهيثم وجابر وأمثالهما كان لازماً وممهداً لظهور غاليلو ونيوتن ، وعلى هذا يمكن القول بانه لولا جهود العرب لبدأت النهضة الاوربية – في القرن الرابع عشر – من النقطة التي بـــدأ منها العرب نهضتهم العلمية في القرن الثامن للميلاد .. »

ولكن قدري حافظ طوقان حين يكشف عن دور العرب في العلم والحضارة لا يريد أن يقف عند هذا الحد ، بل هو يتخذ منه منطلقاً الى دور العرب مرة أخرى في العمل ..

فهو يعلن أنه لولا العرب لتأخرت نهضة أوربا عدة قرون ، ولكن العرب لا يكتفون بذلك ، بل هم اليوم في أشد الحاجة الى الروح التي تجلت في التراث العربي الاسلامي ، تلك الروح التي تمجد العقل وتدعو الى التجدد وتقدس حرية الفكر ، وتنزع الى الخلاص والانعتاق من قيود الماضي ، وأغلال التقليد، وتقول بالتحرر من سلطان القدر .. هذه هي الروح التي يجب أن تسود المجتمع العربي ، وتدفع الى التقدم المستمر والنمو المتواصل وتحول دون تعطيل العقل وتجميده ،

يجب أن يدرك العرب في هذا العصر أن التقدم لا يصل اليهم إلا على جسر من حرية الفكر ، هذه الحرية التي كان يرى فيها فلاسفة العرب الجمال والقداسة والخلاص ، إن هذه الحرية هي التي أخرجت للعالم الحضارة العربية ، وهي التي أثمرت التقدم في العلوم والأفكار عند العرب في العصور الوسطى ، لقد أنتج العرب وأثمرت قرائحهم عندما كانوا أحراراً ، وعندما كانوا يؤمنون بحرية الفكر ، ويقدسون العقل ، ولكن حينما ابتلوا بالاستعمار وما صحبه من كبت للحريات وضغط على المواهب ، تبلدت عقولهم وهزلت هممهم .

إن قدري طوقان يدعونا الى العمل على إحياء روح المعتزلة والفلاسفة العرب في المزاج العقلي واعتباره الدليل القائد ، وفي تخفيف الايمان المطلق بسلطان القضاء والقدر ، فلن يقدر لمواهب العرب أن تتحرك ولقابلياتهم أن تثمر الا اذا تحرروا تحرراً كاملا من الاستعمار وآمنوا بحرية الفكر .

* * *

واذا كان قدري حافظ طوقان من أسرة العلم التي تضم نظيف ومشرفة وغيرهم ، فإنه أيضاً من أسرة الأدب التي تضم ابراهيم طوقان الشاعر النابه ، وفدوى طوقان الشاعرة الرقيقة ، وهو من الذين استطاعوا أن يطوعوا العلم للأسلوب الأدبي المبسط ، ومن رأيه أن العلم يجب أن يكتب بأسلوب أدبي مبسط ، حتى يستطيع أن ينفذ الى نفوس الناس ويتصل بكل المستويات .

ولد بنابلس ١٩١٠ . وتخرج من الجامعة الأمريكية ببيروت ١٩٢٩ ، وعمل طويلا مديراً لكلية النجاح الوطنية بنابلس ، واشترك في عضوية أكثر من خمسة عشر هيئة ومجمع ولجنة في القاهرة ودمشق وعمان وفي انجلترا وأمريكا وإيطاليا ، ومثل بلاده في عشرات المؤتمرات في العالم كله ، وقد كتب عشرات المقالات والابحاث والأحاديث العلمية في مختلف الصحف والاذاعات ، وحاضر

في مختلف المجالات في أكثر الأقطـار العربية والأوربية . وما تزال مؤلفاتـه وآثاره تطبع مرات ومرات . وتجد قبولاً من القارىء العربي لتظل علامة على طريق واضح : طريق المدرسة الوسطى ، مدرسة البناء على الأساس .

● قدري حافظ طوقان : من أبرز المساهمين في المجامع العلمية العربية والعالمية .
من مؤلفاته : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، العلوم عند العرب ، التعاون العلمي بين العلماء والباحثين في العالم العربي ، بعد النكبة ، بين العلم والأدب ، مقام العقل عند العرب ، الخالدون العرب ، وعي المستقبل .

★

(٢٥)

كامل السوافيري

شعر فلسطين

ما تزال فلسطين تهز الكتّاب والباحثين والشعراء والمؤرخين في الوطن العربي جميعا ، فلا تمر فترة من الزمن حتى يبرز كتاب يناقش جانباً من جوانب هذه القضية الكبرى أو يستعرض قطاعاً من قطاعاتها . وها نحن نلتقي اليوم بكتاب ضخم اصدره كامل السوافيري يدرس فيه الشعر المصري الحديث في مأساة فلسطين منذ ١٩١٧ الى سنة ١٩٥٥ وهو جهد ضخم مقدور بذل فيه مؤلفه العرق الكثير حتى سواه ناضجاً أهلاً للماجستير التي أحرزها من كلية دار العلوم .

غير أنه كان لا بد أن يبرز من أبناء فلسطين من يشغف بمثل هذه الدراسة ويوليها وقته وجهده ويعيش لها ، فلا يدع شيئاً يكتب عن فلسطين من شعر ونثر وقصة الا يراجعه ويسجله ، فقد كانت فلسطين ولا تزال ، جرحاً دامياً في قلب الأمة العربية لمّا يلتئم ، ولن يلتئم حتى تعود الى الأمة العربية ، وما عاش قلب في الأمة العربية نابضاً دون أن يذكر فلسطين أو يحلم بعودتها الى الوطن الأم ، ولقد كانت مأساتها ذات أثر بعيد المدى — لم يكتب بعد — في

مجال اليقظة والنهضة والقومية العربية والوحـدة والامتزاج بين أجزاء المشرق والمغرب ، وكأنما كانت الأمة العربية قد استنامت وتخدرت في ظل عناصر الضعف وفترات الجمود ، فلمـا ذهبت تستيقظ في أوائل القرن كانت يقظتها مشوبة بانحراف ناحية القويُّ الذي خدعها مرتين ، بانكار عهده لها بقيام الدولة العربية ، وباعطاء وعـد بلفور ، هنالك بدأت تلك المأساة المهولة ، ومضت تعمق وتتسع ، حتى استوت في خلال ثلاثين عاماً ، حدثـاً قوامه المؤامرات والاغتصاب والمكر ، ولم تلبث أن وقعت الحرب فانهزم فيها العرب بالخديعة أيضاً ، ومن خلال هذه المراحل المتصلة كان الشعراء يعيشون المعركة ويتأثرونها ، ففي أكثر من سبعين ديواناً من الشعر صدرت كانت فلسطين مذكورة على نحو من الأنحاء ، بل قامت دواوين كاملة عنها ، وبرز شعراء لم يشغلوا إلا بهـا .

ولقد مضى هذا الشعر في الأندية والصحف والدواوين ، يهز النفوس، ويحول الأخبار والأحداث الى طابعه الوجداني المثير مرارة وألماً .

وبرز من أبناء فلسطين أنفسهم من عاشوا هذه المأساة شعراً ، ومضى الشعر العربي يجتاز الآفاق في المشرق والمغرب ، فـما ترك قطراً من أقطـار العروبة ، بل إنه بلغ المهاجر الأمريكية وأثر في شعرها ، ولا نبالغ إذا قلنا أن شعراء العرب في المهاجر كانوا أشد تأثراً وأكثر ارتباطاً بالأحداث ، ولم يقف الأمر عند القصيدة ، بل مضى الشعر يفتح الطريق الى الأعمال الفنية الكبرى ، فظهر الشعر القصصي والشعر المسرحي ..

وهكذا وجد كامل السوافيري الفلسطيني الأصل مجـال دراسته خصباً واضحاً ، فمضى يراجع النصوص ويقلبها ويستخلص منها ملاحظاته وآراءه ، ليكشف عن أثر مأساة فلسطين في الشعر الحديث .

إنه يقول :

« هزت مأساة فلسطين ضمير الأمة العربية أعنف هزة عرفتها في تاريخها

الحديث ، وأشعلت عواطف شعرائها ، وفجرت في قلوبهم ينابيع الشعر ، ومنذ وقوعها في سنة ١٩٤٨ الى سنة ١٩٥٥ وهي النبع الفياض في الشعر الحديث ، ظهر أثرها واضحاً في عشرات الدواوين الشعرية الكاملة ، التي استلهمت محتوياتها جوانب المأساة ومظاهرها المختلفة ، وفي مئات القصائد الشعرية المستمـــدة من فواجعها وأهوالهـا ، ومن واقع العرب المؤلم ، وحاضرهم الذليل ، وأملهم في المستقبل الباسم والغد المشرق المؤذن بالإستجابة لنـداء النار ، وغسل العار ، واستعادة فلسطين .. ظهر أثرها في شعر أبنائها ، وفي شعر أبنـــاء الأقطار العربية ، وفي شعر الشعراء العرب في المهاجر الأمريكية . ظهر في الشعر القومي الوطني السياسي الذي اطلقنا عليه اسم الشعر الغنائي ، في مئـــات من القصائد والمقطوعات والموشحـات والاغـــاني والأناشيد ، وفي الشعر القومي الوطني السياسي الاجتماعي القصصي والمسرحي ، ظهر أثرهـــا في الشعر الحديث فيما أوجدت من موضوعات ، وما استحدثت من افكار ، وما تطلبت للتعبير عن موضوعاتها وأفكارها من ألفاظ وجمل وعبارات ، وما أبدعت من صور ، وما ابتكرت من أخيلة ، وما أثرت به العاطفة . ظهر أثرهـــا في الشعراء الذين أوجدتهم وفجرت في نفوسهم ينابيع الشعر ، ولولاها لما غنوا ولما أبدعوا ، بل لما عرفوا في دنيا الشعر ، ومن الشعراء الذين حولت اتجاهاتهم الشعرية الذاتية والرومانسية والغنائية والفنية الى الاتجاه القومي .

وخلفت المأساة من أبنـاء فلسطين وبناتها شعراء وشاعرات ، لم تعرفهم فلسطين من قبل ، فجرت فيهـم ينابيع الشعر وأمدتهم بالطاقات ، ومنهم : معين بسيسو ، وخليل زقطـــان ، وهارون هاشم رشيد ، ويوسف الخطيب ، ورجا سمرين ، والشاعرة دعد الكيالي .

وحولت الاتجاهات الشعرية لعدد من شعراء فلسطين وشاعراتها المعروفين من قبل الى الاتجاه القومي ، ومن هؤلاء الشعراء : محمود الحوت الذي كان شاعراً وجدانياً ، وأبو سلمى الذي كان شاعر الحسن والجمال ، ومحمود الأفغاني الذي

كان شاعراً غنائياً ، وفدوى طوقان التي كانت تهوم في أودية الخيال وتشكو الوحدة وتلوذ بالتأملية ، وتغلب الاتجاه القومي على سائر الاتجاهات في شعر عيسى الناعوري في الأردن ، وعدنان الراوي وخالد الشواف وابراهيم الوائلي وعلي الحلي في العراق ، وعمر أبي ريشة وسليمان العيسى في سورية ، وعلي محمود طه ومحمود حسن اسماعيل في مصر .

كانت المأساة النبع الذي لا يجف والمعين الذي لا ينضب في الشعر الحديث ، وكانت نقطة الانطلاق التي انبعثت منها دعواتـه للثورة على حاضر العرب وواقعهم الأليم ، وجعلت من الشعر الحديث ، شعر العروبة والقومية والوطنية والسياسة ، شعر الثورة على الاستعمار وقاعدته اسرائيل ، وعلى فساد الأوضاع والنظم ، والدعوة لبناء المجتمع العربي من جديد على أسس جديدة .

ونقف هنا لحظة لنقرر أن أثر المأساة في الشعر الحديث أقوى من أثر المحنة فيه قبل وقوع المأساة ، أثر المأساة أعم وأشمل لأنه شمل جميع الأقطار العربية التي لم نجد منها قطراً واحداً لم يظهر أثر المأساة في شعر أبنائه ، بل قل أن تجد شاعراً عربياً لم يظهر أثر المأساة في شعره ، على حين أن شعر المحنة قبل المأساة لم يشمل جميع الأقطار ، ولم يظهر عند كثير من الشعراء .

وظهر أثر المأساة في الشعر الحديث في الفكر الحديث ، وتكوين الشخصية العربية ، والتعبير عن الذات العربية ، واعتناق فلسفة القوة ، ومخاطبة المستعمر بلغة المصلحة ، والكشف عن جوانب القوة الكامنة في الأمة العربية ، وما تملكه من مقدرات وامكانيات تتيح لها اذا اتحدت وتضامنت أن تملي إرادتها على الذين أوجدوا اسرائيل ، وان تعيد الحق الى أهله . »

* * *

وهكذا يمضي كامل السوافيري في دراسته الخصبة الضخمة الفنية ، التى هي الأولى من نوعها في الواقع ، وقد عاش بها حفياً كلفاً ، كأنما قد جرد نفسه لهـا

منذ عام ١٩٤٨ على وجه التحديد ، وكان قد بدأ ينشر فصولاً من دراسته في مجلة القلم الجديد (عمّان) مارس ١٩٥٣ ، وظل يعمل لها حتى استوت دراسة على أسس علمية كاملة ، أحرز بها ماجستير في الأدب (١٨ اكتوبر ١٩٦٢) ، ولكنه لم يتوقف بعد ، فهو يعـد دراسة جديدة لإحراز إجازة الدكتوراه في « الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر » فكأنما قد وهب حياته الفكرية لهذه القضية البعيدة الأثر في الكيان العربي كله .

وربما أعانه على هذا الجهد أنه كان منوع الدراسة ، موفور جوانبها الخصبة ، فقد تعلم في الأزهر ، ودار العلوم ، ومعهد التربية ، فأحرز فنوناً مختلفة من العلم القديم والحديث ، وامتزجت في نفسه مناهج الدراسات العربية الاسلامية الخصبة العميقة ، مع مناهج الدراسات الحديثة في دقتها وفنها .

ومنذ مشرق الشباب تطلع السوافيري الى مجال الصحافة والكتابة ، فكتب في صحف فلسطين ، ولما جاء مصر لم يلبث أن والى كتاباته في الاهرام والبلاغ والرسالة وعديد من صحف العالم العربي .. وبرز نشاطه الفكري عام ١٩٤٩ « عام معركة فلسطين » ، وهي نقطة الانطلاق في تفكيره كله ، عندما رأى أبناء وطنه وقد عادوا دون وطن ، مشردين هائمين على وجوههم من الارض . هنالك استل قلمه ووجهه الى عمل ضخم في سبيل أمته فكتب عشرات المقالات في الرسالة عن استرداد فلسطين ووعد بلفور وعبد القادر الحسيني واللاجئين ، ومضى يتابع النتـاج العربي عن فلسطين وقضايا الحرية متناولاً إياه بالنقـد والدراسة . وعرّف بشعراء فلسطين وكتّابها ، وأبرز خصائص الأدب العربي الفلسطيني في فنونه المختلفة وأمدته مأساة فلسطين بالوحي :

« كان في سوافير من أعمال غزة في يوم ما أهلي وعشيرتي ، ولكنهم تفرقوا أيدي سبا ، كانت الغربة قاصمة فتناثرنا كالشرر في كل اتجاه ، لا لنخبو ونضيع ، بل لنحمل روح المأساة العربية دامية أمام كل عين .

بالأمس كانت أرضنا تزرع للنفوس السلام ، واليوم تندس في كل شبر منها ألغام وألغام ، بالأمس كان التشرد يحمله الأفراد ، ومنذ أن خرجنا من أرضنا وللتشرد علم يرتفع بين الأعلام .

كنا هناك وراء غزة منذ آلاف السنين، نرقب الشمس وهي تجفف محصولنا وتجدد ثمارنا ، واليوم لا ترقب ولا شمس ولا ثمار ، لأن بعضنا قد أمتصته قصة تشرده هو ، ولم تخلق فيه ما يطرحه هناك وراء غزة ، والبعض الآخر ، قد أحاطه نجاحه بسياج من الترف يرد كل خواطره اليه .

وأنا ، أين أضع نفسي من هؤلاء ، كنت أفكر طيلة خمسة عشر عاماً ، الى أن زرت غزة سنة ١٩٥٤ وجاوز القطار العريش الى رفـــح ، وامتلأت خياشيمي بنفحات أرضي ، وصافحت آذاني لهجات قومي ...

الأطفال أصبحوا كبـاراً ، الشعر الفاحم أمسى رمـاداً ، رأيت قسمات فلسطين بعد خمسة عشر عاماً ، رأيت أخاديد الأسى وحفر الألم ، تصرخ في كل وجه ، ورأيت من خلال حبة من الدمع أيامي فوق هذه الأرض .

كان عملي التجول ، تجول للتجمع والتكتل ، أدور بين ١٥٠ بـلداً وكان مقري الرملة . كنت واعظاً آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، أمضي كالبستاني أهذب وأشذب ، الى أن قامت الثورة سنة ١٩٣٦ فتغير كل شيء ...

ثم تعقبت الحكومة الانجليزية الوعاظ ، فلم أر لي وجهة أتجه اليها سوى مصر ، مصر التي جئتها في الثانية عشرة طالب عـــلم حيث ضمني رواق الشوام بالأزهر ، لست بالغريب عنها فهي وطني صغيراً وكبيراً .

وعولت أن أشق لي طريقاً بين هـــذا الشظف الذي يطمسنا ويطمس فلسطين .. فتقدمت الى دار العلوم ، وفي غرفـة خشبية فوق سطح بيت في قلب زقاق أعمى من أزقة السيدة زينب ، وضعت حياتي الخاصة ، كان البرد

المتجهم يشاركني غرفتي شتاء ، والحر المتهالك يسكن معي صيفاً ، حتى تخرجت من معهد التربية وعينت مدرساً ..

وبدأت أجني ثماراً للضريبة الفادحة التي ظللت أدفعها ، ولكن هل من حقي أن أستجيب لهذا الرغد ، وهناك وراء غزة وحولها وفي الاردن عيون كفتحات المغاور تتحرك في بلاهة فوق أفواه نسيت ألوان .. الطعوم .. ؟ » .

* * *

وغداً يصبح الواعظ الفلسطيني دكتوراً في الآداب .. إنها صفحة كفاح ونضال مرير ، طوال حياة خصبة جاهدت من مطالع الشباب عندما انبثقت من أرض فلسطين سنة ١٩١٧ بين غزة ويافا .. حيث مضى يدرس في السوافير فالأزهر ، فاذا به يعود سنة ١٩٣٣ واعظاً فمدرساً ، مجاهداً في سبيل قضية الوطن العربي كله ، مشتركاً في الثورة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٣٦ التي هزت الدنيا ، ثم عائداً الى القاهرة سنة ١٩٣٩ ، ليبدأ كفاحاً جديداً في مجال العلم والثقافة والفكر ..

وهكذا يرتبط اسم كامل السوافيري في مجال الفكر العربي المعاصر بالأدب الفلسطيني، فهو هذا المعني به ، الحريص على متابعة كل ما يكتب عنها ، مراجعاً باحثاً دارساً ، ومن هنا كانت آراؤه وأفكاره في مجال الثقافة إيجابية بناءة ، بعيدة عن الجمود والانحراف ، فهو واحد من أبناء المدرسة الوسطى التي تؤمن بالبناء على الأساس .. يحارب أدب الأبراج والانطواء ، ويدعو الى تذليل الأدب للكفاح من أجل الحرية والوحدة : « جدير بالكتّاب أن يقودوا أممهم الى ضفاف الحرية بعد أن تحطم أغلال الاستعباد بما ينفثونه من أدب واع يدفع للمجد » .

« نريد أن نقضي على أدب التدهور والانحلال الذي يخدر الشعب ، ويهدهد غرائزه ، ويصور له الحياة دعة وأمناً لا شقاء فيها ولا كفاح .. »

وهو يرى الشعر تعبيراً صادقاً عن خطرات النفس ، وخلجات القلب ، وهمسات الروح ، وتصويراً بارعاً للانفعالات والعواطف والأحاسيس ، في إطار البيان المشرق ، واللفــظ الموحي .. وعلى الشاعر الحر أن يعيش عصره ، ويستلهم الأحداث التي تمر بوطنه وأمته ، وتبعث فيها روح الكفاح والنضال لتنطلق الى طريق الحرية .. »

* * *

وبعد : فإن كتاب الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين عمل ضخم كبير ، لولا أنه قد فوت بعض الإحصائيات والمراجعات ، وربما كان مرجع ذلك الى أن الرسالة قد عاشت سنوات بعد إعدادها ، وقبل طبعها ، مرجأة في ظل مشاغل الأساتذة والباحثين ، ولقد كنت أود لو أن أخي السوافيري قد أحصى فعلاً كل ما كتب عن فلسطين ، ولم ينس كل ما صدر عنها من مؤلفات ، وما كتبه الكتّاب عنها في فصول وانتاج ... ولم يكتف ببعض الأسماء القريبة منه ، وجانب آخر وددت لو أنه اهتم له وأولاه رعايته ، ذلك هو جانب الشعر العربي في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، عن مأساة فلسطين خلال هذه الفترة ، وهو شعر كثير وجدير بالدراسة فعلاً ، فهذا الجناح الأيسر من الأمة العربية قــد تأثر بقضية فلسطين وعاشها ونظم فيها ، في عديد من مناسباتها وأحداثها ، وأمامي شعر كثير في فلسطين لشعراء الجزائر والمغرب بالذات ، أمثال سحنون ومحمد العيد وعلال الفاسي وعبد الله كنون وكثيرون آخرون .. ولقد كان هذا الشعر خليقاً بان ينال عنايــة الباحث كما عني بشعر المهجر .. فلعله يضيف الى دراسته من بعد فصلاً عن هذا الشعر المغربي العربي.. وما تزال فلسطين حية وما يزال الانتاج حولها قوياً متدفقاً ..

● كامل السوافيري : المعلم الفلسطيني الذى يتقدم الآن نحو إحراز إجازة الدكتوراه في الشعر الفلسطيني ، له ابحاث متعددة في الرسالة والثقافة والأديب ، والقلم .

(٢٦)

كامل كيلاني
أدب الطفل العربي

في (٩ اكتوبر ١٩٥٩) عبر كامل كيلاني الى الشاطىء الآخر مودعاً دنيانا بعد حياة عريضة ، وبالرغم من قصرها فقد حفلت سنواتها الستون بأعمال ضخمة في الأدب والفكر ، كان أعظمها اخراج « أدب طفل عربي » لأول مرة في تاريخ الأدب العربي الحديث .

وقد التفت « كامل كيلاني » الى هذا العمل في الثلاثينات من هـــذا القرن ، ورأى ضرورة إنشاء هذا الفن ، ثم فرّغ نفسه له وجرد فكره وظل يعمــل ثلاثين عاماً كاملة ، كتب خلالها ألف قصة ، وكان ما طبع منها موضع تقدير الباحثين والمستشرقين والمغتربين ، وتربى عليه جيل من أعلام العـــالم العربي وأمرائه ووزرائه ، الذين كانوا يزورون القاهرة ليقدمون له عبارات التقـــدير .

وليس ابلغ في هذا المجال من تقدير أمير البيـــان « شكيب ارسلان » له حين لقيه لأول مرة في القاهرة .

وقد عاش كامل كيلاني حياته كلها يعمل دون أن يلقى جزاء عمـــله ،

شأن الأحرار في عهود الظلم، والعباقرة في ظل الأيام المظلمة. فقد عجز اهل جيله أن ينصفوه ، فلما جاءت الثورة تطلع الى الأمل الذي بدأ يتحقق ، حين تعالت الصيحات من كل مكان تطلب منحه جائزة الدولة ، باعتباره رائداً لفن جديد من فنون الأدب العربي ، شق الطريق اليه في قوة وارتاده من بعده كثيرون يدينون له بالسبق والفضل .

وقد ولد كامل كيلاني في حي القلعة بالقاهرة في ٢٠ اكتوبر ١٨٩٧ ، في منزل يطل على جبل المقطم ، وحفظ القرآن ودخل مدرسة أم عباس ، وأد من حفظ الشعر ، وعكف على دراسة الأدب الانجليزي ، وانتسب الى الجامعة المصرية القديمة . وحضر دروس الأزهر الشريف وعمل مدرساً وموظفاً في الأوقاف ،حتى بلغ منصب سكرتير مجلس الأوقاف الأعلى ، وعمل بالصحافة ، وكتب في النقد الأدبي وتأديب التاريخ والترجمة وتحقيق الأعمال الأدبية الكبرى . ثم جرد نفسه لأدب الطفل .

وكانت آخر قصصه « نعجة الجبل » التي كتبها وهو في فراش المرض الخطير الذي اودى به ، ولعله أراد أن يسجل مشاعره حين يقول في هذه القصة : « لطالما أفسد المتعجلون المتسرعون – من بني الإنسان – جهود المصلحين من أبناء « عبقر » ، ووقفوا عقبة كأداء في حياتهم ، وحاولوا بينهم وبين إتمام رسالتهم ، بعد أن غاب عنهم فهم مغزاها والنفاذ الى جليل معناها ، فلم يبق أمامهم الا أن يوصدوا أبواب النجاح في طريقهم ، ويتعقبوهم باللوم والتخذيل ، ويقيموا السدود والعراقيل ، حتى اذا ماتوا وضح لهم ما ند عن فهمهم وغاب عن علمهم ، فانطلقوا يقيمون لهم التماثيل واللوحات ، ويغدقون عليهم الرحمات ، بعدما أسلفوا في حياتهم من إساءات وألحقوا بهم من شرور وأذيات » .

وبعد ، فان المستعرض لوقائع حياته يجدها حياة خصبة عريضة على الرغم من قصر أيام هذه الحياة (١٨٩٧ – ١٩٥٩) ، التي لم تزد عن اثنين وستين

عاماً . وآية الأدلة على مـــدى خصب هذه الحياة وعمقها ، أن صاحبها عمل مدرساً وموظفاً وصحفياً وكاتباً . فهو بذلك قد جمع مختلف ألوان العمل الذي يمكن ان يساهم فيه المفكر العربي . فقد كان لا بد ان يكون الكاتب في الشرق وله عمل محدود ورزق ثابت ليستطيع بعد أن ينتج في الادب ، ويستغـــل أوقات فراغه للبحث والدراسة ، ولا بد أن يكون ذلك على حساب صحتـه وأعصابه فإن المفكر الذي يشغل سحابة يومه بالعمـل الروتيني الحكومي ، وينفق فيه من جهده وروحه ، لا يلبث أن يجد نفسه قد قضى على فترة الراحة اليومية ، ليبدأ عملا جديداً يقذي فيه عينيه طوال ليـله ، ولا شك أنـه عمل فكري أشد مشقة وعنتاً .

وقد شغل الكيلاني نفسه بالعمل الأدبي في أربعـة ميادين كبار : « النقـد الأدبي » فقد دخل كامل كيلاني في مساجلات أدبية عنيفة ، كان فيها مثلاً من أمثلة استقامة النقد وبراعة الحجة والقدرة على كشف الزيف وتسديد الضربات، ولكنه لم يواصل العمل في هـذا الميدان فقـد أحس بأنه يستطيع أن ينتج في ميدان آخر .

ولعل طبيعته الهادئة التي تصدف عن الشجار والدخول في السجال والتي ترغب عن العنف والتحدي هي التي صرفته عن النقد صرفاً ، ظهر واضحاً فيما بعد ، عندما امتدت المعركة من جانب واحد بينه وبين واحد من زملاء صباه ، فاستمرت ثلاثة أعوام أو تزيد لم يشترك فيها كامل كيلاني بكلمة واحدة . واستطـاع أن يغمض عينـه ويرخي أذنـه ويقفل فمه ، فـلا يرى ولا يسمع ولا يتكلم .

وله في ذلك حكمة بالغة ، فهو يرى أن السجال سينحرف بصاحب العمـل الأدبي أو الرسالة الكبرى عن « الطريق الواسع » ، فيدخل في حواري ضيقة وأزقة تقتل وقته ، فلا يكاد يصل مرة أخرى الى مكانـه الا بعد أن يستنفـد وقتاً طويلا . وربما لا يهتدي الى طريقه مرة أخرى .

واشتغل «بتأديب التاريخ» : فحول التاريخ الى عمـل أدبيٍّ ، وهو مذهب كان إذ ذاك جديداً (سنة ١٩٢٦ وما بعدها) ، لم يقتحم سبيله الا القليل من الكتّاب ، فأخرج مصارع الخلفاء ومصارع الاعيان · حيث عرض صوراً رائعة لنهاية حيوات الأعلام . ورسم هذا المواقف بريشة قصصية رائعة ، وهـذه هي بواكيره في الاتجاه الى القصة .

واشتغل بالترجمة : فترجم قصصاً رائعة من أدب الغرب .. راعى فيها أن يقدم لنا فنوناً من الأدب الفرنسي والانجليزي متخيرة .. توسع آفاق أدبنا وتمده بالخصب ، وكان في ذلك يرد على الانحراف الذي عرفت بـه (الترجمـات) التي كانت تختار قصصاً منحرفة مكشوفة ، تعرض مشاكل في المجتمعات الفرنسيـة لا تهمنا كثيراً .

وفي ميدان الترجمة تجلى مدى ما أنفق كامل كيلاني من جهد في سبيـــل تعـــليم نفسه ، والتوسع في فهم اللغتين ، والنقل منها وتذوق آثارهما ، فهو واحد من ذلك الجيل الذي تعلم على الكتب وحدها ، ووصل في ذلك الى حد كبير ، وإن كان كامل كيلاني قد ترجم « نظرات في تاريخ الاسلام، لدوزي » و « فن الكتابة » فإن عمله الأكبر في الترجمة إنما جاء بعد .

واشتغل بتحقيق الأعمال الأدبية الكـبرى ، وفي مقدمـــة ذلك « رسالة الغفران » وديواني ابن الرومـــي وابن زيدون وكان في ذلك رائداً ، فلم تكن رسالة الغفران عندما حققها كامل كيلاني معروفة الا في حدود قليـلة ، وفي بيئات علمية ضيقة ، فلما حققها وأذاعها لقيت رواجاً عجيباً وإقبالاً بارعاً ، مما دعا الى إعادة طبعها مرتين بعد المرة الأولى مزيدة منقحة . ولقد كان كامل كيلاني فيها (مدرساً) أكثر مما كان (أديباً) ، فانه قد اخفى الأجزاء العسيرة عن القارىء وقدم له السهل اليسير منها ، وأراد أن يتدرج حين اعد « المكتبة العلائية » وأصدر منها كتابين باسم « حديقة أبي العلاء » .

ولا يزال يوجد في مكتبة الكيلاني رسالة الغفران مترجمة الى اللغة العربية

على حد تعبيرة لي ، فقد رأى أخيراً أن يترجمها الى اللغة الوسطى القريبة من مستوى الأفهام ، وكان تحقيقه لديوان ابن الرومي عملا جديداً أيضاً في الوقت الذي لم يكن هذا الشاعر معروفاً للكثيرين ، وكان هو واحداً ممن عرفوا الأدب العربي لمعاصريه ، وكان زميلاه هما المازني والعقاد . وله مراجعات وتحقيقات في دواوين أبي العلاء وابن زيدون ما تزال محفوظة في أضابير ضخمة ، تدل على مدى الجهد الضخم الذي بذلة فيها .

ولكن هذ العمل كله لم يكن هو العمل الأصيل الذي أعدت الأقدار كامل كيلاني له ، وإنما كان كله مقدمات للعمل الكبير الذي توفر له وتخصص فيه ذلك هو كتابه « أدب الطفل » ، التي بدأها في نهاية عام ١٩٢٩ بقصة « الدجاجة الصغيرة الحمراء » ، والتي لم يلبث أن انصرف إليها إنصرافاً كاملا ، ونفض يده من كل عمل أدبي سواها ، وشحذ كل أسلحته لها وبدأ يقرأ لها ، قراءات متصلة في الأدبين الفرنسي والانجليزي ، وكان قد أجادهما إجادة تكاد تساوي إجادته للغة العربية .

ولا شك أن لهذا العمل أعماق بعيدة في نفسه ، صورها في أكثر من حديث ، حين كان يقرأ في مطلع صباه بإفاضة وشراهة قصص سيف بن ذي يزن والظاهر بيبرس والاميرة ذات الهمة وغيرها ، وحين اتصلت أسرته بأسرة يونانية كانت سيدتها تقص عليه وهو طفل أساطير الإغريق ... ثم كان لعمله كمدرس دوره الضخم في فهمه لعقليات الأطفال وأهوائهم ، أعانته على حسن الاختيار والتدرج والتوفيق في الحديث معهم ، وقد طبق هذا على ابنه « مصطفى » فجعله معمل الاختبار وصار يرقي بالقصة مع ارتفاع سنه .

وكان لدراسته في الأزهر فترة من الزمن ، تأثيرات في حياته بقي أثرها عنده في عمق فهمه للغة والنحو والصرف والمنطق ، وكان لاتصالاته بالمستشرقين والعلماء الاجانب في الجامعة المصرية القديمة من ١٩١٧ الى ١٩٣٠ أثرها الكبير . أضف الى هذا أثر الصحافة . فقد اشتغل بها منذ سنة ١٩٢٢ محرراً لمجلة الرجاء ،

ثم اضف الى ذلك ما أكسبه إياه اتصاله بالتمثيل والموسيقى وفنون المسرح المختلفة ، مما أعانه على حسن الرواية وبراعة الحبكة ، فاذا أضفنا الى ذلك روحه الانسانية الشاعرة الرقيقة ، فقد كان كامل كيلاني الى ذلك شاعراً مقلاً ومجيداً ، استطعنا أن نعرف سر اللمسات الرائعة في قصصه ، فهو قد مزج الأدب العالمي بالأدب الشرقي بعوالم الأساطير ، وأضاف ذلك كله الى تراثنا العربي الضخم العريق . بعد أن رسم لشخصيتنا العربية ملامح واضحة ثم جعل من هذا الحصاد الضخم كله سداً لهذه الشخصية ولحمة ، فقد كان حفيا بأن يقدم لنا قصصاً يحمل طابع الانسانية والعربية معاً ، قائماً في هدفه على المثل العليا والقيم الروحية ، فكان يحرف القصص القديمة في نهايتها القاتمة او الآثمة أو السوداء الى شيء من التفاؤل والضوء والخير ، فهو خير بطبيعته قد آمن برسالة « أدب الطفل » إيماناً قلبياً صادقاً ، ثم جعل عقله في خدمة هدفه ، ولم يجعل للكسب المادي سبيلاً الى نفسه . فقد ظل يعمل في أدب الطفل قرابة خمسة عشر عاماً ، دون أن يجني منه ثمرة تشجع العامل أو تدفعه ، ومع ذلك فإن هدفه الكبير الذي كان مؤمناً به كان يدفعه في صدق وعزيمة .

والكيلاني رجل له إصرار وفيه صلابة ، على الرغم من مظهره الهادىء اللين البسام ، وقد جعل من هذا العمل هدفاً كبيراً وغاية عظمى ، فهو إنما أراد أن يحارب عملاً ضخماً كان موجهاً ضد اللغة العربية ، لتمزيقها أو تحطيمها أو تغليب العامية عليها ، فبلغ به البراعة أن ترك ميدان المعركة والجيل كله الذي يشترك فيه ، واندفع يتعامل مع الجيل الجديد ، فاستطاع أن يتصل به بواسطة آبائه وأهله ، عن طريق قصصه الملونة المطبوعة طبعاً أنيقاً ، والمكتوبة في سطور جميلة مشكلة ، كان يقدم هذه القصص للآباء الذي قد يكونوا لا يتكلمون كلمة واحدة في بيوتهم باللغة العربية ، فاذا بها تنفذ الى الأطفال فتنشىء فيهم هذا اللسان العربي البليغ المستقيم ، وبذلك نشأ جيل جديد أصدق إيماناً باللغة العربية من آبائه أنفسهم ، وهكذا كسب المعركة ، وفوجىء الذين كانوا يحملون الدعوة بها وهي تنهار مرة واحدة .

ولقد اندفع كامل كيلاني يكتب في عنف ، ويسحق أعصابه سحقـاً ، فكتب الف قصة ... ولقد قتلته هذه القصص قتلاً ، ففقد نظره دفعة واحدة ، ثم استرده بعد عملية جراحية ، ولكنه لم يكن هنـاك سبيل لأن يتوقف ، فمضى يستأنف عمله مرة أخرى في عنف ، ولكن معدته وأعصابه لم تحتمـل الجهد الذي استنزف الشباب والصحة والقوى فانهار مرة واحدة ...

ولم يطبع حتى الآن من هذه القصص الا ما يقارب المائتين .. والباقي في الطريق ، كل ما هنالك أن الماكينة لم تتوقف بعد وفاتـه لأن ابنه « رشاد » مؤمن برسالة والده مدفوع الى حماية تراثه ، متجه الى أن يمضي في العمل ويكمله ، ويكتب القصة أيضاً على هذا النحو الذي بدأه والده العظيم .

فإذا ذهبنا نتصور الأثر الذي تركه هذا العمل الكبير ، فإننا نجد الآن أن هناك أكثر من ثلاثين كاتباً عربياً يكتبون قصة الطفل ويغرقون بها السوق. ولقد كانت فرحة كامل كيلاني باتساع الميدان وكثرة العاملين فيه بالغة ، فهو ليس الأناني الذي يريد أن يقف العمل عنده وحده ، ولذلك فقد سارع عندما تعدد الكتّاب ، أن نشر في الصحف فصولاً ومقالات يشرح « فن قصص الطفل وأساليب كتابته » ، وما يجب أن يراعى لخلق ثقافة عربية ذات طابع عميق قائم على أساس المثل العليا والقيم والخير ورعاية هذه البراعم الصغيرة من أبنائنا .

وما تزال آثار كامل كيلاني في أدب الطفل تتميز بروحها العاليـة ، وصدق توجيههـا ، وعمق إيمان كاتبها بالأمانة : أمانة هـذا الطفل الذي يشكله كاتب القصة .

ولم يقف كامل كيلاني عند هذا الحد ، بل إنه ترجم قصصه الى الفرنسية والانجليزية والألمانية والاسبانية ، وأراد بذلك أن يقتحم كل بلد يعرف اللغة العربية دون أن تكون اللغة الاجنبية حائلاً دونه ، وبذلك استطاع أن يصل الى أندونيسيا والباكستان والهند والى المغرب ، والمناطق التي يحتلها الفرنسيون

في أفريقيا وأسيا ، وكذلك المناطق التي تغلب فيها اللغة الاسبانية والالمانية ، كما ترجمت قصصه من ورائه الى اللغة الصينية والعبرية .

وكان فرحه بهذا العمل بالغاً ، فهو موكل بأن يخدم اللغة العربية في مشارق الارض ومغاربها ، ما استطاع ذلك وما واتته الوسائل .

وبالرغم من هذا الجهد الضخم فقد مات كامل كيلاني فقيراً ، ولو أراد أن يلعب بالذهب لإستطاع . ولكنه كان صوفي الروح ، يؤمن بأن المنار الخالد الذي أقامه سيضيء شواطىء الأمة العربية أبد الدهر دون ان يخبو نوره . وفي ذلك له خير جزاء وعزاء .

● كامل كيلاني : رائد أدب الطفل في العالم العربي توفي في أكتوبر ١٩٥٩ . ألّف قصة للأطفال على مدار العمر ، طبع منها حتى الان (٢٠٠ قصة) ، ترجمها للانكليزية والفرنسية والاسبانية .

من مؤلفاته : روائع من قصص الغرب ، صور جديدة في الأدب العربي ، عشر أغان مختارة مع تدوينها بالموسيقى (بالاشتراك) ، مصارع الخلفاء ، مختار القصص ، نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي ، موازين النقد الأدبي (مترجم) ، رسالة الغفران : حديقة أبي العلاء ، على هامش الغفران ، ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام (ترجمة) ، فن الكتابة وكيف ندرس فن الانشاء .

(٢٧)

محب الدين الخطيب
مجلة الفتح

من خلال ثمانين عاماً تبرز صورة « الصحافة الاسلامية » واضحة عندما أصدر جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في باريس جريدة « العروة الوثقى » عام ١٨٨٤ ، فكانت الحجر الأول في بناء الصحافة الاسلامية في العالم الاسلامي ، تحمل طابع الدفاع عن الاسلام وتحرير بلاد المسلمين ، أو على حد تعبير السيد محب الدين الخطيب : « الدفاع عن حقائق الاسلام وحقوق المسلمين » ، ولكن العروة الوثقى لم تستمر طويلاً ، فقد توقفت بعد أن أصدرت ثمانية عشر عدداً ، حيث واجهها الاستعمار بحرب عنيفة ومقاومة ضخمة في كل أنحاء العالم الاسلامي ، وفرض على من توجد عنده غرامة كبيرة . ولكن « العروة الوثقى » كانت البذرة الأولى لهذا اللون من الصحافة الاسلامية الذي إمتد الى يومنا هذا .

فقد تأثر بها « محمد رشيد رضا » الشاب السوري الذي هاجر الى القاهرة من بعد ، وصحب الشيخ محمد عبده ، وأصدر المنار أكثر من ٣٨ عاماً ، منذ عام

١٨٨٩ تقريباً الى عام ١٩٣٧ ، فكانت بذلك أضخم الصحف الاسلامية أثراً وأطولها عمراً .

وفي ظل المنار صدرت مجلات إسلامية عديدة ، كان أبرزها مجلتي الزهراء والفتح للسيد محب الدين الخطيب ، أما الفتح — موضع دراستنا اليوم — فتمتاز بأنها كانت صحيفة إسلامية أسبوعية ، إستمرت في الصدور ربع قرن ، وتركت حصيلة ضخمة من الثقافة والفكر ما تزال مورداً للباحثين .

وقد صدرت صحف إسلامية عديدة في خلال هذه الفترة في مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، منها « التمدن الاسلامي » في دمشق و « شمس الاسلام » في تونس ، و « البصائر » في الجزائر و « البشرى » في حيفا و « أم القرى » في مكة المكرمة و « الاعتصام » في حلب و « المرشد » في بغداد و « مرآة المحمدية » في جاكرتا و « المهدي » في ماليزيا و « منبر الاسلام » و « الازهر » في مصر .

ومع ذلك فقد ظلت الفتح ما بين ١٩٢٦ — ١٩٥١ أبرز هذه الصحف وأقواها وأبعدها أثراً في العالم الاسلامي وأقدرها انتشاراً في مختلف الأقطار .

ويرجع ذلك الى منهجها الذي يختلف عن منهج « المنار » ، ولكونها تصدر أسبوعية وليست شهرية ، مما حقق لها مقارعة الأحداث قرعاً مقارباً ، وأتاح لها مصافحة القارىء المسلم على مدار الأسبوع ، فضلاً عن اهتمامها الواسع بالفكر الاسلامي أكثر من السياسة ، وتنشئة جيل ضخم من كتّاب العالم الاسلامي ، بينما كانت المنار تقتصر على كتابات صاحبها وقليل جداً من أصدقائه .

* * *

وفي مراجعة شاملة لصحيفة الفتح تبرز حقيقتان كبيرتان :

الأولى : أنه ما من قضية كبرى من قضايا العالم الاسلامي ظهرت في تلك الفترة الا وكانت « الفتح » مشاركة فيها على المدى الواسع والعميق .

الثانية : أنه ما من كاتب معروف الآن في العالم العربي أو الاسلامي الا وقد كتب في « الفتح » في مطالع شبابه .

وقد حاول السيد محب الدين الخطيب أن يصور هدف صحيفـة « الفتح » فكتب في العدد الاول من السنة التاسعة « ١٣٥٣ هـ » يقول :

« إن الفتح أنشئت لماشاة الحركة الفكرية الاسلامية ، وتسجيل أطوارها، ولسد الحاجة الى حاد يترنم بحقائق الاسلام، مستهدفاً تثقيف النشيء الاسلامي، وصبغه بصبغة إسلامية أصيلة ، يظهر أثرها في عقـــائد الشباب وأخلاقهم وتصرفاتهم ، وحماية الميراث التاريخي الذي وصلت أمانته الى هذا الجيـل من الأجيال الاسلامية التي تقدمته » .

وعقيدته في ذلك أن المسلمين أمة واحدة ، نفوسهم تتصل بآصرة واحدة ، وعقولهم تشترك في عقيدة واحدة ، وقلوبهم تتحرك بأمنية واحدة .

وكانت دعوته الى «التشريـع الاسلامي»،«فهو أرحم واعدل من كل تشريـع تقدمه أو جاء بعده ، ومن الخير لحضارة الغرب والقائمة الآن أن تقوم الى جانبها حضارة اسلامية ، تتذوق بها الانسانية لوناً آخر من ألوان التعاون الانساني » .

والواقع أن « الفتح » قد صدرت في خلال فترة عصيبة من تاريخ أمتنـــا السياسي والثقافي ، فان سنوات الثلاثينات والاربعينات كانت أقسى السنوات على العالم الاسلامي والفكر الاسلامي ، من ناحيـة محاولات التدمير والتغريب الضخمـــة التي حمل لوائها النفوذ الغربي ، لتثبيت كيانه ، وهدم صرح القوة الفكرية والروحية في هذه الامة .

وهذا هو العمل الحقيقي الذي تصدت له الفتح وحملت لواءه ، ومن هنا لم تكن الفتح «صحيفة » وانما كانت « مدرسة » ، فان محب الدين الخطيب الذي جمع اليه كتاب العالم الاسلامي حيث كانت صحيفته منبراً لهم ، لم يلبث أن جمع اليه قادة الفكر في مصر ليقيم جمعية « الشبان المسلمين » ، اتقف في وجه الحملات

الضخمة الموجهة الى الاسلام ، وقد سارت الفتح والشبان في طريق واحـد ، تستمد من إيمان هذا الرجل وحماسته وصدقه . « القوة » ، وهو طاقة كبيرة ما تزال حية تعمل حتى الآن في مجال خدمة الفكر الاسلامي ، وهو على وشك أن يكمل الثمانين من الاعوام أطال الله عمره .

وقد واجهت الفتح قضايا التغريب والإلحاد ، وحمـلت على كل الفرق في الطوائف والمذاهب المنحرفة المضللة ، ولم تترك الفتح كـلمة تنشر في الصحف المصرية أو العالم الاسلامي فيها اتهام للاسلام دون أن ترد عليها وتكشف زيفها كما قدم صاحبها كتاب « الغارة على العالم الاسلامـي » حيث كشف لأول مرة عن مؤامرات التبشير .

وكانت أمانته للشمال الافريقي كبيرة ، فقد حمل لواء الجهاد مع هـذه الأقطار على نحو باهر خلال حروب محمد عبد الكريم الخطابي في الريف المغربي ، ومقـاومة الظهير البربري في المغرب ، ومؤامرات التجنيس في تونس ، وقد حفلت الفتح بكتابات المغاربة حتى يمكن أن تكون الفتح مرجعاً هاماً لكل باحث عن قضايا الفكر والثقافة في المغرب العربي في هذه الفترة .

أما بالنسبة للعالم الاسلامي ، فأنت تقرأ لمحمد مكين الصيني ، وخـالد شلدريك رئيس الجمعيـة الاسلامية في لندن ، وأخبار المسلمين في البوسنة والهرسك ، ودراسة حالة المسلمين في ميلبار ، والاسلام في شرقي إفريقية ، وقضية فلسطين ، وتعليم اللغة العربية في الهند ، ومشكلة المسلمين في الحبشة ، وعرب زنجبار ، والاسلام في أندونيسيا ، وعن مسلمي بولونيا ، وكتابات أبو عبد الله الزنجاني من إيران ، ومقالات مطولة عن حاضر مسلمي الهند وغابرهم ، وعن المعاهد في طرابلس وبرقة .

وبالجملة تجد موسوعة عامة لتطورات الفكر والسياسة في العالم الاسلامـي كله ، من أقلام : شكيب أرسلان الذي يكتب أسبوعياً تقريباً من جنيف ، مستعرضـاً كل ما يكتب عن الاسلام في أوروبا ، واسماعيل الندوي وشبلي

النعماني ومسعود غانم الندوي في الهند ، كما تنشر شعر بهجت الأثري عـــالم العراق الكبير ، وديوان مجد الأسلام للشاعر أحمـد محرم الذي نشرت أول فصوله في الفتح ، ومحمد تقي الدين الهـــلالي ، والشاعر محمد النجمي ، والشيخ مصطفى الرفاعي وعمر الدسوقي ، ومن المغرب أحمد بـلافريج ، ومن القوقاز عبد الرشيد ابراهيم تلميذ جمال الدين ، والدكتور علي مظهر ، وعجاج نويهض من (لبنان) والمرحوم الدكتور مصطفى السبـــاعي (دمشق) والدكتور يحيى الدرديري ومحمد كامل القصاب ومحمد الهمياوي .

* * *

وآراء السيد محب الدين الخطيب واضحة صريحة ، وأسلوبه مشرق مضيء ، يقول : « أنا أعرف نفسي منذ طفولتي أنني من أنصار الاصـلاح الإسلامي ، وكنت ولا أزال أفهم من هذه الكلمة الاصطلاحية أن الاسلام الذي كان عليه محمد – صلى الله عـليه وسلم – وأصحابه كما فهمه منهم التابعون ، فالاصــــلاح الاسلامي هو تجديد الاسلام من البدع الطارئة عليه ، وتخليصه من الدخيل الذي يحسب الجـــاهلون أنه منه وما هو منه ، ومن الاصـلاح الاسلامي بث روح النشاط بين المسلمين ، لإحياء مقاصد دينهم ، وتحقيق أغراضه ، وحسن التعبير عنه من الدعوة اليه ، وتأليف الكتب عن حقائقه وأحكامه وتاريخه » .

وهو يدعو المسلمين الى العمل الايجابي من أجل اللحاق بركب النهضـــة حتى لا يتخلفوا عنه ، داعياً الى اعداد رجال يقتبسون الصناعات ويتخصصون في العلوم اللازمة لها ، والاكثار من أهل المعرفة في فنون القوة .

وعنده « أن الاسلام ليس دين عقيدة وعبادة فحسب ، بل الاسلام ثقافـة طبيعية لأرواح ألفته وعاشت به وكان مبعث قوتها وسبب اعتلائها » والاسلام « فوق ذلك تاريخ أمجاد تحسدنا عليها جميع الامم ، وامجاد العروبـة لا ينفك تاريخها من تاريخ الاسلام بحال ، فإذا حيل بين الاسلام والعروبة كانت العروبة

جسماً بلا وح وكان الاسلام روحاً بلا جسد ، وهذا تاريخنا العربي من بدايته الى اليـوم ، لا نراه ازدهر وانتعش وكان مظهر العز والقوة ، الا في الأدوار التي كان الاسلام يزدهر فيها وينتعش ، ويأخذ نصيبـه من العز والقوة ، ويكذب من يظن أن العرب تنمو عزتهم بروح أجنبية غـير روح الاسلام » .

ولست أعرف كاتباً كان أوضح رأيـاً في ربط الاسلام بالعروبة على النحو الذي يحقق فلسفة اليقظة وبناء النهضة ، كما يفعل السيد محب الدين الخطيب منذ سنوات طويلة ، فهو مؤمن بإمتزاجها واستحالة انفصامها ، وهـذه عبارته :

« إن العروبـة ظئر الاسلام ، وإن العروبـة والاسلام كلاهما من كنوز الانسانيـة وينابيع سعادتها ، اذا عرف أهلها قيمتها وإذا أتيحت لها أسباب الظهور للناس على حقيقتها . وإذا ذلت العرب ذل الاسلام» ويقول: «إننا عرب قبل أن نكون مسلمين ، وهذا حق ، ولكن لم نكن شيئاً قبل الاسلام » .

ولقد عاش السيد محب الدين الخطيب حياته يدعو الشباب الى التخصص في دراسة الفكر الاسلامي وتخليصه من الكتب القديمة وعرضه على النحو العصري الحديث ، الذي يتيح للمثقفين الانتفاع به ، ويرد عنه عادية خصومه حـين يتهمونه بالضعف أو الاضطراب ، يقول : « أنا منذ بضعة عشر عاماً الى الآن أدعو شبابنا المثقف الى التخصص في دراسة نواحي هذا الميراث المجيـد ، وتنظيمه على النحو الذي يفعله المستشرقون والمستغربون ، ولكن بنية غير نيتهم فهم ينظرون اليه بعين الأم الى بناتها ، أما المستشرقون فيدرسونه ليستعينوا به على استعمار أوطاننا . ونحن ندعو شبابنا أن يدرسوه ليصلوا به آتينا بماضينا ، ويتخذوا من قوته حصناً يجمع شتاتنا ويحمي حمانا » . كما يدعو الى إعادة النظر في عـلوم الاسلام وتاريخ أهـله ، بعرض الحوادث الخطيرة في تاريخنـا على نحو جديد .

ويؤمن السيد محب الدين الخطيب بالتربية ، فالعلم وحـده — عنده — لا ينهض بالأمم فلا بد من « التربية » .

ويصور ازمة العالم الاسلامي في افتتاحية مجلة « الزهراء » عام ١٩٢٤ وهي مجلة ممتازة استمرت حتى عام ١٩٣٠ يقول :

«تأصل في نفسي منذ أعوام كثيرة أن الناطقين بالضاد لا تثبت لهم نهضة ما لم تكن قائمة على دعامتين :

١ — المرونة في الاقتباس من حضارات الأمم الاجنبية في وسائل القوة .

٢ — الاحتفاظ بتقاليدنا التاريخية وأوضاعنا الوطنية ولساننا الأصيل . وقد قص علينا التاريخ أن الأقوام الذين جمدوا عند تقاليدهم ، فلم يدعموا كيانهم القومي بدعامة الارتقاء والتجديد ، ضرب على قلوبهم بالانسداد فتصرف فيهم أهل القوة والحياة ، كما أنبأنا التاريخ أن الاقوام الذين استهواهم تقليد الأغيار من أهل القوة ، فيما ينافي كيانهم القومي فانسلخوا من سجاياهم وفرطوا في تقاليدهم وتركوا حدود لغتهم مباحة لاحتلال اللغات الاخرى ، لم ترحمهم الأمم الأجنبية التي ذابوا فيها فاهتضمتهم حتى لم يبق لكيانهم الاجتماعي من باقية » .

وهو يركز دعوته في الاصلاح على هدفين : « المدرسة والصحافة » فيقول :

« إنما أتينا من جانب المدرسة والصحافة ، فهما اللتان كونتا رجالنا وجماهيرنا كما نرى ، ولن نتقي شر الاحتلال الذي نتوقع أن ينزل بنا ، ما لم تكن لنا مدارس وصحفاً مؤسسة على جلاميد من الايمان بالهداية المحمدية ، لا تزعزعها الزلازل ، وعلى دعائم من الوفاء للتاريخ العربي يفني الزمان ولا يفنى » .

وفي حدود هذه المفاهيم الواضحة للاصلاح في مجال الثقافة والفكر مضى قلم السيد محب الدين الخطيب يكتب في خلال خمسين عاماً ، وكانت أنصع فتراته « صحيفة الفتح» التي تكون الآن أكثر من ٢٥ مجلداً تضم ٣٠ألف صفحة قوامها:

١ — الدفاع عن حقائق الاسلام .
٢ — حقوق المسلمين .

٣ – مقاومة تيار الالحاد .
٤ – الرد على خصوم الاسلام .
٥ – حماية اللغة العربية .
٦ – بعث الأمجاد والمفاخر الاسلامية .
٧ – إحياء التراث الاسلامي .
٨ – تصحيح التاريخ الاسلامي .
٩ – امتزاج العروبة بالاسلام .
١٠ – السلفية النقية في العودة الى منابع الاسلام الأولى .

وقد واجهت الفتح متاعب كثيرة حيث كانت تطارد من السلطات الاستعمارية في المغرب العربي بالذات .. فكانت تهرّب في جيوب الناس وأسنمة الجمال ، وتغير كليشيهاتها بإسم صحف أخرى كالمنهاج والاخلاق حتى تستطيع أن تصل الى الناس . يقول : « كانت الفتح قبل نشوب الحرب – الكبرى الثانية – تطوي أنحاء العالم الفسيح ، وتعلم أهله ما يجب عليهم لدينهم ووطنهم ، فلما شبت نار الحرب أقفلت الطرق وامتنع على الفتح أن تجتاز مسالك الجهاد في معظم جهات العالم » .

وهي التي ورثت المنار بعد وفاة رشيد رضا ، وشاركت مع مجلة نور الاسلام والازهر في الدعوة الاسلامية ، واعترف الدكتور كمبغماير المستشرق الألماني بدورها الهام وأثرها الواضح .

ومع ذلك فلم تكن « الفتح » هي قصارى جهد هذا العلامة الكبير .

فلا شك أن تاريخ السيد محب الدين الخطيب حافل بأعمال أخرى منذ مطالع شبابه ، حيث اتجه الى تأليف الجمعيات الوطنية السرية في دمشق ، هذه البذرة القوية التي حققت من بعد بروز القومية العربية ، على نحو حقق للعرب القدرة على ابراز كيانهم ، ومقاومة عوامل إفنائهم في الدعوة الطورانية التي حملت لواءها تركيا .

وكانت مطالعات الشباب هي الأسس الأولى في تكوين شخصيته ، فقد قرأ مؤلفات « ابن تيمية » ودعوته الى معرفة الاسلام من ينابيعه الصافية .

وهو في خلال إقامته في دمشق واستانبول ، كان حفياً بأن يعمل من أجل تثقيف جيل وانشاء طلائع مؤمنة بالعروبة والاسلام معاً ، وظل دائباً على هذا العمل مع أصدقاء شبابه : عارف الشهابي وصلاح القاسمي وصالح قنباز ولطفي الحفار وزكي الخطيب ورشدي الحكيم . وكان لأبيه الروحي الشيخ « طاهر الجزائري » أثر وفضل ، فقد أوسع له مجال القراءة والاطلاع في دار الكتب الظاهرية ومجال ترجمة المقالات من اللغة التركية ، ينشرها في مجلة ثمرات الفنون ، وينشىء حلقته الصغيرة ، ويقرأ الكواكبي ، ثم يدرس في بيروت بعد دمشق ، وفي استنبول عام ١٩٠٥ يلتحق بكليتي الحقوق والآداب ، ويجمع شباب العرب هنالك في ندوة تقرأ فيها قصاصات الصحف العربية ، ويعلّم الطلاب مع صديقه عارف الشهابي اللغة العربية والتاريخ العربي مكاشفاً أصحابه بأن هذا العمل نهضة .

فلما عاد الى دمشق اتخذ من « قهوة محمد آغا » مكاناً لدعوته .

وفي اليمن حيث عمل مترجماً ، مضى في إنشاء فروع لجمعية النهضة العربية ، واستطاع في مطالع شبابه أن يصلح بين الإمام يحيى وبين العثمانيين .

فلما عاد الى دمشق في ظل حكم الاتحاديين هاجمهم بالكلمة والكاريكاتير ، حتى أثارت مجلة « طار الخرج » ضجة كبرى لعنف الهجوم ، مما اضطره الى الهجرة الى بيروت فاستانبول فالقاهرة حيث وصلها في أغسطس سنة ١٩٠٩ .

ومنذ ذلك اليوم استقر المجاهد في أرض الكنانة ، ليبدأ صفحة جديدة من الجهاد في مجال الفكر والثقافة الاسلاميه عن طريق القلم والصحيفة والمطبعة ، فأسس المكتبة والمطبعة السلفية والتحق بتحرير المؤيد ، وعمل مع علي يوسف أستاذه الأول في الصحافة المصرية ، وعرف أحمد تيمور صديقه الكبير في مجال

العمل الاسلامي . وكان واحـداً من أساتذة مدرسة دار الدعوة والارشاد التي أسسها ١٩١٣ الشيخ رشيد رضا يدرّس علم الجيولوجيا وسرائر الله في الكون .

ولم يترك العمل السياسي في مجال العروبة خلال هذه الفترة ، حيث انتدب في أوائل الحرب العالمية الأولى لمفاوضة أمـراء العرب ابن سعود والامام يحيى والإدريسي باسم جماعة الوحدة العربية ، وهنالك في البصـرة اعتقله الانجليز « اكتوبر ١٩١٤ » ، حيث أمضى سبعة أشهر يقرأ في السجن تاريـخ الكامل لابن الأثير ومروج الذهب للمسعودي .

ثم اختير لتحرير جريدة القبلة عام ١٩١٦ ، حيث أعلن شريف مكة الثورة العربية ، وكان مع كامل القصاب مستشارين للأمـة العربية لدى الشريف ، فأمضى ثلاث سنوات أحس بعدها أنه لا سبيل الى توجيه هذا العاهل نحو آمال الامة العربية ، وهذه عبارته :

« كان الحسين وأولاده يعيشون بعقلية عصور الإقطاع التي تعتبر الأوطان مزارع للملوك » .

ويرى السيد محب الدين أن الحسين بن علي لم يقم لأجـل أن تكون للعرب دولة ، بل قام لأن الاتراك كانوا على نية إبطال إشرافية مكة « فتغذى بهم قبل أن يتعشوا به » .

فلما انتهت الحرب دخل دمشق ، وعمل مع جمعية العربية الفتاة ، وأشرف على صحيفتها « العاصمة » ، ثم تحول وجه الأمر بالنسبة لفيصل واستسلم للحلفاء، وضاق بجهاد العربية الفتاة ، ووافق على انذار غورو باحتلال دمشق ، وسافر سراً ليلة الغزو حيث جالد السوريون قوات العدو في موقعة ميسلون ، التي انتهت بدخول الفرنسيين دمشق ، هنالك ركب السيد محب الدين مع أقاربه تجـار الجمال براً على الابل من دمشق الى القاهرة بوصفه تاجر جمال عربي حتى وصل الى يافا ، ومنها استخرج جواز سفر باسم « عبد الله أبو الفتح » سافر به من يافا الى

القاهرة ، حيث التحق بتحرير جريدة الأهرام « ١٩٢٠ – ١٩٢٥ » ، حيث عاد الى إنشاء المكتبة السلفية وإصـــدار الزهراء سنة ١٩٢٤ ، ثم أسس الفتح « مايو ١٩٢٦ » .

وأتيح له في هذه الفترة أن يقوم بعمل ضخم لا ينسب اليه الآن ولا يذكر فضله في إعداده وانشائه ، وهو جمعية الشبان المسلمين عـام ١٩٢٧ مع صديقه الشيخ محمد الخضر حسين وأحمـــد تيمور باشا واثني عشر شاباً وفريــق من أهل الفضل .

يقول السيد محب الدين : « كان الداعي الى تأسيسها استفحال حركة التبشير من جهة ، ونشاط حركة الالحاد باسم التجديد ، وذلك على أثر تنكر الكاليين في تركيا للاسلام ، وقد كتم خبرهـــا عن الصحف حتى بلغ أعضاؤها (٣٠٠ عضو) .

ويقول : كنت أنا وأحمد تيمور باشا والسيد محمد الخضر حسين حريصين على أن تكون هذه المؤسسة الأولى للاسلام في مصر ، قائمة على تقـــوى من الله واخلاص ، وكنا حريصين على أن يتولى ادارتها رجال يعرفون كيف يصمدون لتيار الالحاد الجـارف ، بعد أن استولى المتابعون للإستعمار على أدوات الثقافة والنشر في العالم الاسلامي وفي مصر على الخصوص ..

ويقول : وكانت الجمعية حدثاً كبيراً من أحداث الحركة الاسلامية ، لأن دعاة الإلحاد والتحلل كان قد استفحل أمرهم ، وظنوا أن قيادة الأمة قد أفلتت من أيدي ممثلي الاسلام وانتظمت الى أيديهم » .

وقد أخذ خصوم الفكرة يتربصون الدوائر بصاحب الفكرة ، حتى نشر مقاله عن أمان الله خان وكمال أتاتورك ، فقدم للمحاكمة على أنه هاجم ملكين فقبض عليه وأودع السجن وحقق معه ، وحكم عليه بالسجن شهراً واحداً مع إيقاف التنفيذ .

ولم يتوقف للسيد محب الدين الخطيب عن عمله في مجـــال خدمة الاسلام والفكر الاسلامي ، فقد ظل يصدر صحفه كما أصدر عدداً من المؤلفات والآثار أبرزها : اتجاه الموجات في جزيرة العرب ، والرعيـــل الأول في الاسلام ، وموسوعة الحديقة في ١٣ جزءاً ، فضلا عن مئات المقالات والأبحاث في مختلف الصحف ، أهمها تحريره لمجلة الأزهر ست سنوات « ١٩٥٢ — ١٩٥٨ » .

* * *

وبعد .. فماذا فعل السيد محب الدين بعد ما تقدم منذ ذلك التاريخ ؟ هل آثر الاعتكاف في مكتبته الضخمة التي فاقت مكتبتي أحمد زكي باشا وأحمد تيمور باشا فبلغت ٢٠ ألف مجلد حتى الآن ؟ هـــل استراح الرجل وهو في حدود الثمانين ؟ إنه بدأ عملا جديداً ضخماً بعيد الأثر في الفكر الاسلامى .

فقد أجرى تحقيقاً علمياً لأكـــبر كتاب في السنة هو « الجامع الصحيح للبخاري » حيث يجري طبعه الآن في ثمان مجلدات كبار باسم « توضيح الجامع الصحيح للبخاري » ، مع إضافات وتحقيقات للأعـــلام ، وربط لأحاديث البخاري المجزأة على أبواب الفقه ، حتى يستطيع من ينتفع به أن يلم إلماماً كاملا على النحو الأصلي لها قبل تجزئتها ، وما يزال كل مـــار في شارع الفتح حيث يسكن السيد محب الدين ، في أرض الفسطاط أول بقعة عرفها العرب والاسلام في القاهرة ، يراه في جلبابه الأبيض وراء زجاج مكتبته عاملا لا يمل وساهراً لا ينام ، يريد أن يختم حياته الطويلة باذن الله والمباركة العريضة بعمل نافع وكبير . ولكن السيد محب الدين ما يزال يطمع في أن يقدم أعمالا أخرى أهمها تأليف كتاب « الايمان الإسلامي » وكتاب « ذكريات جيلي » وتنظيم وطبع مقالاته وتجديد آلات المطبعة السلفية واكمال وتنظيم وفهرست مكتبته العظيمة ، كتب الله له التوفيق .

● السيد محب الدين الخطيب : من أعلام النهضة العربية ، ومؤسس جمعية الشبان المسلمين ، وصاحب مجلتي الفتح والزهراء ، ورئيس تحرير مجلة الازهر .

من مؤلفاته : اتجاه الموجات في جزيرة العرب ، الأزهر ماضيه وحاضره ، ايمـــان العرب في الجاهلية ، تاريـــخ مدينة الزهراء ، تقويم المجلة السلفية . الحديقة ١٩٣٥ (عشر مجلدات) ، مع الرعيل الأول ، ثاغور ، اللمحة الدرية في الدولة النصيرية، (لسان الدين الخطيب) تحقيق ، الغارة على العالم الإسلامي (ترجمة) ، حملة رسالة الإسلام الأولون .

★

(٢٨)

الدكتور محمد صبري
دراسات الشعر العربي المجهول

لا يمكن تقدير العمل الأدبي الكبير الذي قام بـــه الدكتور محمد صبري السربوني بنشر « الشوقيات المجهولة » في جزئين كبيرين ، دون النظر الى الجهد الضخم المبذول في سبيل استخلاص خمسة آلاف بيت من الشعر ، الذي قاله أمير الشعراء شوقي ، ونشر في بطون الصحف والمجلات خلال أربع وأربعين عاماً (١٨٨٨ — ١٩٣٢) ، وهي الأعوام التي مضى شوقي يذيع شعره خلالها في صحف : المؤيـد ، والظاهر ، واللواء ، والأهرام ، والمجـلة المصرية ، والصاعقة ، والموسوعات ، وعشرات من المجلات ..

فقد صدرت الأجزاء الأربعة من ديوان شوقي بين عامي ١٩٢٦ — ١٩٤٣ ، وتم طبع الجزأين الأول والثاني في حياة شوقي ، والجزأين الاخيرين بعد وفاته ، ومر على ذلك ثمانية عشر عاماً حين فاجـــأ الدكتور محمد صبري قراء الأدب العربي بهذا العمل الضخم ، الذي كرس نفسه له أكثر من خمس سنوات ، وهو يواصل البحث في دور الكتب بالقاهرة ، ويصعد الى دار الكتب في القلعة ،

وهو عمل شاق حيث كان يمضي ساعات الصباح يقلب المجلدات القديمـــة صفحة صفحة ، يواجه في كل ورقة الأتربة والمشقة ، في هذا السن الذي يعبر بـه الى الحلقة الثامنة من عمره المبارك ، في صحة جيدة وقوة روحية عارمة وإيمان صادق بالعمل الذي جرد نفسه له ، ليضيفه الى أعماله الضخمة في ميدان الأدب والتاريخ . ويمكن القول بأن هذا الجزء الذي صـــدر عن مطبعة دار الكتب الرائعة الحروف ، بهذا الحجم الكبير ، وعلى الورق الأبيض المصقول في ٣٢٠ صفحة ، على أنـــه يمثل (آثار شوقي التي لم يسبق كشفها أو نشرها) خلال الفترة من (١٨٨٨ الى ١٩٠٣) — هو أعظم كتاب عربي صدر خلال عـــام ١٩٦١ ، لما بذل فيه من جهد ضخم ، لم يقف عند البحث عن شعر شوقي المجهول في هذا العديد من الصحف والمجلات ، بل ينسحب أيضاً على المراجعات الدقيقة التي قام بها بين ما نشر منه في ديوان شوقي الأول الذي أصدره عام ١٨٩٨ ، وبين ما أسقطه شوقي عندما أعـاد طبع ديوانه عام ١٩٢٦، وعشرات من القصائد التي عدّل شوقي ألفاظها وعباراتها ، وعشرات القصائد التي حجبها شوقي، منها ما يتصل بمدائحه لتوفيق وعباس، وما يتصل بهذا من هجائه لعرابي في عديد من القصائد ، وكذلك ما يتعلق بأشعاره الأخرى التي كان ينشرها بدون توقيع أو بتوقيع رمزي ، مثل « النديم » و « السائح » و «ش» و «أنا» و «شرم برم» و «محتفل» و «شاب مصري» . ولا شك أن كشف هذا التراث للشاعر العبقري العربي ، عمل رائع جدير بتقدير الباحثين والمؤرخين على السواء، فقد تكون خسارة كبرى للأدب العربي أن تظل هذه الخمسة آلاف من أبيات الشعر مدفونة في بطون الصحف والمجلات ، ليس فقط لقيمتها الأدبية ، ولكن لأنها تلقي أضواء جديدة على شخصية شوقي وملامحه النفسية وحياته وتفكيره وعلى الأدب والتاريخ المعربين المعاصرين ، فان شوقي حين طبع ديوانه في حياته كان حفياً بان يبرز صورة أدبه ونفسه في أبهى حللها ، وكذلك حرص أبناؤه وآله في الجزئين اللذين طبعاهما من بعده ، اما اليوم فان الباحث المؤرخ الدكتور محمد صبري إنما يضع أمامنا « شوقي » في صورته الحقيقية عارياً من كل تذويق

وافتعال وتعمل . وهذه خدمة جليلة القدر للباحثين والمؤرخين وكتاب التراجم، في سبيل رسم صورة صادقة لهذا الشاعر الفحل ، الذي كان يختفي أحيانا وراء الرموز ليقول مـا في نفسه من هجـاء العرابي أو لجريدة المقطم أو للمويلحي وغيرهم .

وإذا كان شوقي قد حجب جانباً من شعره لظروف حياتـه أو للظروف السياسية التي كان يعشيها ، فإننا الآن في حل من هذه العوامل ، فقد أصبح شوقي وشعره ملكاً للتاريخ ، ولذلك فان هذا العمل الضخم الذي قام بـه الدكتور محمد صبري سيكون موضع تقدير التاريخ ، والبحث العلمي ، وإن صورة شوقي وحياته وتاريخه الأدبي الذي كتب في عشرات من الدراسات ، سيصبح ناقصاً أو محرفاً بعد ظهور هذا العمل الجديد .

ولقد كان الدكتور صبري جديراً بأن يقوم بهذا العمل ، لأنه قد بدأ حياته الأدبية معاصراً لهذا الجيل كله ، متأثراً بـه إذ نظم في مطلع حياته الأدبية الشعر ، وأصدر عام ١٩١٠ كتاب « شعراء العصر » ، فكان قائماً على حد قوله في تيار الحركة الأدبية الكبرى التي بدأت في أوائل القرن ، وكان على اتصال برجالها جميعاً . وقد عرف اسماعيل صبري عام ١٩١١، وتردد على المنفلوطي قبل ذلك (١٩٠٩) ، حيث أرشده الى كتاب « الوسيلة الأدبية » ، وكتب له مقدمة كتاب « شعراء العصر » ، وعرف « حافظ » و « شوقي » ، وقد عني بدراسة « الشوامخ » فأصدر العديـد من الدراسات عن امرؤ القيس وذي الرمة والبحتري .

وعني بكتابة دراسات باكرة عن البارودي واسماعيل صبري ، وله كتاب عن خليل مطران جمع فيه نثره ، وكشف عن ذلك الجانب من حياته الفكرية الذي ظل مطوياً أمداً طويلاً .

فإذا أضيف الى هذا أن الدكتور صبري من الرعيل الأول ، الذي سافر الى أوربا قبل الحرب العالميـة الأولى للدراسة في باريس ، حيث أحرز دكتوراه

« الدولة » من السوربون عام ١٩٢٤ بأطروحته عن « نشأة القومية المصرية » ، وهو أول مصري أحرز دكتوراه الدولة. وله الى ذلك أبحاثه الضخمة في التاريخ والأدب ، مما يؤهله للقيام بالتحقيق العلمي لآثار شوقي المجهولة . وقد تعرف الى الكثير منها بما أسماه « أنفاس شوقي » التي وصفها (نمامة عليه) ، وقال عنها « الأنفاس النامة التي تؤلف بامتزاجها بالأسلوب امتزاج الروح بالجسد ، ملامح الشخصية قد دلتنا في كثير من المواطن على شعر أحمد شوقي المنشور بإمضاء مستعار ، كما أن ذلك الشعر « المجهول » كثيراً ما كان ينبه الأصداء البعيدة النائمة في فؤادنا فنستدل بها عليه » . وقد أشار الدكتور صبري الى نقطة البدء في هذا العمل الضخم بأنه وجد في أوراقه كثيراً من شعر شوقي ، كما أن صديقنا له هو اللواء علي سري قد أطلعه على قصائد مهمة نظمها شوقي ، إحداها في « الله » ، وأخرى في « رثاء علي بهجت » ، وقال : أنـــه وضع تحت تصرفه بسخاء مجموعة طيبة من شعر شوقي الذي لم ينشر ، فكان ذلك اكبر حافز لي على مواصلة البحث والاستقراء في مكتبة القلعة ، حتى بلغ ما جمعته حوالي مائة قصيدة وأكثر ، وكانت مفاجأة كبرى لنا « وقـــد دعاه هذا الى الاهتداء بمعاصري شوقي من اصدقائه ، فلم يجد منهم حياً الا الأستاذ طاهر حقي ، الذي كان يصدر الجريدة الأسبوعية عام ١٩٠٦ ، ولم يقف عمل الدكتور صبري عند شعر شوقي وحده ، بل إنـــه جمع له نثراً من نثره الكثير المنشور في مختلف الصحف ، من بينها رواية « ذل وبتان » التي نشرها في مجـــلة الموسوعات عام ١٨٩٩ ، ومن بينها مقالات بلغت ٢٢ مقـــالة تحت عنوان « بضعة أيام في عاصمة السلام » .

وقد تحوط الدكتور صبري لعمله ، شأن العلماء الباحثين ، فقال : « إننا لا ندعي العصمة في كل ما نسبناه لشوقي في شعر مجهول النسب ، ولكن في استطاعتنا أن نؤكد أنه اذا كان هناك خطأ ، فان نسبته للخطأ لا تتجاوز قصائد أو مقطوعات معدودات : وحسبنا أننا وجدنا قصائد جليلة لشوقي

صحيحة النسب مئة في المئة ، ظهرت في الصحف في صور مختلفة حتى سنة وفاته ولكنها لم تنشر في الديوان » .

ولقد أغرق الدكتور صبري الديوان بتعليقات متعددة، كشف فيها الجوانب التاريخية المختلفة للقصائد ، وفصل المناسبات السياسية المتعددة ، التي لم يكن للقارىء العـادي أن يتفهم جوانب القصائد بغير هـذه الأضواء الكاشفة على الاحداث .

وفي طريق الدكتور صبري الى الديوان صحح الكثير من التواريخ المتداولة عن حياة شوقي وموضوعات شعره ، على نحو تحقيقي وتحليلي يكشف عن مدى الجهد في المراجعة والمقارنة بين الكتابات المتعددة . فعرض للسنوات الماضية من دخول شوقي مدرسة الحقوق ، وسفره الى أوربا ، وعودته الى مصر ، وتحدث عن فترة نفيه في اسبانيا ، وأثر الرحلتين الأولى الى باريس للتعليم ، والأخرى الى المنفى في اسبانيا ، في شعره وتطور تفكيره وفنه .

ويرى الدكتور صبري أن الفترة التي قضاها شوقي – وهي أقل من سنتين دراسة وإقامة في باريس – لا تكفي للتغلغل في البيئة ودراسة آدابها ولغتها ومدنيتها بدرجة تساعدها على التحرر في يسر من القديم ، مع التوفيق بين آداب الشرق والغرب ، خصوصاً وأنه قضى معظم أيامه هناك في الاشتغال بالنظم والأدب العربي .

ويرى أن قصائد المديح التي كان يرسلها من أوربا بين سنتي ١٨٩١ و ١٨٩٣، ليس فيها جديد من المعاني وحديث الأساليب الا القليل ، وعنده أن شوقي ظل طول حياته كالبحر يرمي بالدر ويرمي بالصدف ، فهو لم يتطور كما تطور مطران .

ويرى « أن نضوج شوقي تم بعد المنفى ، ولكنه لم يتطور » ، ويعجب من أنه في فترة الخمس سنوات التي قضاها في ربوع الأندلس « ١٩١٥ – ١٩١٩ »

لم ينظم الا بعض القصائد وأرجوزة دول العرب وعظماء الاسلام التي ظهرت بعد وفاته ، ولكن هذه الأرجوزة وما اليها كانت محصولاً ضئيلاً . ولا شك أن موقع الأندلس ومشاهدها كان لا بد أن يوحي الى شاعرنا ديواناً ضخماً في شعر الطبيعة وفلسفة الحياة .

ويرى أن شوقي في الواقع عاش في هذه الفترة بذهنه وخياله في البيئة العربية القديمة ، غريباً عن تلك المواقع والمشاهد التي لا تشحذ إلا ذهن من يعرفها ويهيم بها ويستلهمها ويقف منها موقف العابد ويعيش في أجوائها ، ومن هنا كانت ضآلة محصوله الحقيقي أو « الصافي » ، ومن ناحية الكم والكيف معاً ، ويظهر أن شوقي نظم كثيراً وكتب كثيراً في الأندلس ، ولكن بغير نظام ، كما أنه لم يحسن اختيار ما يلائمه من المواضيع وطريقة معالجتها .

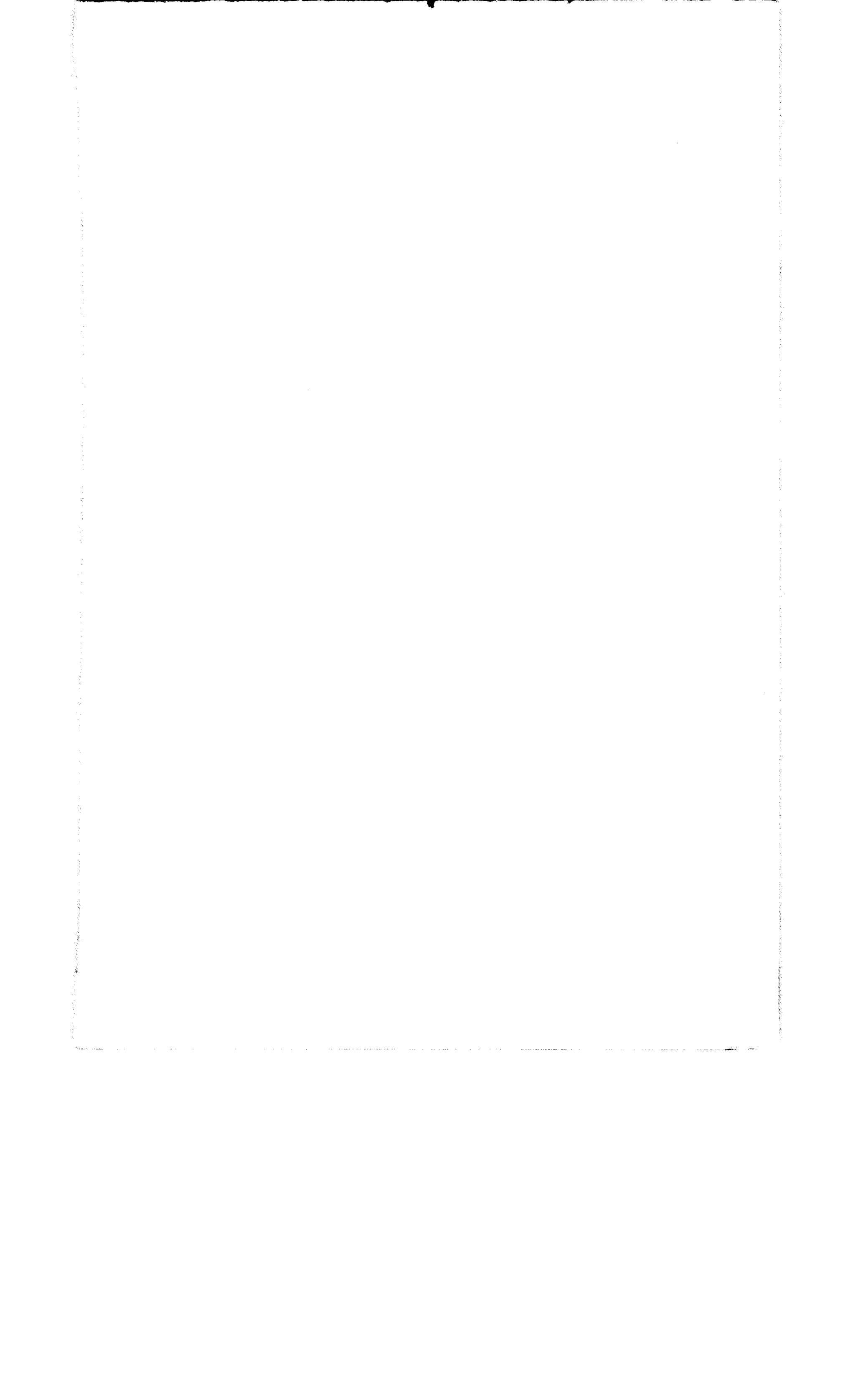
ويرى « أنه كان لاغتراب شوقي نتائج بعيدة ، ظهر أثرها في رواياته التي ختم بها حياته ، في بعض قصائده الكبرى التي نظمها بعد عودته ، ولكن لا يمكن القول أن إقامة شوقي بالأندلس أحدثت ثورة في أدبه ، كإقامته الأولى في فرنسا زمن الدراسة » ولا شك أن هذا الرأي يختلف عما ردده كثير من النقاد من أثر المنفى في شعر شوقي ، وفي تحوله من المديح الى مواجهة الأحداث الوطنية والاجتماعية في الوطن .

وبعد .. فان كتاب « الشوقيات المجهولة » حدث ضخم في تاريخ أدبنا العربي المعاصر ، سيكون – كما ذكرت – بعيد الأثر في تصحيح وقائع حياة شوقي ونفسيته وترجمة حياته ، لما كشف عنه من شعر حجبه شوقي عن الناس ، أو نشره بغير توقيع ، أو بتواقيع رمزية ، يصور أهواءه وسخرياته وتنفساته التي طواها عن مواقع النظر . وللتاريخ أن يسجل للدكتور محمد صبري آية التقدير للجهد الضخم المبذول بهمة تجعلنا نتضاءل أمامه ونحني الرؤوس إجلالاً للعلم الذي وهبه .

● الدكتور محمد صبري : أول مصري نال دكتوراه دولة من السوربون . ولي عديداً من المناصب أهمها مدير إدارة المطبوعات ، يعكف منذ أربع سنوات على إعداد دراسة شاملة عن الحضارة العربية الإسلامية في افريقيا يكتبهـا بالفرنسية ، ولد عـام ١٨٩٠ تقريباً .

من مؤلفاته : محمود سامي البارودي ، أبو عبـادة البحتري ، اسماعيل صبري ، ذو الرمة ، امرؤ القيس ، الشوامخ ، ادب وتاريخ ، تاريخ الحركة الاستقلالية في إيطاليا، الإمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر، ذكرى الماضي أو سياحة في المجهول ، كتاب القناة وأسرار التدويل ، تاريخ مصر الحديث من عصر محمد علي الى اليوم ، الشوقيات المجهولة (١٩٠٤ - ١٩٣٢) ، خليل مطران : أروع مـا كتب ، شعراء العصر (١٣٢٨ ﻫ) .

✶



(٢٩)

الأمير مصطفى الشهابي
التحقيق اللغوي والعلمي

الحق أن الأمير مصطفى الشهابي منذ وضع قلمه على الورق، وكتب ونشر في الصحف، هـو حتى اليوم والى ما بعد من عمره الطويل المديد : الرجل الذي أقام للزهر والخيل والنبات دولة كبرى في الأدب واللغة العربية .

ولقد حاولت أن أتتبع ذلك في مطالع حياته ، فأخذت أراجع مجـلة المقتطف منـذ عهد باكر ، حتى التقيت به لأول مرة – ولا أدري إذا كان قد فاتني مرة أو مرات – في أبريـل ١٩٢٥ ، يكتب أولى شظاياه اللغوية بعنوان « أوصاف الخيل العربية في باب الزراعة » ، منذ ذلك اليـوم سجل الأمير مصطفى الشهابي مخطط حياته العلمية ورسم اتجاهها ، ومنذ قريب أصدر الأمير إحدى موسوعاته عن الألفاظ الزراعية ، وفي خلال ثلاثين عاماً كاملة كان ذلك أبرز عمله وانتاجه ، حتى في كتاباته الأدبية المرسلة والانشائية تبدو دولة الزهر والخيل والنبات قائمة ممتدة . ومجموعة الكتب التي عرض لها منذ اتصل بمجلة المجمع العلمي العربي في (آب عام ١٩٢٤) كانت كلها عربيـة وأفرنجية متصلة بالزراعة والزهر والنبات .

فهو في مجلة المقتطف يؤكد في أولى أبحاثه عن « تقدم العلوم والفنون الزراعية » أنه قرأ منذ ثلاثة عشر عاماً بحثاً لعالم أجنبي في خزانة بايزيد في القسطنطينية ، قال هذا عام ١٩٢٦ ومعنى هذا أنه كان معنياً بهذه الدراسات منذ عام ١٩١٣ فيما قبل الحرب العالمية الأولى .

ويكتب مصطفى الشهابي للدكتور صروف يلفت نظره الى الفرق بين كلمة عالمية وكلمة أطروحة ، ويحبذ إطلاق كلمة (أطروحة) تعريباً لكلمة (Thèse) الفرنسية ، التي تعني الدكتوراه ، ولكنه يعارض أن تسمى شهادة العالمية ، ويقول أن إطلاق كلمة عالمية على الدكتوراه سيلزم إطلاق كلمة عالم على من ينال هذا اللقب ، ويفرق بين كلمة سافان(Savant) التي يطلقها الفرنسيون وكلمة عالم ، ويرى أن العالمية لا تعطى الا لمن أصبح كهلاً وأفنى العمر في التخصيص والتنقير ، أما الدكتوراه فقد يحصل عليها الشاب في سن السابعة والعشرين من العمر ، ويقترح أن يطلق على حامل الدكتوراه لقب « حكيم » فيقال حكيم في الحقوق ، أو حكيم في الآداب ، أو حكيم في الطب .

وفي مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق) يكتب أل ما يكتب في آب ١٩٢٤ تحت عنوان « قطع أغصان الشجرة » ، ويقول أنه يباشر طبع كتاب (الأشجار والأنجم المثمرة) ، وهكذا يبدأ عمله بالتخصص في اللفظ الزراعي ، ولا يلبث أن يكتب عن « ألوان الخيل وشياتها »، ويبدأ نشر موسوعته الأولى تحت عنوان ألفاظ عربية لمعان زراعية عام ١٩٢٥ ، ثم لا يلبث أن يختار عضواً في المجمع العلمي بدمشق ، فيلقي في آذار ١٩٢٧ محاضرته الاولى بعنوان (تاريخ الزراعة في العالم العربي) .

* * *

ولقد لفت نظري منذ وقت بعيد وأنا أراجع معاركنا الأدبية ، موقفه من

اسماعيـل مظهر ورده عليه في محاولته اتهام العرب بالعقلية الغيبية ، وقد ذكر فيما ذكر أن لديه من خلط علماء يونان في كثير من العلوم ما يملأ مجلداً ضخمـاً ، ومعنى هذا أنه كان قد واصل عمله العلمي بالرغم من مشاغله بمنصبه الرسمي إذ ذاك (مدير أملاك دولة سورية) .

وقد تناول الرد على اسماعيل مظهر مرتين ، مرة في المقتطف ومرة في مجـلة المجمع بعد صدور كتابه (ملقى السبيل) ، حيث قـال : « أن المؤلف ذكر حـظ العرب في البحث اليقيني فعزا إليهم نقائص وهنات كثيرة ، وكاد يجردهم من كل أثر علمي أو أدبي أو فلسفي ، وقد حاد المؤلف عن جـادة الإنصاف ، لأنه لو سار في محاكمته على أسلوب يقيني محض ، لوجب أن يذكر أن العرب لم ينفردوا بأسلوبهم الغيبي ، بل كان هذا الأسلوب طابع مدنية من عاشوا معهم ومن درجوا قبلهم ، وحسب العرب أن يكونوا في التاريخ حفظة العلوم القديمـة وموسعينها على قدر ما بلغته كافة البشر ».

* * *

وفي مراجعاتنا عن الأمير مصطفى الشهابي ، لم نلبث أن طلع علينا في مجلة الهلال في ابريل ١٩٣٠ بأولى مقالاته التي توالت ، وكان لها طابعها المختلف عن مقالات مجلتي المقتطف والمجمع العلمي العربي، لأنها تتناول موضوعات في الأدب الخالص ، فهو يتحدث فيهـا عن فلسفة اللذة ، وفلسفة القوة ، ثم غرائب المطالعات ، وحقيقة الانسان وغرائب المصانعين ، وحديث بغل وحمار ..

ولكن الأمـير مصطفى الشهابي لا ينسى دولة الأزهار والخيل والزرع ، وهو مهما تحدث عن ابن خلدون وعارض رأيه في أن الكتب التي تكوّن الأديب أربعـة ، هي : الكامل للمبرد ، وأدب الكاتب لإبن قتيبة ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والنوادر لأبي علي القالي . وأنه لا يجوز إرسال جملة مطلقة كهـذه الجملة ، وحصر أصول الأدب العربي في نطاق هذا العدد المحـدد من الكتب ،

وأن هناك من الكتب الأخرى الرائدة ما يحتاج اليه الأديب كالأغاني والعقد الفريد ، وخزانة الأدب البغدادي ، ورسائل الجاحظ وابن المقفع وسهل بن هارون وعمرو بن مسعدة ... بالرغم من هذا كله يعود الأمير مصطفى الشهابي الى دولة الأزهار والخيل والزرع ...

فما هو إلا أن يطلع على القراء بذلك المقال الذي أحببته منذ مطالع صباي وقرأته مراراً، واختارته الهلال في كتابها « أحسن ما قرأت » والمقال بعنوان: (الأزهار المداسة) .

وفيه يقول الأمير مصطفى الشهابي :

« كنت البارحة أنحدر الى دمشق من داري في سفح (قاسيون)، فاسترعى نظري جار يدوس أزهاراً ذابلة ملقاة في الطريق ، منها ورد وخطمي وخشخاش ومرغريتا وغيرها ، تتخللها زهرات صغيرات من الفل ، وكلها قد حال لونها وفسدت رائحتها وزالت نضارتها، فتذكرت على الفور قصيدة مرقصة بعنوان « السجينة » لشاعرنا العربي الأمريكي الرقيق « ايليا أبو ماضي » ، وصف فيها زهرة كانت تعيش في الحقل قريرة العين ، هادئة البال ، سعيدة بالتراب الغني والهواء النقي ، والطل الندي ونور الشمس ودفئها ، وتراقص الأغصان على موسيقى الرياح ، وتطاير الفراش في النهار وتهاوى النيازك في الليل ، فإذا بغاو من غواة الزهر يقطفها مغتبطاً بها ، فيضعها في زهرية ، ويسجنها في غرفة ، فتتألم وتتفجع ، وتستغيث من نظرات العشاق وأنوف النشاق ... فلا رقص الكواكب في القصر كرقص الفراش في الحقل ، ولا المصابيح المتلألئة في الأبهاء كنور الحباحب الضعيف في الدجى ، ولا عطر الحسان في عبقه كريح التراب في فعونه .

ونظرت الى الجار يطأ تلك الأزهار دون أن يعتذر أو يتخشع ، فدنوت منه وبدأت الحديث ، ثم قلت : أو تدري يا صاح أن من الأزهار الجميلة النادرة نبتات تظل تجيء كما يرويدون من حيث تكوينها وتزينها ، وأنهم بعد هذا

يبيعون النبتة الواحدة من الصنف الجديد بعشرات من الجنيهات . هلا أنعمت نظرك في أوراق هذه النبتات التي تدوسها ، وأدركت أشكالها العجيبة من سنانية وسهمية ومستطيلة واهليلجية وكاملة ومقرصنة،الى عشرات من الصفات المختلفة ، وقد اتخذ الناس كثيراً من أنواع الزهر علامات يدل كل منها على ضرب من النعوت المستملحة ، والصفات المستحبة ، فالبنفسج للحشمة ، والورد للجمال ، وشبه الشعراء أعضاء الحبيب بصنوف الزهر ، فجعلوا الخدود كالورد، واللحظ كالنرجس ، والشفة كالشقائق ...

هل جال في خلدك أن تدخل قبة الصخرة في القدس ، أو المسجد الأموي في دمشق ، فترى تزاويق الزهر وتعاريج الورق في زخرف عربي أخاذ ، هل عرجت على تدمر أو بعلبك فرأيت الأزاهر كيف تنقش في الصخر الأصم ، ولكم نقش المصريون الأقدمون زهرة اللوطس وورقتها على هياكلهم وأبنيتهم ونقودهم وحليهم ، وكم سحرت أوراق الاقحوان فناني اليونان والرومان فأوجدوها في أعمدة قصورهم وهياكلهم » ...

* * *

وهكذا يمضي الأمير الشهابي في الحديث عن الزهر ، حديث الأدب هنا وحديث العلم هناك ، في معاجمه وأبحاثه المضطرده ، في مجامع دمشق والقاهرة وبغداد ، وهو في حياته يعيش علمه وفكره ، فاذا عرض لنا مذكرة من يومياته أحسسنا مدى أثر بيئته في فكره وعلمه — يقول في إحدى مذكراته :

« كنت منذ بضعة أيام ممتطياً صهوة جواد من العراب، يسير بي الهوينا تحت مسوق أدواح الغوطة الفيحاء، في نفر من الصحاب كلهم من هواة الخيل وفرسان الليل ، وقد رق الهواء في أيام الخريف الذهبيات ، وسكنت الطبيعة ، وجعلت الشجر تنتشر أوراقها وتتعرى لترقد في الشتاء ، وكانت الخيل قد شاركت الطبيعة في مظاهرها فكانت تسبح بنا سبحاً ، وهي أسلس ما تكون قياداً إلا

فرساً جموحاً هجيناً أبطره القعود، وفرط العلف، فكان ينزو بصاحبه ويفرمض ويعرض (يمشي بالعرض)، حتى إذا اقترب من فرسي شخر ونخر بصوت أجش، ورفع إحدى رجليه ولبط لبطة استقرت في داعصتي (صابونة الركبة) فترجلت أعرج ، وأنتفض من الألم كالقرور أرعده البرد ، أو كالمحموم نفضته الحمى ، وفي دقائق معدودات حملتني سيارة الى الدار ، فجلست في حديقتها أستريح على مقعد قبل بلوغ إحدى الغرف، فما راعني الا زنبور يدوم في الهواء، وكأنه عقد علي موعداً، لانني ما كدت أجلس حتى انقض على سبابة يدي اليمنى فلسعها لسعة ورّمتها ثلاثة أيام ... »

* * *

وهكذا يبدو الأمير مصطفى الشهابي منذ مطالع حياته وهو يعيش في دولة الزهر والخيل والزراعة ، ومن هنا كان التصاقه الروحي والفكري بالعمل اللغوي الذي تخصص له ، والذي برز فيه وعد مرجعاً من مراجعه في العالم العربي كله ...

واذا كان لي أن أستطرد في هذا المجال ، فإني أقول أن الشعر وهو إحدى مواهب الأمير الشهابي قد عاش أيضاً في مجال الزهر والخيل ...

ففي قصيدته التي ودع بها القاهرة عام ١٩٣٥ يقول :

القلب كالزئبق الرجراج ينفض من نار التفرق خفاقاً وموارا
يهيم في مصر ملتاعاً نيش وقد سار القطار بنا ليلا فما سارا
يا ساكني عين شمس هل بأضلعكم مأوى تحلون فيه ذلك الجارا
وهل تعلونه من ماء نيلكم علا يسكن في سودائه نارا
جاءوا إليّ بأزهار الوداع وقد بلت دموعي أرداناً وأزهارا
تصوح الزهر إشفاقاً علي فما أصبت منه ذكي العرف معطارا
أواه يانسمات النيل ساجية كم ضمك الصدر إشهاقاً وزفارا

وكم تعطرت بالريحان وامتزجت ربالك بالروض أفنانـاً ونوارا
ما أن نشقتك حتى خلت منتعشاً ماء الحياة جرى بالجسم أنهـارا
وخلتني عدت مخضل الإهاب الى شرخ الشباب قوي العزم جبـارا
مهلاً أحبائي إني عائد لكم مهما تعنت هذا الدهر أو جارا
لولا دمشق وروض الغوطتين لما تخيرت غير جنان النيل لي دارا

* * *

وبعد فإن تاريخ الأمير مصطفى الشهابي وكفاحه في مجال اللغة العربيـة يطول ، وقد عاد إلي بالذاكرة إليه عبارته في أول كتابه (المصطلحات العلمية في اللغة العربية) حين يقول ، أنه بدأ منذ ثلاثين سنة ينشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق والمقتطف بالقاهرة باكورة هذه المصطلحات في علوم الزراعة وفي عـلوم المواليد الثلاثة من نبات وحيوان وجماد ، وأنه ثابر عليها الى اليوم حتى تجمع له نحو عشرة آلاف لفظة عربية أو معربة ، وضعها قبالة الألفاظ الفرنسية أو الأسماء العلمية ، وقد ضم معجم الألفاظ الزراعية المطبوع في دمشق ١٩٤٣ وفي القاهرة ١٩٥٧ معظمها .

وقد تحدث الأمير مصطفى الشهابي في مطالع بحثه عن نشوء اللغة العربيـة ووسائل نموها بالاشتقاق والمجاز والنعت والتعريب . وتصدى لما واجهـا إزاء نقل العلوم في النهضة الحديثة ، وجهود المجامع الثلاث في دمشق والقاهرة وبغداد في هـذا الصدد ، ومضى يتحدث عن هذه المصطلحات حتى أغنى الباحث في مجالهـا .

واذا جاز أن نتحدث عن الأمير مصطفى الشهابي خارج مجال اللغة العربية ، فإنا نقول أنه واحد من رواد القومية العربية وأحد أفراد حلقة دمشق الصغيرة ، وجمعية الإخاء العربي ، والجمعية القحطانية .. وخلفة الشيخ طاهر الجزائري .

وقد أجرى هذا الحديث فياضاً في كتابه (القومية العربية : تاريخهـا

وقوامهـا ومراميها) ، وله أيضاً دراسته الخصبة عن (الاستعمار) ، ومئات الأبحاث والمقالات في صحف العالم العربي في الأدب واللغة والتاريخ .

وقد تناولته بالدراسة في موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر ، في مجـال كتاب النثر وفي مجال حياة اللغة العربية ، وحياته حياة خصبة حافـلة بالعمل النافع للفكر العربي ، ولد في حاصبيا ، وتعلم في دمشق واستانبول ، ثم سافر الى فرنسا حيث حصل على إجازة في الهندسة الزراعية ، ثم عاد من باريس ١٩١٤ الى استنبول حيث اتصل بأعضاء جمعية المنتدى الأدبي الذين كانوا يحملون لواء الدعـوة العربية ، وقد اتجه الأمير الى ميدان الفكر ، وولي عدداً من المناصب حتى أصبح وزيراً للمعارف سنة ١٩٣٦ ، ثم سفيراً لسوريا في مصر عام ١٩٥٢ ، واشترك في المجامع الثلاث ، وأصدر معجمه الباهر ، ويرجع اهتمامه بالمصطلحات الى الحركة العربية التي كانت ترمي قبيل الحرب العالمية الأولى الى تحرير اللغـة العربية من المسميات الأجنبية .

ويؤمن الأمير الشهابي بأن التراث العلمي والأدبي والفلسفي الذي خلفه العرب والمسلمون لا مثيل له في الكم والكيف جميعاً في لغة ما من لغات العالم ، وهـو لا يرى تعارضاً بين العروبة والاسلام ، يقول : « أن القومية العربيـــة والاسلام يمشيان جنباً الى جنب دائماً ، ولا يستطيع العرب أن يفعلوا ما فعـل الترك في الإلحاد وجعل الحكومة لا دينية » . وهو يهاجم استعمال الحروف اللاتينيـة ، ويرى أنها تبعدنا عن تراثنا العلمي وعن الشعوب الاسلامية التي تكتب بحروفنا ، وعنده أن تبديل قواعد اللغة الأصيلة يبعدنا عن فهم القرآن وهو تراثنا الأعظم ديناً وقومياً ، ولا يجوز بحال العدول عن فهمه وتفهيمه مهما مست الحاجة الى تسهيل قواعد الصرف والنحو في اللغة الضاديه ، ويرى أن مفردات اللغة العربية ومعاني المفردات وتعبيرات تلك اللغة واصطلاحاتها لم تجمد قط على حال واحدة منذ صدر الاسلام ، وهي التي يجب علينا العمل في سبيلها حتى تجاري العربيـة لغات أوربا الحية .

وفي الجملة فإن الأمير مصطفى الشهابي عالم لغوي وبحاثة وأديب أقام منذ ثلاثين عاماً دولة للزهر والخيل والزراعة في أدبنا العربي .

● الأمير مصطفى الشهابي « دمشق » رئيس مجمع اللغة العربية ، وصاحب أكبر موسوعة عن ألفاظ الزراعة ، وصاحب معجم الألفاظ اللبنانية .

من مؤلفاته : محاضرات عن القومية العربية ، محاضرات عن الإستعمار ، معجم الألفاظ الزراعية ، الأشجار والأنجم المشرة ، البقول ، الدواجن ، الرسالة النباتية ، الزراعة العلمية الحديثة .

✶

(٣٠)

محمد صبيح
دراسات القومية والتاريخ العربي

عندما تلقيت كتاب (مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية) للأستاذ محمد صبيح ، هـذا الكتاب الضخم الذي يبلغ ٤٨٠ صفحة من القطع الكبير ، ذهب بي الخاطر الى العمل الأدبي الذي قام به هذا الكاتب منذ ربـــع قرن في ميدان الثقافة والتاريخ ودراسة الأعلام وتقديم خلاصات رائعـة لمختلف معالم الفكر ، يستهدف بها ما أسماه في أول كتاب أصدره من سلسلة كتاب الشهر في (يناير ١٩٣٧) : « رفـــع المستوى الثقافي للمثقفين المصريين وغيرهم من قراء العربية في أقطارها ، فتقرب لهم ما ابتعد عنهم من صور التفكير العام في شتى شؤون المعرفة ، في أسلوب مقبول يرضي المثقفين ولا يسخط العلماء المتخصصين » .

وقد كان محمد صبيح حريصاً على أن يقدم للقراء بطولات الأعلام من حكام العالم إذ ذاك ، غير أنه لم يلبث أن التفت الى بطولات أعلام الاسلام ، فأصدر سلسلة قادة الاسلام عام ١٩٣٨ ، وقال في صددها :

« لقد تدبرت هذه المرحلة من عملنا الثقافي فوجدت أن أبطالنا الجدد ، هم « محمد » عليه السلام وأصحابه وأتباعه .

.. هؤلاء الرجال العظماء أكرم علينا من أن نمر بحياتهم مراً خفيفاً ، فنطفو على السطح ولا نصل الى أعمق الغور . إنهم أبطالنا نحن، إنهم قطعة من حياتنا ، من تاريخنا ، أستغفر الله بل هم قمـــة الإنسانية في جميع عصورهـــا وأطوار تاريخها » .

ثم يصل الى هدفه الثقافي في بناء شخصية الأمــة ، فيقول : « إن نحن استطعنا أن نصل بين هذا القديم الذي باعدت بيننا وبينــه القرون وبين مثلنا التي ننشدها في حاضرنا ، نكون إذن قد وفقنا الى شيء كثير » . والآن أجد الرابطة القوية الواضحة بين هذا العمل الذي بدأه محمد صبيح منذ ربع قرن وبين هذا العمل الضخم الذي قدمه حديثاً ، حيث يرسم لنا صورة واضحة للطريق الطويل للقومية العربية في مراحل خمس هي :

الميلاد . الشباب . المتاعب . النوم . اليقظة .

حيث يروي قصة التاريخ الماجد الذي عاشته الأمة العربية ، في خلال أكثر من ألف وثلاثمائة وثمانين عاماً ، بين كفاح البناء والاتساع ، والانشاء وصراع الخصومات ومقاومـــة الحملات ودفع العدوان : ضد التتـــار والصليبيين والاستعمار الغربي .

ولا شك أن (القومية العربية) وهي تعيش عصر تفتحها وتجارب تحققها ، وقيام الوحـــدة الأولى بين مصر وسوريا ، وتوقيع ميثاق الوحدة بين مصر وسوريا والعراق، وارتفاع الصوت المدوي في مختلف أنحاء العالم العربي من الدار البيضاء الى البصرة بالالتقاء بين الأجزاء التي مزقها الاستعمار ، كل هذا جدير بأن يعنى الباحثون بدراسته ، ودراسة مقومات هذه القومية وتاريخها وتطورها وعوامل التجمع والتمزق ، وأسباب الصراع ومعارك المقاومـــة حتى يكشف الطريق ، ولذلك فقد عني الكتاب بإعـداد دراسات متعددة في هذا المجال ، غير أن الأستاذ صبيح قد اختار طريق الدراسة التاريخية الشاملة ، تعينه على ذلك خبرة قديمة ، ومادة خصبة ، وأسلوب طلي رائع ، وقدرة على إعطـاء التاريخ طرافة القصة مع الاحتفاظ بالحقيقة التاريخية .

وفي خلال المراحل الأربع التي ضمها هذا الجزء الضخم[1] ، نجدها في حاجة الى أن نقرأ كل كلمة ، فالكاتب حريص على أن يكشف كل التفاصيل ، مستعيناً بمئات من المراجع والأبحاث العربية والغربية في سبيل رسم الصورة . ولن يقلل من أهمية هذه الدراسة أنها ألقيت كمحاضرات على طلبة معهد التعاون في القومية العربية ، فهي قد أعدت بحيث تغطي حاجة المثقف والقارىء الوسط ، بالاضافة الى الطلاب الذين استمعوا إليها أو درسوها للامتحان فيها ، وقد سجل المؤلف الرابطة الواضحة في خطته الفكرية منذ عمله الجديد . فقال :

« وفي خلال ثلاثين سنة أو نحوها كتبت وألفت الكثير عن حياة الأمة العربية في ماضيها وحاضرها . وكنت ولا زلت تلميذاً يواصل الدرس والاطلاع ، ويجد في كل يوم جديداً يضيفه الى علمه . واشتغالي بالحركة الوطنية منذ فجر الشباب أتاح لي أكثر من فرصة لكي أربط بين الأحداث . وأجد لحاضرنا كثيراً من الأصول القديمة التي تربطها » .

ولا شك أن محمد صبيح قد عاش تاريخاً عريضاً في ميدان التأليف ، له طابعه الواضح المميز في ميدانين يكمل كل منهما الآخر :

(**الاول**) : ميدان تراجم الأعلام :

وقد عرض فيه لعديد من الشخصيات : شرقية وغربية ، إسلامية وعصرية ، أهمها : النبي محمد . أبو بكر . عثمان . علي . معاويه . خالد . عمرو بن العاص . طارق . عمر بن عبد العزيز . هتلر . ستالين . الميكادو . أتاتورك . تشرشل . محمد عبده . وقد أعلن عن دراسات أخرى لم تظهر بعد ، عن المهدي ومصطفى كامل وسعد زغلول وعبد القادر الجزائري وعن عبد الكريم الخطابي والمثنى بن حارثة وأبي عبيدة .

وفي ميدان التراجم لم يرسم لنا طريقة في الكتابة وأي مذهب اختار من

---

(1) صدر الجزء الثاني بعنوان « اليقظة » وقد ضم تاريخ مصر حتى عام ١٩١٩ .

مذاهب الترجمة للأعلام، ولكنه على أي حال يميل الى طريقة (أميل لدوفيج)، حيث يرسم الشخصية من خلال قصة نابضة بالحياة ، ترسم صورة مجتمع البطل وحياته وظروفه ، ولكنه يحتفظ بالحدود التاريخية واضحة في دراسة الشخصية دون أن يسمح للقصة أو الرواية أو الجو الفني أن يطغى على الحقائق المقررة .

وهو بذلك يجمع بين ميزتي الاحتفاء بالحقيقة التاريخية في ظل الصورة الأدبية القصصية .

وبهذا يضع لبنة في بناء فن (تأديب التاريخ) ، الذي ظهر في هذه الفترة لأول مرة في أدبنا العربي المعاصر . وهو في عرضه يجنح الى اسلوب التحليل ، ويعالج القضايا الفكرية والاجتماعية في دقة ويسر . دون أن يطغى على مجريات القصة من الناحية الفنية .

(الثاني) : ميدان الدراسات المرتبطة بالتاريخ الحي وبناء الأمم .
ومن هذا دراساته عن القرآن والنيل وروسيا والسودان . وكان قد أعلن عن دراسات لم تظهر بعد ، عن قناة السويس والأزهر وتركيا والهند والعراق وإيران والأفغان وجريدة التيمس وجامع كمبردج وغيرها .

وهو في هذه الدراسات حريص على نفس النسق القصصي المشوق ، يتخذه وعاء لأفكاره ، وإطاراً للحقائق المادية الجافة ، فيجعلها يسيرة سهلة مستساغة .

ولا شك أن طابع (التحليل) والوصول الى القارىء هو الاتجاه الغالب على الكاتب . ولعل اشتغاله بالصحافة هو الذي يسر له هذا الأسلوب البسيط الأنيق . وهذه الرغبة في جذب القارىء اليه وتبسيط الدراسات التاريخية والعلمية الجافة ، كما فعل في كتاب « النيل » [1] ، الذي وصفه بأنه ليس

(١) أضيف هذا الكتاب إلى جزء « اليقظة » .

كتاباً جغرافياً، والذي استطاع ان يقدم فيه كل المعلومات الجغرافية والتاريخية على نحو مشوق رائع .

هذا فضلاً عن حرصه على كشف الجوانب الخفية التي تحاماهـا الكتاب في فترة ما ، فكتب عن ستالين عام ١٩٣٧ وعن روسيـا ١٩٤٧ ، ولم يكن في مقدور كثير من الكتّاب رسم صورة لهذا الجانب الذي كان الاستعمار يخوفنا من من الاقتراب منه .

وهو في كل انتاجه حريص على إمداد القارىء العربي بمعلومات جديدة ، ناظراً الى شباب الأمة العربية جميعاً ، لا الى مصر وحدها ، وهو أقرب في دراساته الى الأسلوب الصحفي الاستطلاعي منه الى الأسلوب العلمي الأكاديمي ، وبالجملة فهو في كل كتاباته يتخذ طابع الكاتب الهادف ، الذي يريد أن يقدم لأبناء أمته ثروة فكرية لإغنائها ولفت نظرها الى البطولات التي صنعت التاريخ في كل مكان وعصر ...

* * *

وقد مر إنتاج « محمد صبيح » في ثلاث مراحل :

قبل الحرب العالمية الثانية ، حيث كان أحد أقطاب مصر الفتـاة ، وكان عمله الأدبي يمثل جانباً من الاتجاه الفكري الذي عاشه العالم العربي متطلعاً الى البطولات ، ناظراً الى حركات أوروبا في ظل الفاشية والنازية والشيوعية . ثم ما كان من تلفت الشرق الى نفسه واتخاذه من تجديد الحديث عن أبطال الاسلام وسيلة لبناء حاضره ومستقبله .

ثم كان السجن الذي أمضى فيه سنوات الحرب بعيـد الأثر في اتجـاهه الفكري ، حيث استطاع أن يزيد حصيلته بقراءة عشرات من الكتب الضخمة القديمة والحديثة . واستخلص رأيه الجديد بأن الثقافة العربية يجب أن يتسع نطاقها فتشمل الميادين المتعددة ، وتفتح النوافذ للثقافات الغربية ، وقد استطاع

بعد الحرب أن يعد برنامجاً فكرياً في هذا الاتجاه ، ظهرت منه كتبه عن روسيا وتشرشل والنيل وقد كان هذا التطور في تفكير الكاتب تطوراً فعلياً في مجال الفكر العربي نفسه في هذه الفترة .

ثم عمل صبيح في الصحافة وحرر في جريدة الأساس ، وأتيحت له رحلات مختلفة في الشرق والغرب، ثم شغل صبيح سنوات طويلة بالعمل في مجال الإصلاح الزراعي ، ودراسات الاقطاع والارض والتوزيع ، وقد انقطع خلال الفترة التي بلغت عشر سنوات عن مجاله الفكري القديم ، وإن ظل يواصل الكتابة في الصحف ، جارياً مع التطور والأحداث ، حتى فاجأ القراء بكتابه « مواقف حاسمة من تاريخ القومية العربية » .

وقد عاش محمد صبيح حياة فكرية خصبة شارك فيها مشاركة ايجـابية في النهضة السياسية والاجتماعية ، في مجالات مصر الفتاة ومشروع القرش ومصنع الطرابيش والاصلاح الزراعي . ولم يقتصر عمله على هذه المؤلفات الضخمة ، بل إنه ساهم في تحرير وإنشاء عديد من المجلات والصحف : كالصرخة ومصر الفتاة ونداء الحرية . كما حرر في صحف أخبار اليوم ومجلتي الأسبوع والتحرير والأساس وجريدتي القـاهرة والجمهورية . وهو اليوم يرأس تحرير صحف دار التعاون حيث يعمل في ميدان جديد يظهر لأول مرة في مجال الصحافة العربية وهي الصحافة المتخصصة ، ويشرف على صحف ثلاث : هي المجلة الزراعيـة وتعاون الثلاثاء وهما متخصصتان في شئون الزراعة والريف والتعاون والفلاحين، وصحيفة « تعـاون الأحد » وهي متخصصـة في شئون الأسرة والتموين والتعاون الاستهلاكي والبيت والمرأة ...

وهو صحفي ومؤلف وكاتب سيناريو يكتب المقالة السيـاسية والأدبية والاجتماعية والبحث التاريخي وفن التراجم .

وقد أغنى المكتبة العربية بعشرات من المؤلفات ، وما زلنا نطالبه بإتمـام الدراسات المختلفة والتراجم المتعددة التي أعلن عنها ولم يتمها بعد .

● محمد صبيح (محمد صبيح عبد القادر) : من خريجي كلية الآداب بجامعة القاهرة ، من أبرز العاملين في مشروع القرش ومصر الفتاة والصحافة المصريـــة ، أول مقال له نشره ۱۹۳۲ في السياسة الأسبوعية عن الحطيئة ، صاحب سلسلة كتب الشهر الإسلامية التي أصدرها عام ١٩٣٩ .

من مؤلفاته : مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية، من العلمين الى سجن الأجانب ، كفاح شعب مصر في القرنين ١٩ و ٢٠ ، قصة نور الله ، قصة الأرض في إقليم مصر ، عن القرآن ، وله تراجم : عمر بن الخطاب ، معاوية ، عثمان وعلي ، أبو بكر ، هارون الرشيد ، تشرشل ، المأمون ، معاوية، خـــالد ، شانغ كاي شيك ، ستالين ، عمرو بن العاص ، الخ .

*

(٣١)

محمد عبد الغني حسن
أدب التراجم والترجمة

ما تزال الكاتبة « مي زيادة » اسماً لامعاً في الأدب العربي المعاصر ، ومـا تزال سيرتها الشائقة وخاتمتها المثيرة تشغل المفكرين والكتّاب والباحثين ، فـلا تمر فترة من الزمن حتى يصدر كتاب أو يكتب مقال أو ينشر رأي جديد . فقد عاشت « مي » حياة مثيرة وكان صالونها في العشرينات شيئاً ملفتاً للنظر ، جمع العديـد من الأدباء والمفكرين ، وانشأ مشـاعر ووجدانيات وصبوات هزت الشعراء والكتاب ، ثم انطوت مي كالزهرة الندية في ظل أحداث متتابعة قاسية هزت نفسها واضطرب لها كيانها النسوي الرقيق . فعاشت بين اضطراب الفكر وقيود المستشفى . فلما أطلقت لم تعد الى دنياها الاولى ، بل ظلت في جوهـا النفسي المثير حتى قضت .

فاذا جاء الاستاذ محمد عبد الغني حسن ليكتب عنها بعد اكـثر من عشرين عاماً كتابه الجديد (مي : أديبة الشرق والعروبة) . فانما شأنه في ذلك شأن من يريد ان يعاود قضية كان هو أول من تولاها وتصدر لها ، فما يزال الباحثون عن « مي » يذكرون كيف ان مرجعهم الأوفى كان في كتابه الاول « حيـاة

مي » الذي اصدره بعد وفاتهـا مباشرة سنة ١٩٤٢ ملحقاً بالمقتطف ثم انفصل عنه . وقد اجـرى فيه عديد الاحاديث مع معارفها ورواد صالونها . ثم مضى الزمن فكتب عشرات عن « مي » ، مؤلفات وابحاثاً حتى لقد أحصيَ أن أكثر من خمسين باحثاً ، رجعـوا الى كتابات الاستاذ عبد الغني وعدوها مراجعهم في كتاباتهم وابحاثهم .

وقد ألـّف في ذلك منصور فهمي وجميل جبر ، وكتب كامل الشناوي وأنور المعداوي والمازني والعقـــاد ، وقدم طاهر الطناحي العديد من الابحاث في جو « مي » وحياتها ، وما يزال كثيرون يعدون ابحاثاً عن « مي » ، على وشك أن تصدر في مؤلفات ، في مقدمتهم السيدة (وداد سكاكيني) الكاتبة العربيـــة الدمشقية الاقامة .

وقد أفاد هؤلاء جميعاً وغيرهم ممـــا كتب محمد عبد الغني حسن منذ عشرين عاماً ، فليس اذن على الكاتب من ضير ان يعود مرة اخرى الى حياة هذه الكاتبة ، بعد ان أوغلت في الزمن ليكتب عنها مرة اخرى . وقد اصبحت حدثاً تاريخياً تستقبله نفس الباحث بمزيد من الاناة والروية في المراجعة والتحقيق لكل مـــا يتصل به من قضايا وأزمات .

يقول ان كتابه الاول قد لقي تقدير القراء والأدباء ، ومن كريم الملاحظات والتوجيهات مـا جعله يوطد العزم على ان يخرج كتاباً جديداً مستزيدا في بعض الجوانب ، خاصة في محنة مي قبل وفاتها ، « حين غالبتها الوساوس وهاجمتها الهواجس فكانت نزيلة المصحات النفسية والعقلية ، التماساً للخروج من وحشتها وكآبتها وعزلتها وصمتها الذي ما تعودته . وكانت الفصيحة البيـان ، الطليقة اللسان ، حتى انكرها أمين الريحاني وهو يزورها رغماً منها في مستشفى بلبنان ، ولم يملك ان يحبس الدموع في عينيه ، حين شاهد ما صارت اليه » .

كما أضاف فصولاً عن طفولة مي الحزينة ، ودراستهـــا للصحف ، وكيف غيرت اسم ميلادها من ماري الى مي ، كما نشر نماذج من أدبها وكتاباتها وخطها

ورسائلها ... وقد صحح الرأي الشائع الذي كان يردد أن مي ولدت في لبنان وكيف أنها ولدت في بلدة الناصرة من أعمال فلسطين .

يقول محمد عبد الغني حسن : ان مي وجدت ان اسم ماري افرنجي النغمة غريب على الاذن العربية ، على حين ان اسم مي عربي أصيل يضرب في اعراق العروبة الى حد بعيد ، ولكن التغيير من ماري الى مي لم يكن طفرة ، ولم يكن أول تغيير ولا انتقال ، فقد سبق لمي ان اختارت لنفسها اسماً ، ووضعته على أول كتاب أصدرته بالفرنسية وهو كتاب (أزاهير كوبيا) .. فماري وايزيس كوبيا ومي هي اسماء ثلاثة لمسمى واحد ، وهي ألقاب متعددة لشخص واحد ، هو تلك الفتاة الحائرة القلقة التي لم يسلم من حيرتها حتى اسمها . فتغير معها كما تغيرت بها الأحوال والأزمان .

ولم يكن اختيارها لاسم (ايزيس كوبيا) عفو الخاطر ، وانما كان فيه دلالة القصد في الاختيار . ومراعاه الاعتبار . فايزيس — كما في التاريخ المصري القديم — هي زوجة اوزوريس ، وهي اشبه في علاقتها بالآله بالسيدة مريم العذراء ، وكوبيا هي بالفرنسية Copieux وبالانجليزية Copious ، وأصلها اللاتيني يحمل معنى الغزارة والنماء والزيادة ، فكأنها ترجمة لاسم جدها (زيادة) باللغة اللاتينية .

وهكذا يمضي محمد عبد الغني حسن فيحدثنا عن مي في مختلف دقائق حياتها ، وتأثراتها في مجال الدين واللغة والاسلوب . ويتحدث عن مي كاتبة وخطيبة ومحاضرة ورأيها في الشعر العربي والموسيقى ، ودورها في النهضة النسائية وهو الجانب الضخم من حياتها الفكرية .

ويورد لذلك ذكرياته الخاصة ، وملاحظات المشاهد المتابع لنشاط هذه الكاتبة التي كانت موضع اعجاب جيلها كله ، حيث لم تكن الحياة الأدبية في مصر قد حفلت بالعديد من الكاتبات والباحثات .

ولعل الموضوع الذي نال اهتمام المؤلف هو « منتدى مي » فقد كان صالونها جزءاً من تاريـخ النهضة الأدبية في العشرينات ، حتى ان خليل مطران وصفه بعد وفاتها :

اقفر البيت أين ناديك يا مي — اليه الوفـود يختلفونـا
صفوة المشرقين نبلا وفضلا — في ذراك الرحيب يعتمرونـا
فتساق البحوث فيه ضروبا — ويدار الحديث فيه شجونا
وتصيب القلوب وهي غراث — من ثمار العقول ما يشتهينا

وقد جرى اسم ندى مي في شعر اسماعيل صبري والعقاد ، ثم جرى المقارنة بين صالونها وصالون نازلي فـاضل ، وأندية سكينة بنت الحسين ، وعلية بنت المهدي ، وولادة بنت المستكفي .

وهكذا يمضي الكاتب في دراسته العلمية عن مي ، مستعيناً فيها بكل مـا كتب معارفها وما شاهده هو وسجله ، ولم يشأ أن يحرم القـراء من أحاديثه الاولى عنها ، التي ضمنها كتابه « حياة مي » ، الذي نفذت طبعته من زمن بعيد، الى نماذج من كتاباتها ، وذلك على طريقة الكاتب الدقيقة المعروفة وميله الوافر الى تسجيل المؤلفات والأبحـــاث ، وهو العمل الفريد الذي جعله مرجعاً هاماً لكل باحث . فأنت ما أن تريد أن تكتب دراسة معينة ، حتى تجد نفسك مضطراً للاتصال بالاستاذ محمد عبد الغني حسن لتسأله عن مراجع لهذا البحث ، فاذا هو يدلك فور اللحظة ، ومن وراء خطوط الهاتف الى عشرات المراجع في القديم والحديث ، فاذا ما أغناك بالمراجع ، اعتذر لك بأن هذا ما يذكر الآن وأنه سيبحث لك عن مراجع أخرى .

ولعلي لا أستطيع أن أقول، انني التقيت برجل في جيلنا أكثر الماماً منه بهذا الجانب ، وهو في هذا يقف في صف رجلين متخصصين في هـذا الفن ، أحدهما الاستاذ كحاله في دمشق ، والأستاذ داغر في بيروت .

ويرجع هذا في الاغلب الى أن محمد عبد الغني حسن بدأ حياته الادبية قبل ثلاثين عاماً، يكتب باب (المؤلفات الجديدة) في المقتطف ، يستوعب ما ينشر من الأدب القديم والحديث ، والمخطوط والمطبوع ، ليس على نطاق القاهرة وحدها، ولكن على نطاق العالم العربي كله . بل انني قد لقيت عنده أمس كتاباً جديداً (لا يزال ساخناً كما يقولون) من الأدب العربي المطبوع في تركيا ، فهو لا يقف ايضاً عند حدود العالم العربي . وقد اتاح له عمله في دار المعارف ، ومؤسسة المطبوعات الحديثة ، والمؤسسة المصرية العامة للانباء والنشر والتوزيع والطباعة خلال عشرين عاماً او يزيد ، ما جعله أوثق اتصالاً بكل ما ينشر في مجال الادب والتاريخ ، وهما ابرز الفنون التي أولاها اهتمامه ، والذي تضم مكتبته الحافلة منها ، اغلب ما كتب فيهما وما نشر من قديم وحديث فيما لا يقل عن عشرة آلاف مجلد .

ويتصل هذا بالطبع بنشأة محمد عبد الغني حسن ، واتجاهه الفكري الاغلب في مطالع حياته . فقد بدأ وليد المنصورة ١٩٠٧ حياته بالشعر ، وليس غريباً ان تخرج المنصورة الشعراء، وهي أجمل بلاد مصر وأحفلها بالجمال والشعر والفن.

ثم أتيح لكاتبنا أن يتم دراسته في دار العلوم في الثلاثينات ، وقد ترك دوياً ، فهو شاعر عاطفي له شعر جميل رائع ينشره في الصحف والمجلات ، وهو شاعر الاهرام ، ثم هو الحفي به في خلال الازمات الاقتصادية والسياسية ان يسافر في بعثة الى انجلترا وفرنسا لدراسة التربية وعلم النفس ، موفداً من الدولة ، فاذا ما أتم دراسته في جامعة (اكستر) وعاد عام ١٩٣٦ ليعمل مدرساً فمفتشاً عاماً للغة العربية ، لا يشغل عن العمل الفكري ولا ينصرف عنه فيوالي نشر آثاره الادبية التي بلغت بكتابه الجديد عن مي خمسون كتاباً الا كتاباً واحداً .

وهي أعمال تتعدد مجالاتها بين الأدب والدواوين الشعرية ، وتحقيق المخطوطات والترجمة ، ودراسات الاعلام وفنون الأدب . ودراسات الاسلام

وقصص الرحالة والمكتشفين . واذا كان كتابه الاول عن « مي » هو اول كتبه في الاغلب اذ صدر عام ١٩٤٣ – فانه كان قد صرف شيئاً ما عن الشعر الذي استهل به حياته الى العمل الأدبي في مجال النثر ، وهو ما تعمقه من بعـد وسار فيه أشواطاً طويلة. واني لأرى أنه قد اختار ميداناً حياً نابضاً بالحياة ليكرس له أغلب عمله . وهو مجال البعث والاحياء لأمجاد أمتنا العربية الاسلاميـة ، في فكرها وبطولاتها وأعلامها وروائع مواقفها .

وأمامي ثبت لمؤلفات محمد عبد الغني حسن ، فاذا به يستر عيني في جانبين : الاول – دراسات الاعلام ، فاني أرى أمامي دراساته عن عبد الله فكري وابن الرومي ، وبطل السند ، وموسى بن نصير ، وأبي مسلم الخراساني ، وآمنة بنت وهب ، وخديجة بنت خويلد ، والزباء بنت عمرو ، وشجرة الدر ، وعديد من الرحالة المكتشفين الاجانب أمثال فاسكودي جاما ، والكاتبة تول وسكوت وغيرهم .

والثاني – هو أمجاد الأمة العربية الاسلامية في مجال النهضة ، تناول ذلك في كتابـه معرض الأدب والتاريخ الاسلامي ، ومن أمثال العرب وصراع العرب خـلال العصور ، وعلم التاريخ عند العرب والاسلام بين الانصاف والجحود ، والقرآن بين الحقيقة والمجاز والاعجاز ، وملامح من المجتمع العربي وأيام العرب (ذي قار واليرموك والقادسية ويوم الاندلس) .. الخ .

وهذا الاتجاه في مجال البحث يعطي صورة رجل من المدرسـة الوسطى ، مدرسة البناء على الأسس التي طالما افتقدها العالم العربي في نهضته الفكرية اليوم ، ومنذ صدر البلاغ الاسبوعي والسياسة الاسبوعية وهما طليعتا النهضة الفكرية بعد الحرب العالمية الاولى ، ونحن نرى اسم محمد عبد الغني حسن يتردد ويمضي في مثابرة وعمل مستمر ، لا يتوقف من أجل رسالة الفكر والحياة .. فاذا به يكتب من بعد في الرسالة ومصر الحديثة المصورة والثقافة والمجـلة .. وعشرات من المجلات الأدبية والعربية . أما المقتطف فقد سايره خلال عشرين عاماً كاملة أو

تزيد ، وقد رأيته في مجلداته (فوق السبعين) جاثماً في مكان مستقـل عن مكتبة الاستاذ عبد الغني ، وهو ثروة لا شك فيها ، ومدرسة كاملة في الفكر والأدب والعلم والاجتماع .

ولا شك أن الخبرة القوية قد أتاحت لمؤلف حياة مي القديمـة والجديدة ، ذوقاً رفيعاً في تقويم الكتب والاعمال المطبوعة والمؤلفة ، وكتابـه الشهري (بريد الكتّاب) يشهد بذوقه وقدرته فى هذا المجال.

واذا كان لا بد لنا أن نتناول الشاعر محمد عبد الغني حسن فان ذلك يقتضينا ان نشير الى دواوينه الأربعة :

وراء الافق ١٩٤٧– من نبع المياه ١٩٤٨– من وحي النبوة ١٩٤٨ – ماضي من العمر ١٩٥٤ .

أما شعره فهاك نموذجاً منه :

هذا الفضاء أمام عينك فانظري	تجديه ملء السمع ملء المنظر
إني أذوق بـه لذاذات الهوى	وأشم نفح عبـيره المتعطر
حيث الربيع هناك في ريعانـه	يختال في البرد النضير الاخضر
حلت بشاشته بكل ثنيـة	وبدت نضارته لكل مصور
صور جلاها الحسن فهي مشاعة	تهب لعباد الجمـال الاطهر
قد عفت ثرثرة المدينة فاسمعي	همس النسيم يمـر غير مثرثر

.. الخ .

ولست أرى إلا أنني أشارك الدكتور أحمد زكي أبو شادي فيه اذ يقـول : أن هذا الشاعر يمثل الرقة المصرية المأثورة في جميع شعره ، ولا أعرف شاعراً مصرياً ينافسه في حلاوة موسيقاه الى درجة كبيرة ، سوى عثمان حلمي صاحب نسمات البحر ، والمعلم الأول ايليا أبو ماضي حين إقامته بالاسكندرية ، وديباجة الشاعر محمد عبد الغني تمتاز بالأناقة الى جانب الصفاء والعذوبة . فاذا ما انتقلنا الى طاقته الشعرية وجدناه عنيا بها حينما يتجاوب مع الطبيعة .

وبعد فان مؤلف حياة مي قبل عشرين عاماً وبعدها ، هو أحد كتاب هذا الجيل الموهوبين الذين ضربوا في كل مجال بهم ، في التأليف والترجمة ونظم الشعر ، وثابروا واستمروا على الطريق طويلاً ، وكان لهم خلال عملهم هدف واضح مشرق شريف . هو الكشف عن ذاتية هذه الأمة وعظمتها وأمجادها وبعث آثارها وتراثها . واتاحة الفرصة لهذا الجيل كي يعرف شخصيته ومكانه في الفكر العالمي والانساني .

وهو ماض في الطريق .. تحف به عاصفة مشرقة وايمان أكيد .

- محمد عبد الغني حسن : من أبناء دار العلوم تعلم في انجلترا . عرف بأنه من أبرز المتخصصين في دراسات الكتب والمؤلفات والوراقة في العالم العربي في العصر الحاضر .

من مؤلفاته : مي أديبة الشرق والعروبة ، وحياة مي ، والشعر العربي في المهجر ، وله ديوان شعر (ماض من العمر) ، واعلام الشرق والغرب ، وله ابو مسلم الخراساني ، والزباء بنت عمرو ، وغرائب من الرحلات ، ومعرض الأدب والتاريخ الاسلامي ، وملامح من المجتمع العربي ، وفن الترجمة في الادب العربي ، وعبد الله فكري (١٩٣٦) ، وعبد الله فكري (اعلام العرب) ١٩٦٦ ، وتيجان تهاوت ، وبين السطور ، ومن نبع الحياة ، ومن وراء الافق ، وشجرة الدر بالاشتراك الخ ..

(٣٢)

محمد عطا

الحركة العاقلة

لا شك أن يقظة أمتنا واتجاهها الى الآفاق الواسعة العليا قد فتح أمام عدد من المفكرين والمثقفين ابواباً من البحث ، فنحن قد اخذنا نواجه حياة فكرية مليئة بالتطلعات . وقد بدأنا نتلقى افكار الشرق وافكار الغرب ، ونلائم بين شخصيتنا الاساسية وبين طوابع الثقافة والمذاهب المختلفة ، فنأخذ منها وندع . ومن هنا كان لابد أن تظهر في مجالنا الفكري الخاص نظريات تكيّف واقعنا وترسم مستقبلنا .

وقد عاش « محمد عطا » في ظل دراسات فكرية متصلة منذ ولي العمل على اعداد سلسلة كتاب (اخترنا لك) ، التي حفلت دراساتها بعديد من افكار الفلاسفة والباحثين والسياسيين ، ونظريات الاشتراكية والقومية والانسانية والحرية . فكان لا بد انه تتبلور في اعماقه فكرة واضحة نابعة من واقعنا .

فالحركة العاقلة — على حد تفسيره — دعوة نابعة من حقيقة وجودنا في هذه الفترة الرائعة من تاريخنا . فقد تهيأ لنا ان نزيح كابوس الاستعمار ، وأن نشعر

بوجودنا كدولة مستقلة ذات سيادة . وأن نأخذ على عاتقنا تحمل المسئولية كاملة من غير أن نستعن الى دولة من الدول . بل أن نشق طريقنا ونحن معتقدون كل الاعتقاد بقوتنا ومعنويتنا ، وهـــذا الاعتقاد بشخصيتنا هو الذي أمدنا بالعزيمة الصادقة » .

ويصور محمد عطا الحركة العاقلة بأنها نابعة من منطقة البحر المتوسط ، هذه المنطقة التي تمتاز بالاعتدال . فلا يشتد حرها ولا يتجمد بردها . وليست منطقة مضطربة ، مليئة بالزلازل والبراكين . بل هي منطقة أقرب الى الوداعة والالفة والحركة المستأنية . وفي هذه المنطقة لا تجد أثراً للتطرف او اليسارية او التعصب او الحقد المضطرم . ومن هذه المنطقة تنبعث الديانات التي تسود العالم الآن والدعوات الاصلاحية ، انها المنطقه التي انبثق منهـــا فجر الضمير ، ودعوة التوحيد التي أشرقت على العالم .

ويقول : أن الحركة وحدها تعني أمرين : الامر الاول ماديتها ، والامر الآخر خضوعها لعامل الطبيعة او الانتخاب الطبيعي كما يقول دارون . ولكن اضافة العقل الى الحركة يعطيها مفهوماً جديداً ، ويضفي عليها تفسيراً آخر . فالعقل الانساني وهو أرقى عقل، هو الذي يسدد الحركة ويوجهها لخير الانسان، بل خير البشرية جميعاً . وأطلقت عليها العاقلة بدلاً من العقلية حتى لا تنصرف النظرية الى الحركة الفكرية فحسب . والعقل الموجه للحركة في أي زمن وفي أي مكان هو العقل الراجح التقدمي القيادي .

واذا كنا نؤمن بالحركة فمعنى هذا أننا نؤمن بالوحدة . لان عصرنا الذي نعيش فيه هو عصر التجمع لا التفرق . عصر التعاون الدولي . فاذا كنا نؤمن بسيادة العقل فمعنى هذا أننا نؤمن بالعمـــل الموجـــه . ونؤمن بأن مصلحة الجماعة فوق مصلحة الفرد . وأن الفرد لا يمكن أن يعيش وحـــده ، ولا أن يكون انساناً يجهد يبذله وحده . واذا كنا نؤمن بسيادة العقل ، فمعنى هذا

أننا نؤمن بالدين كقوة لها أثرها الفعال في حياة البشرية منـــذ أن وجدت الرسالات الى اليوم والدين لا يتنافى مع العقل .

* * *

وبعد فما هي غاية هـــذه النظرية . « إنهـا غـــاية التفكير البشري الذي يسعى الى ايجاد مجتمع انساني ، لا أثر فيه للطبقة او الاستعلاء او التدمير او الاحتكار او الاستقلال ، وأن يعيش الانسان ويدع غيره يعيش » .

وجملة القول ان الحركة العاقله نظرية نابعة من محيطنا ، قائمـة في ظل تطورنا الفكري والاجتماعي الثوري ، او على حد تعبير لمعي المطيعي عنها بأنها « دعوة حاسمة للعمل الموجه من أجل مستقبل أفضل ، سواء في الطبيعة أو الحياة الاجتماعية أو التخطيط الذي يقوم على الدراسة العلمية والموضوعية » . ومن هنا تكون نظرية الحركة العاقلة تعني الحركة التي يحكمها العقل المضيء ، والتي تفسر الاوضاع وتسعى الى تطويرها . وتضع خطة للمستقبل وتقوم على الدراسة العلمية واكتشاف قوانين التطور ، وتجعل الحركة عاملاً خلاقاً للاهداف . وهي في ذات الوقت دعوة حاسمة للعمل الموجه الذي يقوم على التخطيط ، وتؤمن بالتغير المستمر وعدم الجمود .

* * *

ويعارض محمد عطا نظرية « التعادلية » ، التي دعا اليها توفيق الحكيم ، الذي يرى أن أزمة الانسان في العصر الحديث انمـا مردها الى فقدان التعادل بين العقل والقلب . بين الفكر والايمان . ويقول عطا : « متى كان التعادل قائماً في العصور الاولى حيث همجية الانسان ، وحيث لا وازع من دين او دافع من شريعة ، او في العصر الوسيط حيث كانت سطوة الاباطرة ، وسيادة الحـق الالهي للملوك ، وحيث الحروب الدائرة ، والتعصب الـــديني ، وخنق الحريات» .

ويقول « انني اعتقد ويؤيدني الواقع – أن قوة العقل انما يصحبها دائماً قوة الروح ، فالعلماء الأفذاذ باستير وداروين ولامارك وكوري وجاليلو ونيوتن وغيرهم ، هؤلاء جميعاً لم يصلوا الى ما وصلوا اليه من بحوث وكشوف الا بقوة أرواحهم وبمثابرتهم وكفاحهم .

ويقول أن التعادلية ترمي انسان العصر الحديث بأنه أصبح الان يحارب نفسه ، ولكني أعتقد غير ذلك ، فأجدادنا ربما كانوا يحاربون أنفسهم أكثر مما نفعل الآن . لقد أخذ انسان العصر الحاضر يدعو الى فض الخلافات بالطرق الودية ، وأن العصور السابقة كانت عصوراً تدعو الى القوة ، أما العصر الحديث فيدعو الى الحق والعدالة ويتجه الى ان يتعاون الانسان في كل بقاع العالم » .

« ومحمد عطا » صاحب نظرية الحركة العاقلة ، هو واحد من كتابنا الذين برزوا بعد الحرب العالمية الثانية بكتابات منوعة في الفكر السياسي والاجتماعي والتاريخي والأدب والقصة ، فكتابه « مصر بين ثورتين » و «الدعوة التحريرية الكبرى» اللذين صدرا عام ١٩٥٥ قد لقيا تقديراً بعيد المدى في الدوائر المختلفة مما دعا الى ترجمتها . وكتاب (نحو وعي جديد) في مجال البحث الاجتماعي والسياسي والثقافي في مصر ، وكتابه (القومية العربية بين ماض وحاضر) تجري كلها في مجال عمله الفكري ، الذي يتصدى بـه بحكم اشرافه على كتاب (اخترنا لك) . ولكنه بدأ يشق طريقاً خارج هذا المجال بكتابة مذكرات طفولته (هكذا عشنا) .

ودراسته عن الأدب العربي المعاصر (رأي في أدبنا المعاصر) التي ولدت نظرية الحركة العاقلة ، وكتابه عن خليل مطران .

ولا يلبث محمد عطا أن يجد طريقه الفكري الواضح بعد هذه الجولة الواسعة المستكشفة التي مر بها كل كتّابنا وباحثينا ، يجدها في مجال القصة . وقد ظهرت له ثلاث قصص اولاها عاطفية خالصة (حب وحرمان) . ثم أولى

اهتمامه للقصص التاريخي (أرض الصبر) عن فتح مصر ، (المملوك العاشق) عن أيام الغوري ، ويكتب الآن (الندم) عن عصر بيبرس .

وتعطي تطلعات محمد عطا فكرة واضحة عن طريق طويل ، عاش في أعماقه مطالعة وتأملا منذ أوائل الاربعينات ، وتتميل في كتابات قصيرة ومذكرات خاصة ، حتى برز بعد ذلك بخمسة عشر عاماً بعمل كامل ناضج هو (مصر بين ثورتين) في مقارنة بين الثورة العرابية وثورة ١٩١٩ .

وتتميز كتابات عطا بسمت حياته وطبيعته : الرصانة والهدوء ، فهو في أبحاثه مستأن كثير التأمل والتقليب للأمور ، لا شيء يستعجله ، يواجه الامور والمسائل بشيء غير قليل من الرفق ، وأدبه صورة فكره وحياته .

● محمد عطا : (محمد مصطفى عطا) من أبنـــاء دار العلوم والمشرف على سلسلة « اخترنا لك » .

من مؤلفاته : خليل مطران ، أرض الضمير ، القومية العربية بين ماض وحاضر ، الشاعر أبو تمام ، الخ .

* * *



(٣٣)

محمد علي دبوز
كتابة تاريخ المغرب الكبير

كان استقلال الجزائر ايذاناً ببدء مرحلة فكرية جديدة في المغرب العربي تتصل باللغة العربية والتاريخ ومختلف شؤون الثقافة والأدب والفكر . وكانت كتابة تاريخ المغرب العربي الكبير أملاً كبيراً يملأ نفوس المثقفين ، ويتطلعون اليه بعد أن حاول الاستعمار خلال أكثر من مائـــة وثلاثين عاماً تحريف هذا التاريخ، واستغلال نصوصه وأحداثه للقضاء على الوحدة المغربية وخلق قوميات ضيقة ، او اثارة نعرات تمزق الصف ، وتحاول ان تجعل من كل الاقطار الاربعة (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) ، وحدة قائمة لهـا تاريخها وطابع ثقافتها ، في حين أن الحقيقة تثبت وحدة هذه المنطقة وتلاقيها تلاقياً كاملاً أمام ملامح واحدة ، لا تختلف كثيراً ، وكذلك كانت محاولات الاستعمار في محاولة تمزيق الروابط بين المشرق العربي والمغرب العربي ، للحيلولة دون التقـــاء الاجزاء العربية كلها من المحيط الى الخليج في وحدة كبرى .

لذلك فقد تطلع الباحثون نحو المغرب العربي يتساءلون :

متى يظهر ذلـك المؤرخ الباحث الذي يعيد كتابـة تاريخ المغرب العربي الكبير ، محققاً منصفاً مصححاً كل هذه الاخطاء . حتى ظهر هذه الايام الكتاب الأول من موسوعة تاريخ المغرب الكبير للاستاذ محمد علي دبوز أستاذ التاريخ بمعهد الحياة بالقرارة في جنوب الجزائر ، وهو أكثر من ٥٠٠ صفحة من القطع الكبير معلناً عن ذلك الجهد المبذول منذ أكثر من خمسة عشر عاما ، لأداء هذا العمل في عشرة مجلدات كبرى تتناول مراحل هذا التاريخ منذ فجره الى اليوم .

وتعـــد موسوعة تاريخ المغرب الكبير من الاعمال الكبيرة الدلالة على قدرة الجزائريين في ميدان الفكر كقدرتهم في ميدان الحرب ، حين يقوم مؤرخ باحث كالاستاذ دبوز بكتابـة أكثر من خمسة آلاف صفحة ، مستعرضاً فيهـا تاريخ هذه الأجيال ، مراجعاً كل ما كتب في هذا الصدد ، كاشفاً عن عشرات من الحقائق التي شوهها المؤرخون والكتّاب ، يقول المؤلف : « هـذا هو أول كتاب « جزائري » يطبع بعد استقلالها وارتفاع علم العروبة فيهـا ، عسى اخواننا في الشرق العربي يرون فيه محياً للجزائر العربية ، وتاريخ المغرب صافياً نقياً من دعايات السياسة القديمة ، ومن أكاذيب المستعمرين الذين لم يألوا جهداً في استغلال تلك الدعاية ، التي بثها الملوك المستبدون قديماً ضد المغرب ليشوهوا صفحته .. تلك الأكاذيب التي استغلها المستعمرون ليسودوا صفحة مغربنا المشرقة ، فيبعدوهم عن تاريخ أجدادهم ، فيسهل صبغهم بمـــا يريدون .. وتجريدهم من شخصياتهم الاسلامية العربية كما يشاؤون». وأشار المؤلف الى الدور الذي لعبه التعليم المشرف عليه في المغرب كله ، والجزائر بالذات . حيث يقول: « كانوا ينشرون في مدارسهم الاستعمارية من الاكاذيب التي تبدي وجه أجدادنا الجميل على غير حقيقته ، وتبرز المغرب في غير حلله الزاهية ، وينشرون ما وقع بين المغرب والملوك المستبدين من الامويين والعباسيين ليبعدوا المغرب عن المشرق ، ويجعلوا الناشئين يعتقدون ان المغرب في كنف الدولة الاسلامية كانت أيامـه مصبوغة بالدماء .. الى محاولة تحريف تاريخـه المجيد في الازدراء

بأجدادنا ، وتشويه سمعة دولتنا ليخلقوا في نفوس أبنائنا عقائد سيئة عن أجدادهم تصرفهم عن الاعتناء بتاريخهم » . وأشار المؤلف الى الدور الذي قامت بـه المعاهد العربية الحرة في الحفاظ على التاريخ ، ومن أهمهـا معهد عبد الحميد بن باديس في شمال الجزائر ، ومعهد الحياة في جنوبها ، حيث يشرف على الحركة الثقافية العربية عالم من أعظم علماء المغرب هو السيد ابراهيم بيوض ، وهو الذي أتـاح للمؤلف الفرصة لالقـاء عديد من المحاضرات في تصحيح هذا التاريخ .

ويقول المؤلف أنه أسرع بالحلقات المظلومة في تاريخ المغرب العربي ، فأصدر هذا الجزء عن الفتح الاسلامي ، وستتلوها حلقة مجهولة هي تاريخ المغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر الى ثورة الجزائر .

وصور المؤلف كيف كان هذا العمل صعباً كل الصعوبة ، وكان الطريق في هذه العهود مطموساً والسبيل غير معبد ، وأغلب من كتبوا في تاريخ المغرب من المحدثين قد اغتروا بالمصادر « الملكية » فرددوا أغلاط المؤرخين القدماء ، فكان عليه أن يكتب فصولا جديدة معتمداً فيها على المصادر الصحيحة ، وأن يسلك طريقاً غير معبدة ، وأن يأتي بشيء لم يسبق اليه . ويقول المؤلف أنه بدأ العمل في كتابة هذه الفصول منذ عام ١٩٥٠ ، بعـد أن أتم مراجعاتـه الأولى . وكان على نية أن يطبعه عام ١٩٥٤ ، غير أن قيام الثورة الجزائرية قـد حال دون ذلك ، فمضى يتوسع في المراجع ويطلق دائرة البحث الى مداها ، وقد أتيح له أن يقوم بجولة واسعة في الجزائر ليطالع عديداً من الأبحاث المخطوطـة الموجودة في الخزائن القديـمة ، وهي خزائن في جنوب الجزائر لم تمتد اليها يد ، كما زار مكاتب تونس الخضراء ودار الكتب العربية في القاهرة .

وكانت أخطر مرحلة في حياة موسوعته هي مرحلة الثورة ، حيث تعرضت بلدته « القرارة » للتفتيش عشرات المرات ، وكان قـد وضع مسودة كتابه

في صندوق خشبي لا مسامير فيـه ، لكي لا تكشفه الآلات التي تـدل على الحديد ، وقد ردمه في الحديقة زمناً وكان كلما هوجمت البلدة يضرع الى الله أن يحفظه .

ومن أغلى ما كان يخشى عليه « الخرائط » التي أمضى ثلاث سنوات في العمل بها من أجل التنقيب عن حدود الدول المغربية في القرن الثاني والثالث الهجري وقبل الاسلام .

وما أن أعلن استقلال الجزائر حتى كان المؤلف قـد ركب الطائرة الى القاهرة ، حيث بـدأ في طبع كتابـه واستكمال مراجعته في دار الكتب ، حيث اتخذ له كرسيا يحمل رقماً لا يتغير هو « ٦١ » .

والمؤلف عالم باحث درس في الجزائر وتونس والقاهرة ، وشغف بدراسة التاريخ منذ شبابه . وكان أول من قدم القاهرة عام ١٩٤٤ من المغرب سائراً على قدميه ، قاطعاً حدود تونس وليبيا حتى وصل مصر إبان الحرب العالمية ونزول الحلفـاء في صقلية . ولم يكن من اليسير أن يسمح له بالسفر في هذه الفترة . وقد قسم المؤلف موسوعته الى عشرة أقسام هي (من العصر الحجري الى الفتح الاسلامي) .

من الفتـــح الاسلامي الى نشأة الدول الاسلاميـــة المغربية المستقلة . (٢٢ — ١٤٠ هـ) .

— الدول الاسلامية المستقلة حتى القرن الرابع .
— الدول العميدية ودولة الصنهاجين ودولة بني حماد .
— دولة المرابطين والموحدين والصحفيين . .
— دولة بني مرين ودولة بني زيان .
— الدولة التركية والاحتلال الفرنسي .
— النهضة الجزائرية الحديثة وثورة الجزائر .

ويحمل كتاب تاريخ المغرب العربي الكبير دعوة حـــارة الى الوحدة . (ان المغرب كان وطناً واحـداً يسكنه شعب واحـد .. لم يعرف هذه التجزئة التي صار اليها المغرب الآن) .

● محمد علي دبوز : أستاذ التاريخ بمعهـد الحياة بالقرارة (جنوب الجزائر) ، تخصص في دراسة تاريخ النهضة الاصلاحية في الجزائر ، وهو صاحب موسوعة تاريخ المغرب الكبير في ٣ مجلدات ، هاجر من وطنه خلال الحرب العالمية للالتحاق بالازهر في القاهرة . يعمل الان في اعداد دراسة مطولة عن « نهضة الجزائر الحديثة » ..

★

(٣٤)

محمد عبد الله عنان
الإسلام والأندلس

من خلال ثلاثين عاماً تبرز صورة العلامة « محمد عبـد الله عنان » ، وهو يشق طريقه في مجال الدراسة التاريخية الاسلامية ، حتى تخصص منذ بضعة عشر عاماً على دراسات الاندلس ، فصرف اليها كل وقته وجهده حتى أصـدر موسوعته الضخمة .

والحق أنه عندما يتم عمل ضخم في مجال التحقيق العلمي ، على النحو الذي أتم به المؤرخ الكبير محمد عبد الله عنان موسوعتـه عن « الاندلس » ، فإن دوائر الفكر تنظر بالتقدير البالغ للباحث وأثره. وتتطلع الى نظرة شاملة عن حياة هذا المفكر ، تكشف من خلالها عن أعماق فكره وأبعاد عمله في مجال البحث والدراسة .

وقد أصدر الاستاذ عنان آخر أجزاء هذه الموسوعة ، وهو كتابه « عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس » في مجلدين كبيرين يضمان نحواً من ١٤٠٠ صفحة من القطع الكبـير . وكان الجزء الاول من كتابه قد ظهر متضمناً تاريخ الدولة المرابطية في المغرب حتى سقوطها على يد « المهـدي بن

تومرت » ، وخليفته الاول « عبد المؤمن بن علي » ، ثم قيام الدولة الموحدية على أنقاضها . ثم ظهر المجلد الثاني عن « نصر الموحدين وانهيار الاندلس الكبرى » ، متضمناً تاريخ الدولة الموحدية في المغرب والاندلس . ومراحل الصراع بينها وبين أسبانيا النصرانية وما نشب بينها من الوقائع العظيمة الحاسمة ، ولا سيما معركتي « الارك » و « العقاب » ، ومشتملاً على تاريخ الخلفاء الموحدين باسهاب ، منذ عصر الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن حتى عصر آخرهم الواثق أبي دبوس ، وانتهاء الدولة الموحدية في المغرب على يد بني مرين . وقد استعرض هذا الجزء انهيار الاندلس الكبرى ، ومأساة سقوط قواعدها التالدة (قرطبة) ، وبلنسية ومرسية وشاطبة واشبيلية وجيان وغيرها في أيدي الاسبان . كما قدم للقارىء كعادته في كل أجزاء الموسوعة خرائط تخطيطية لسائر الوقائع الكبيرة ، مع دراسة مستفيضة للنظم الموحدية السياسية والعسكرية والادارية والاقتصادية ، وللحركة الفكرية خلال العصر الموحدي .

* * *

وبهذا الكتاب – في جزئيه – أتم الاستاذ عنان موسوعة تاريخ الاندلس في سبع مجلدات ضخام تضم نحو أربعة آلاف صفحة ، ممثلة في (١) دولة الاسلام في الاندلس ، (٢) دولة الطوائف، (٣) عصر المرابطين والموحدين ، (٤) نهاية الاندلس ، (٥) الاثار الاندلسية الباقية . وقد عايش المؤرخ بحثه هذا ربع قرن كامل ، منذ اتجه اليه وتفرغ له في عزيمة صادقة ، غير حافل بأي جهد أو مال يبذل في سبيل تحقيق الغاية التي أخذ نفسه بها . والحق أن هذا العمل الكبير ، لا يمكن أن ينظر اليه منفصلاً عن شخصية الاستاذ عنان ، اذ يمثل قمة فكره خلال مراحل طويلة من الدراسة والبحث ، بدأت منذ مطالع حياته . فمن خلال حياة عريضة مثرية في التأليف والتحرير يبدو هذا « المؤرخ » ، وقد عرف وجهته منذ اللحظة الاولى على النحو الذي بلغه اليوم بعد ، أن جاوز الستين من العمر . فقد كانت تطلعاته كلها وأدواته ، هي

تطلعات المؤرخ وأدواته . ولم يكن عمله في الصحافة أو المحاماة أو رحلاته أو دراساته للغات القديمة والجديدة ، الا وسائله لعمله الأكبر الذي أولاه روحه وعقله . ثم كانت دراسات الاندلس هي قمة هذا العمل .

* * *

فهو في طابع أبحاثه التي بدأها منذ عام ١٩٢٦ الباحث المؤرخ الطلي العبارة الدقيق في عرضه للوثائق وتحليلها واستخلاص الحقائق . « فالصحافة » وسيلته الى نشر ما يحقق من الجوانب الغامضة أو المجهولة « والمحاماة » عنده هي الدفاع عن قضية كبرى هي قضية أمة كالأندلس ، « والرحلة » عنده هي البحث المضني وراء الآثار والمواقع والجبال والقلاع والأسوار والقناطر والاطلال . أما اللغات الكثيرة التي يجيدها فهي وسائله للوصول الى أدق خيوط الأثر العلمي .

وهو كيفما يكتب إنما يحاول أن يكشف عن مجهول أو يكمل جانباً ناقصاً ، أو يلقي الاضواء على قطاع غامض من التاريخ .

* * *

ومنذ مطالع شباب مؤرخنا الكبير نجد مادة « التاريخ » تأخذ بلبه وتستولي على روحه وتشده اليها . فهو كلف بها يصرف وقته في مطالعات استهوته منها « مقدمة ابن خلدون » فمضى يستوعبها في سن الثانيه عشرة ، متخذاً من شيخ المؤرخين علامة البدء في الطريق الذي لم يكن قد تكشف له بعد . ثم اذا هو محب للحريري يعشقه ويتغنى بشعره ويحفظ منه . فاذا أضيف الى ذلك ما حفظه في المدرسة الأولية من القرآن الكريم ، وما قرأه من العقد الفريد وغيره عرفنا مصدر تلك الاصالة العربية الواضحة في أسلوبه ، والتي زادها قوة وصقلا ما أضاف اليها فيما بعد من قراءات في الآداب الانجليزية

والفرنسية والالمانية ، حين عكف على ماكولي وجيبون وكارليل ورانكه وتبير وغيرهم من أعلام الأدب والتاريخ . فقد قرأ آثارهم الرائعة التي أعطته روحها في براعة الأداء وسلامة العرض لآرائه وفكره . ومن عصارة الثقافتين العربية والغربية ، تكوّن ذلك المزيج الذي يأسر القلب حين تطالع آثار ذلك المؤرخ الاسلامي ، حين يمزج الأدب والعلم والفن في أسلوبه ومنهجه .

* * *

ومن خلال دراساته أضيء الطريق أمامه الى غايته ، فهو يدرس الحقوق ويتخصص في القانون الدولي ، ويعمل في المحاماة ويتصل بالصحافة ، ثم يتعمق الطريق أمامه في أول الثلاثينات في عملين كبيرين هما : الدراسات الغامضة في التاريخ ، والصدام بين الشرق والغرب .

وقد أصدر في ذلك طائفة من الآثار والمؤلفات ، وفي هذه الدراسات واجه المؤرخ جوانب جديدة ، وكشف عن صفحات مشجية لم يعن بها من قبله أحد من الباحثين ، وهو بذلك قد أغنى فكرنا بألوان من الدراسات التاريخية معروضة على نحو علمي دقيق ، وفي أسلوب ناصع مشرق .

ويمضي عنان في طريقه ليصل الى أول الاربعينات من هذا القرن ، ومن عمره أيضاً . والى قمة دراساته وأعماله التاريخية وهو « تاريخ الأندلس » .

وهنا تتكشف نفسية مؤرخنا الاسلامي عن أعماقها قوة وبراعة واخلاصاً لفنه ، على نحو لم يتيسر لكثير من الباحثين والمؤرخين . فقد أحس « عنان » بمدى حاجة تاريخ الاندلس الى الدراسة المستوعبة ، وهو الذي صاحبه منذ مطالع شبابه بدراسات لمواقفه الحاسمة وتاريخ فتوحه وسير بعض أبطاله .

ولم يكن اتجاه عنان الى « تاريخ الأندلس » الا تمثلا لأعمق مشاعره وأصدق أحاسيسه ، فهو الذي عني منذ شبابه بأمر معارك العرب الكبرى ، وكان من

أشدها معركة « بلاط الشهداء » بين كارل مارتل وعبد الرحمن الغـافقي على ضفاف اللوار ، وحصار العرب للقسطنطينية وهزيمتهم تحت أسوارها . ثم كان إحساسه على مدى الأيام وهو يتحول من عمله كمحـام الى عمله كمؤرخ ، أن الأمر يتغير في تقديره ، فالمؤرخ محام في قضية كبرى ، ، ومن هنا كان لا بد لهذا المحامي الطموح أن يتولى الدفاع عن أكبر قضية في تاريخ الاسلام ، وهي قضية الأندلس .

* * *

ولم يكن تاريخ الأندلس محجوباً عن دراسات الكثـيرين من الباحثـين الغربيين والشرقيين على السواء ، ولكنه كان في حاجة الى عمل كامل شامـل يحقق كل ما قدمه الباحثون في مجال البحث من آراء ، وأن يكون مجالاً للتحقيق غير مقتصر على نصوص الكتب ، وانما يتجاوزها الى المخطوطـات و الوثائق المدفونة . فموائد البحث في دور الكتب لا تكفي ولا بد من مشاهدة مواطن المعارك في أرض الأندلس نفسها .

* * *

ومنذ عام ١٩٤٠ وفي خـــلال ربع قرن ارتبطت دراسة تاريخ الأندلس بأخصب سنوات حياة عنان . فقد أمضى هذه السنوات في دراسة هذا التاريخ الشجي ، ثم في رحلات متصلة الى أرض « الفردوس الاسلامي المفقود » . وهو منذ سنة ١٩٥٠ يقوم في كل عام برحلة . يمضي فيها الشهور الطويلة هنـاك بين الوهاد والسهول والمدن والقـرى الاسبانية ، باحثاً منقباً محققاً عن مواقع الآثار الأندلسية ، ثم متردداً على دور المخطوطات في الاسكوريال وسلمانقـا ومدريد وبلنسية وخزانة الرباط وخزانة جامع القرويين في فاس .

وهو في خلال أكـثر من اثنتي عشرة رحلة ، لم يترك قرية ولا مسجداً ولا

سوراً ولا كنيسة ولا موقعة ولا أثراً في الارض الأندلسية دون أن يزوره ، أو يحقق تاريخه ، أو يصوره ، أو يراجع ما كتب عنه .

وقد بلغ في ذلك غاية ما يفعل المؤرخ الذي لا يكتفي ، بأن يضع بين يديه الوثائق والأسانيد ، ثم يفحصها ويحققها . بل يقصد الى الأماكن التي كانت مسرحاً للأحداث أو المعارك أو المواقع فيفحص أرضها وأحجارها ، بل لقد يضطر الى أن يصعد ثماني ساعات الى الجبل ، ليقطع ثلاثة آلاف متر ويصل الى موقع معركة « العقاب » .

وهو في هذه الرحلات ينفق من خالص ماله ، لا يستعين بمؤسسة أو هيئة ما ، ويبذل من صحته حيث يحتمل مشقة التنقل وصعود الجبال ، لا يدفعه الى ذلك غير إيمانه العميق برسالته وهدفه .

وقد استطاع أن يحقق نتائج باهرة ، فقد حصل على كثير من الوثائق الجديدة في تاريخ الأندلس والمغرب ، ومنها وثائق لم يسبقه أحد الى كشفها . من ذلك وثائق ومعاهدات أندلسية إسبانية ينشرها لأول مرة باللغة العربية ، ولم يفطن اليها أي مؤرخ غربي أو شرقي .

* * *

ولعله مما لم يسبق اليه أنه يكتب عن المعارك في مواقعها ، حيث يزور أرضها ويدور حولها ويحقق كل دقائقها ثم يتخذ مكانه ومعه مراجعه ووثائقه ، ليكتب وأمامه الجبل والحصن والنهر وكأنما يرى المعركة تدور أو يسمع صليل السيوف وصهيل الخيول .

وهو يقول : « لم أترك مدينة أندلسية أو قرية الا زرتها ، ولم أترك ميداناً لمعركة هامة وقعت بين المسلمين والإسبان الا زرتها ودرستها . وقد طفت في جبال — الشارات — « سير أمورينا » وجبال « سيراهادا » وغيرها من الجبال والوهاد » .

* * *

والواقع أننا من خلال هذا العمل التاريخي الكبير في مجال دراسة الأندلس، نكتشف جوهر شخصية هذا المؤرخ الذي وهب نفسه للفكرة التي آمن بها . فهو يقول : « أعتقد في دخيلة نفسي أن لي رسالة تاريخية أهبها حياتي ، وهي جلاء التاريخ الاسلامي في ثوب ناصع يتفق مع عظمة الرسالة الاسلامية ، وقيمة النتائج التي انتهيت الى تحقيقها وابرازها بانصاف وصدق ودون أي نعرة عنصرية » .

ويقول أيضاً : « لقد أحببت الأندلس حباً ملك علي شغاف قلبي، فأنا في كل مرة أزورها أكاد أقبل أحجار قصر الحمراء في غرناطة، وأبكي أمام المحاريب الاسلامية في قرطبة ، ولكني لا أدع هذه العاطفة تتدخل في عملي . فانما أنا محام ومؤرخ أبحث القضية بروح الانصاف والحق وأتطلع الى السند والوثيقة ولا أحجم عن اصدار حكمي وان خالف رأي غيري » .

* * *

وهكذا تدور حياة مؤرخنا الاسلامي الكبير محمد عبد الله عنان ، متصلة مترابطة منذ مطالعها على نحو قلما أتيح لمفكر أو باحث . فقد وجد عنان طريقه منذ اللحظة الأولى ، وعاش حياته كلها يعمق هذا الطريق ويوسعه ، وقد استطاع أن يقدم للفكر الاسلامي هذا العمل الكبير في موسوعته الأندلسية التي اكتملت حلقاتها بصدور كتابه « عصر المرابطين والموحدين » . وعندنا أن عمل مؤرخنا الكبير ما زال ممتداً في تحقيق جوانب كثيرة من تاريخنا الاسلامي، وما زال قراؤه يتطلعون دائماً الى آثاره وأعماله التي اتسمت دائماً بالدقة والخصوبة ، والتي أنارت كثيراً من الجوانب الغامضة ، وأكملت غير قليل من الحلقات المفقودة .

● محمد عبد الله عنان : مؤرخ الاسلام والأندلس من مواليد ١٩٠٦ تقريباً .

من مؤلفاته : تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ، المذاهب الإجتماعية ، ابن خلدون ، مصر الاسلامية ، قصص اجتماعية ، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، قضايا التاريخ الكبرى واشهر المحاكمات ، تاريخ الجامع الأزهر ، المآسي والصور الغوامض ، مأساة مايرلنج الخ .

★

(٣٥)

الدكتور م. محمد حسين
تطور الأدب

عرف الباحثون الدكتور محمد حسين بكتابه « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » الذي أصدره منذ بضعة عشر عاماً ، والكتاب يعطي صورة « أستاذ الأدب » . وحتى يمكن أن يكتمل رسم الصورة ، فلا بد أن نرجع الى آثاره الأخرى التي تجاوزت ميدان الأدب الى ميدان الفكر . وكان قد أصدر في السنوات الأخيرة بعض دراسات قصيرة منها كتاب : « الروحية الحديثة حقيقتها وأهدافها » ومحاضرته : « اتجاهات هدامة في الفكر العربي المعاصر » ، ومجموعة مقالاته التي نشرها في مجلة الأزهر عن « الثقافة العربية والاستعمار » ، ومحاضرته عن الإسلام والحضارة الغربية » .

وهي في مجموعها تعطي صورة هذا الباحث العربي في مجال الفكر والثقافة ، فهو معني باللغة العربية والأدب العربي والثقافة الاسلامية . فاللغة العربية عنده هي أقدم ما تقوم عليه الوحدة العربية من الروابط ، وهي الرابطة التي ارتفعت حتى الآن فوق كل مراء ، « فقد مارى أعداء العروبة زمناً في أن العرب ينتمون الى جنس واحد ، فسمعنا أصوات المنكرين ، وماروا حيناً في ارتباط القومية العربية بالاسلام ، فسمعنا من يزعم أن هذه الصبغة تنفر غير

المسلمين من العرب ، وظلت رابطة اللغة بعد ذلك تسمو على كل مراء ، لا ينازع منازع في أنها هي الرباط الأقوى بين العرب » .

وعنده أن الاتجاهات الهدامة الموجهة الى اللغة العربية تهدف الى الدعوة للتحول عنها ، الى اللهجات السوقية المحلية التي يطلقون عليها اسم العامية ، او الدعوة الى التحول الى الحروف اللاتينية . وقد ظهرت هذه الدعوات أول ما ظهرت على أيدي رجال الاستعمار في مختلف اجزاء الوطن العربي ، وفي مقدمتهم سبيتا ، وفولارز وباول وماسبيرو الذين قادوا هذة الدعوة في مصر ١٨٨٠ . وقد جمع بعض هؤلاء المؤلفين طائفة من الحكايات والأمثال وألفاظ من مرددات العوام ، ونادوا باتخاذ اللهجة التي كتبت بها هذه المرددات «لغة» للتدوين والتأليف والأدب الرفيع . كما وضع بعضهم كتباً استنبط منها قواعد للهجة مصر العامية ، واقتصر بعضهم على لهجة القاهرة ، وفعل مثل هذه آخرون في مختلف البلاد العربية . فكتب كوسان دي برسفال كتاباً في (قواعد العامية الشرقية) والمغربية ، وكتب ماسنيون (لهجة بيروت العامية) ، ثم في لهجة بغداد العامية وكتب غيرهما في لهجة مراكش العامية ، وعامية دمشق .

وقال الدكتور محمد محمد حسين أنه ليس لهذه الدعوات من هدف سوى محاربة الفصحى والتخلص منها دفعة واحدة ، إذا أمكن ، وبالتدريج إذا استعصى ذلك ، وأشار الى حجج أعداء اللغة فقال : أنها لا تتجاوز الكلام عن صعوبة تعلمها من ناحية ، والقول بعجزها عن تأدية الأغراض الأدبية والعلمية الحديثة ، وهم يجيبون على اعتراض المعترضين بضياع التراث القديم بالتقليل من قيمة هذا التراث تارة ، وبإمكان ترجمة الصالح منه الى اللهجات الجديدة تارة أخرى .

ثم رد الدكتور محمد حسين على مزاعم خصوم اللغة العربية فقال : أن عامة العرب والمسلمين وخاصتهم لا يستغنون عن الفصحى لمطالعة القرآن والحديث وكتب الفكر العربي ، وأن اللغة العربية ليست غريبة على أفهام العامة إلا إذا

أريد التقعر . أما لغة الانشاء العصرية فهي شائعة في الصحف والمجـــلات ويفهمها الخاص والعام .

وقال أنـــه لا يجوز قياس العربية على اللاتينية ، لأن الفرق بين اللاتينية وفروعها أبعد كثيراً من الفرق بين العربيـــة وفروعهـــا العامية ، فالعـــامي الانكليزي والفرنسي ينظر الى اللاتينية نظرته الى لغة غريبة ، أما العامي العربي فإنه يفهم اللغة العربية الفصحى ، واذا فاته بعض الألفاظ فإن المعنى الإجمالي يندر أن يفوته .

ودحض الدكتور حسين الزعم القائل بأن اللغة العربية بدعاً في اللغات ، بامتياز اللغة المكتوبة فيها عن اللهجة المحكية ، وأن هذا زعم باطل ، فلكل أمة لغة للعلم والثقافة والأدب تختلف عن لهجة الحديث والأسواق ، وكذلك كان الشأن في العربية منذ الجاهلية ، فكانت للعرب لغة أدبية موحدة يكتبون بها أشعارهم غير التي يتحدثونها في أسمارهم وفي معاملاتهم ، والتي ربما استعملوها في أدب محلي يتمثل في أرجازهم ، وهذا هو السبب في اهمال كتب الأدب للرجز واحتقارها له وتسميته (حمار الشعر) ، فتجاوز لغة الأدب ولهجة الحديث أمر واقع وظاهرة طبيعية كل منهما صحيح في ميدانه .

وقال : ان القائلين بأن يتخذ كل عربي لهجته العامية ، هم القائلون بانحـــلال العالم العربي وتشتيت شمل الناطقين بالعربية ، وان قواعـــد النحو التي يزعمون أنها معقدة قد استطاعت أن تعيش أكثر من ألف سنة ، أنتج الناس خلالها في مختلف الأمصار العربية وغير العربية ثروة من الكتب العربية الصحيحـــة لا تحصى ، وأن هذه القرون المتطاولة أصدق شهادة لصلاحيـــة النحو من كل ما يزعمون .

أما في مجال الأدب ، فالدكتور محمد حسين معني « بتصحيح المفاهيم » ، فهو لا يرى أن بعض هذه الصور المنحرفة تمثـــل أصالة أدبنـــا العربي التي تتمثل فيه طبيعة العربي وخلقه ومروءته وأريحيته ، وعنده أن أكثر ما يذاع

من هذا الأدب الهدام الذي يعوق نظرة الانسان العربي يتستر تحت اسم مذاهب فنية ودراسات علمية ، وهو مطبوع بطابع غريب على الأمة العربية ، إذ هو مطبوع بطابع الأنانية والانطواء على النفس حيث تجد النفوس السقيمة لذتها في الشكوى والبكاء .

وعنده أن هناك ألواناً من الأدب تعرض خفايا العورات وتجرح كثيراً من الفضائل باسم « الواقعية والتحليل النفسي » ، فهي تبرز كثيراً من الرزائل باسم التنفيس وتسقط التبعة عن كثير من الجرائم بزعم أن أصحابها مصابون بأمراض نفسية .

ومن ذلك ما ذاع باسم التحرر من الدعوة الى إعادة النظر في كل مواريثنا الخلقية ومعاييرنا الاجتماعية ، والى الخروج عن كل ثابت مقرر مما توفره التقاليد ويقدسه الدين .

ولكن الدكتور محمد حسين لا يدعو الى مصادرة البحوث النفسية والاجتماعية والخلقية ، فذلك مما لا يدعو اليه مفكر يقدر نعمة العقل ، ولكنه يدعو الى تقييدها بالدين ، لئلا تتفرق بالناس السبل ، ولكي لا تمزقهم الخلافات الواسعة والمذاهب المتصارعة المتناقضة ، وعنده أن « الدين » ليس قيداً في حقيقة الأمر لأنه لا يعطل العقل ، ولكنه يحفظه من الضلال ، ويلزمه أصولاً وقواعد هي كالسور الذي يعصم السالك في الظلام من التردي من الهاوية .

* * *

والدكتور محمد حسين رجل غير مكثر في ميدان الكتابة ، ولكنه رصين الأداء مقتدر في استيفاء جوانب موضوعه ، ينظر الى الأمور في عمق ويستهدف إيماناً صادقاً بالمقومات الأساسية للفكر العربي ودفاعاً عنها. وكتابه « الاتجاهات الوطنية » في جزئيه خير مثل لهذه الروح ، وفي دراسته عن الروحية الحديثة وموقفه من المؤتمرات المختلفة التي تعقد لدراسة شئون الشرق والفكر العربي .

والاسلام واضح الدلالة على رغبته في أن تحتفظ هذه الأمة بمقوماتها الأساسية وأن تجعلها مصدراً لتطورها الثقافي والفكري .

وفي محاضرته عن «الاسلام والحضارة الغربية» يكشف ذلك الجانب الدقيق المتصل بين رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي، وهما رائدا الدعوة الى الترجمة والنقل والاقتباس من الفكر الغربي . أما رفاعة الطهطاوي فقد نشر أفكاره هذه في عديد من مؤلفاته : (١) تخليص الابريز في تلخيص باريز . (٢) المرشد الأمين للبنات والبنين . (٣) مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية . أما خير الدين فقد أدرج آرائه كلها في كتابه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » ، وعند الدكتور حسين أن أبرز هذه الافكار هي : الحرية والتعليم ، والوطن والوطنية . أما خير الدين فقد كان يشارك رفاعة الطهطاوي في الاعجاب بالحرية التي قامت عليها الحضارة الغربية ، ولكنه على حد تعبير الدكتور حسين كان أعمق من الطهطاوي في تصور حدودها وآفاقها وما يترتب عليها من آثار .

ومن أهم ما خلص اليه الدكتور محمد حسين في دراساته ، ذلك الموقف الذي يقفه من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده . وهو موقف ليس جديداً بالنسبة للعاملين الاسلاميين فقد سبقه اليه كثيرون ، ولكن الجديد أنه تناوله على نحو بعيد عن الهوى ، وبمنهج علمي أساسه الحاجة الشديدة الى إعادة النظر في تقويم الرجال ذلك – وهذه عبارته – « ان كثيراً ممن نعتبرهم دعائم النهضة الحديثة لم يصبحوا كذلك في أوهام الناس ، إلا بسبب الدعايات المغرضة التي أرادت أن تضعهم في هذه المنزلة » ، يقول : « ونحن حين ندعو إلى إعادة النظر في تقويم الرجال لا نريد أن ننقص من قدر أحد ، ولكن لا نريد أن تقوم في مجتمعنا أصنام معبودة » ، وأهم ما يلفت نظر الدكتور حسين في جمال الدين الأفغاني غموض سيرته وغرابة أطواره ، هذا الغموض الذي يصفه بأن الأيام لم تكشف حقيقته بعد، يقول: «وقد ترك هذا الرجل الغريب أثراً عميقاً في توجيه الفكر الاسلامي ، والأحداث السياسية في هذه الفترة وفيما تلاها ، ولا

يزال أثره باقياً وميسمه واضحاً حتى الان » ، وعنده ان الدارس المدقق لسيرة جمال الدين لا يملك إلا أن يتوقف أمام كثير من الظواهر الغريبة في سيرته ، إنه يتساءل « فيم تنقله السريع المفاجيء الذي لا يفتر بين ايران وبلاد الأفغان والهند والحجاز ومصر وتركيا وفرنسا وانجلترا والروسيا ، وفيم هذه الأزياء المختلفة التي كان يلبسها في كل بلد ، فيم كل هذا وباغي الخير لا يحتاج الى التستر والتخفي ومن أين كان ينفق على هذه الرحلات ؟.. » !

وهكذا يمضي الدكتور محمد حسين في إثارة الشبهات حول حقيقة جمال الدين ومواقفه ، مخالفاً كل ما ذهب الناس اليه من الثقة به ، واعتباره رائد النهضة وموقظ الشرق ، وليس على الباحث من ضير في أن يرى ما يراه ، ما دام يقدم دليله وفق منهج البحث العلمي . ويقف الدكتور حسين نفس الموقف من الشيخ محمد عبده ، حين تابع أستاذه جمال الدين ، وحين تحول عنه وركز في الشبهة على اتصاله بألفرد بلنت ، وصلته باللورد كرومر ، مورداً نصوصاً وأسانيد يستشهد بها على ما اعتقده واقتنع به .

وليس من شك أن البحث العلمي للفكر العربي المعاصر في حاجة الى مثل هذه النوافذ الحرة ، التي تقلّب الأمور في تاريخنا على وجوهها المختلفة ، والتي تقف من الآراء المعتنقة والمتفق عليها موقف الشك والمراجعة ، ولا شك أن مثل هذه الدراسات ستكون بعيدة الفائدة في تعميق مجرى فكرنا العربي وتأصيله .

● الدكتور م . محمد حسين : أستاذ الأدب العربي بجامعة الاسكندرية ، من مواليد سوهاج ١٩١٢ تقريباً ، ابرز مؤلفاته : كتابه: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (٢ مجلد) ، وله محاضرات متعددة ، أبرزها محاضرته عن الاسلام والحضارة الغربية ، وقد حقق بعض الكتب المخطوطة ، عمل فترة في جامعة ليبيا ، وجه طلابه الى دراسات خطية ، مثمرة .

(٣٦)

الدكتور مصطفى الحفناوي
تاريخ قناة السويس

من القضايا الكبرى في حياة الأمم والشعوب قضايا مسيطرة اذا اقترب منها الباحث جردته لها واستأثرت به حياته كله وفكره كله ، واذا كان أدب الطفل قد استأثر بكامل كيلاني ، والحوار والمسرح بتوفيق الحكيم ، والتاريخ القومي بعبد الرحمن الرافعي ، فإن تاريخ وقضية قناة السويس قـــد استأثرت بفكر الدكتور مصطفى الحفناوي وحياته على نحو صرفه اليها عشر سنوات ، ودفعه الى إنشاء مطبعة قناة السويس وأن يتولى في مكتبه كمحام قضايا قناة السويس ، وأن يعيش هذه القضية في مصر وفي باريس حتى يحرز درجة الدكتوراه فيها من فوق كرسي جامعة السوربون .

يقول : « حتى عام ١٩٤٧ لم أكن أعرف عن القناة أكثر من أنها شريان يجري في أرض مصر ، وكنت محامياً أباشر فيما أباشر من المنازعات التي وكلت فيها قضايا عملية قناطر أسنا ، التي نقدتهـــا شركة موكلتي لحساب وزارة الأشغال . ودعوتي للندن للمناقشة في تلك الأمور القضائية ، ولم أكن سافرت لأوربا من قبل ، وصادفني بعرض البحر وأنا أتناول طعـــام الافطار بالباخرة

مسافر انجليزي راح يسلي الركاب بحديث عن قناة السويس ، ويمن من ثناياه على مصر ويسبها فاعترضته قائلاً : اننا سنستلم القناة وندبرها بأنفسنا في عام ١٩٦٨ ، ولم يحتمل الرجل تلك الكلمة فغضب أيما غضب وشاركه في غضبه الأجانب الذين يسمعون له ، وانسحبت من المائدة وفي قلبي جرح شديد .

وشاء الله أن أصل الى لندن وأحاول قراءة شيء عن القناة فينفتح لي مصادفة ، دون أن أطلب ذلك أرشيف غني بالوثائق الخطيرة ، وحينئذ أقسمت فيما بيني وبين نفسي أن أوجه ايراد مكتبي وكل امكانية تصل ليدي لهذا الموضوع فأنقطع له وأتخصص فيه لأترافع في هذه القضية وأميط اللثام عن هذه المأساة .

وتعددت بعد ذلك رحلاتي لأوربا ، وطرقت دور المحفوظات الرسمية وغير الرسميه ، فلم يوصد باب واحد حتى باب الشركة الاستعمارية في باريس ، اتيح لي أن أدلف منه الى محفوظاتها وأن أطلع على البيانات المطلوبة في نهم شديد .

وكنت متنكراً تحت ستار وظيفة عارضة بسفارة مصر في باريس ، وتحققت النقطة الأولى من البرنامج في ٥ يوليو سنة ١٩٥١ يوم أن نوقشت رسالتي بكلية الحقوق بجامعة باريس في موضوع قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، وبعد جدل طويل أعلنوا أنهم يخالفونني الرأي ، ولكنهم يسلمون بوثائقي وبراهيني ، وقوة الرسالة من الناحية الفنية فيمنحونني الدرجة العلمية .

وفي اليوم التالي بادرت بالاستقالة ، ثم عدت لبلادي وقدتها معركة قلمية مطالباً بتصفية الشركة الاستعمارية . مجلدات وكتب ومؤلفات ومقالات وخطب ومحاضرات ، في كل ندوة وفي كل معهد وفي كل مكان عام ، والشركة تتعقبني وتطاردني ، مستعملة أموالها وجاهها فتوصد أبواب الصحف في وجهي ، ثم لا ألبث أن أصدر صحيفة (قناة السويس) ، وتحارب الصحيفة في السوق ،

فأرسلها للقراء بالبريد ، وتسرق الأصول من المطابع فأشتري مطبعة ، فتحارب المطبعة المتواضعة ويسخر من يقاضيني بدعوى ازعاج سكان حي جاردن سيتي ، وكان المبنى يتألف من مسجد ومطبعة ودار لقناة السويس ، فيهدمون الدار بيد خفية أثناء سفري ، وأحاول إعادة البناء فلا أجد الإمكانيات ، فأسافر الى الريف لأزرع الطماطم والأرز متربصاً وغير مستسلم للناس » .

ثم يكون بالطبع ما تحقق من تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ .

* * *

هذا عمل فكري استغرق عشر سنوات ، أصدر صاحبه كتاباً في خمس مجلدات كبيرة هي « قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة » ، درس فيها هذه القضية منذ إنشاء القناة في منتصف القرن التاسع عشر الى تأميمها في منتصف القرن العشرين ، وقد سلخ في هذا العمل جهد سنوات طويلة باحثاً في دور محفوظات الدول الغربية عن المصادر والأسانيد .

غير أن مصطفى الحفناوي كان له تاريخ قبل هذه الدراسة ، وجهد في مجال الفكر أكسبه أسلوباً عربياً ناصعاً وقوة عارضة في الجدل والبحث ، فقد كان قريب الاتصال بالحركة الوطنية في خط مصطفى كامل ومحمد فريد ، وهو الخط الوحيد الذي ظل سليماً فترة طويلة من الزمن، وقد مس كل من اتصل به بروح الايمان والاخلاص ، ولقد كان دائماً يربط بين ثقافته العصرية والثقافة العربية الاسلامية ، ويؤمن بقدرة الأمة العربية على النهوض والحياة والتفوق ، غير أن قضية قناة السويس كانت محوراً أساسياً لتفكيره كله . ومن أجل هذا فهي عنده مصدراً لتفسير كل تصرفات الاستعمار والنفوذ الغربي ، يقول: « إن قناة السويس مع ما توحي به من أنها أداة خير عام ، لم تكن الا مؤامرة اشتركت فيها دول أوربا الكبيرة منذ أقدم العصور ، بل أكبر وأخطر مؤامرة عرفها التاريخ ، أرادوا بها احتلال مصر من أجل القناة بمعرفة دولة أوروبية » .

وهو يدرس تاريخ العالم وتاريخ مصر من خلال قناة السويس من وجهة نظريتين : إرتباط كل قضايا الاستعمار والنفوذ الأجنبي بقناة السويس، وامتداد حركات الغزو العسكري السياسي منها .

ويمكن القول بأن « مصطفى الحفناوي » قد إختص بقطاع فكري كانت تبرز فيه مجموعة من المفاهيم الخاطئة التي حاولت أن تفرض نفسها ، وقد إستطاع بدراسته وما وصل اليه من البحث والوثائق ، أن يكشف هذه الاخطاء ، ويصحح هذه المفاهيم . غير أنه لا يرى نفسه رائد هذا البحث ، ويعترف بالفضل للذين سبقوه في هذا المجال ، يقول : « لست أول مصري تصدى لتاريخ قناة السويس ومسائلها بالبحث والدراسة ، فقد سبقني « طلعت حرب » في رسالة قيمة عن قناة السويس ، والدكتور حسين حسني » .

ونذكر في هذا المجال أبحاث : المرحوم محمد فريد في القديم ، والدكتور محمد صبري في الحديث . غير أن الدكتور الحفناوي كان بحق صاحب التخصص في هذا المجال .

وقد أصدر أربع مجلدات ضخمة في هذه القضية: « قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة » كما أصدر عديداً من الكتب المختصرة حول هذه القضايا .

* * *

وفي مجال « الفكر العربي الاسلامي » يبرز الدكتور الحفناوي بنصاعة مفاهيمه حين يتعرض هذا الفكر لاتهام أو انتقاص ، فقد صادف بعض دعاة التغريب في احدى الندوات ينكرون فضل حضارة العرب على الحضارة الغربية ، هنالك اندفع في حماسة العلماء ينقد آرائهم من وحي اللحظة الحاضرة كأنه يقرأ في كتاب[1] ، ومن ذلك قوله :

---

(١) نشرنا نص هذه المحاضرة في كتابنا « معالم الأدب العربي المعاصر » : الثقافة العربية ص ١١٠ .

« إن مفخرة روسو وركن الثورة الفرنسية الركين هو (العقد الاجتماعي) وما هذا العقد الا فكرة (البيعة) في الفكر العربي الاسلامي سرقها روسو وصاغها وأخرجها بأسلوبه » .

إن علينا قبل أن نتورط فيما يردد البعض من ضرورة الأخذ بحضارة الغرب (يقصد الفكر الغربي لا الآلة) أن نقف على رأي الغرب نفسه في حضارته ، يقول السياسي الألماني (فون باين) : نحن الآن على حافة الهاوية ، ذلك لأننا تقدمنا في العلم حتى صرنا عبيد العلم ، وتفننا في الاختراع فأضحينا عبيد الاختراع ، وتمادينا في استخدام الآلة الى أن حكمتنا الآلة ولم يبق الا بارقة أمل ضعيفة ، لا أظن أننا سنهتدي اليها ، هذا الأمل الوحيد في النجاة هو أن نؤمن بأن هذا الكون له خالق ، وأن هذا الخالق قد وضع له قوانين ، وما على الانسان إلا أن يسير طبقاً لهذه القوانين ، فإن فعلنا ذلك تحررنا من العبودية ، واستطعنا أن نحكم العلم والاختراع والآلة جميعاً ، وبذلك تنجو الانسانية كلها من الهوة التي تقف على حافتها

لقد تحدث محدثنا – يقصد الباحث الذي يرد عليه – عن مدنية الاغريق ، ونسب اليهم حضارة العرب والمسلمين ، وجرد هؤلاء من كل فضل ، وكنت أرجو ان يدلنا على كتب الاغريق التي قرأها أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » والتي ساعدته في إقامة دولة عظمى كانت ذات نظم رائعة في السياسة وفي الإدارة ، ولكني سأقدم السند العكسي فأقول له أن الناس في عصور الاغريق والرومان كانوا يباعون بيع السلع ، وكان الآدميون ملحقين بالأشياء والدوب ، فلم تعرف حقوق الفرد ، ولم تظهر حقوق الانسان الا بالرسالة العظمى : رسالة الاسلام ، الناس سواسية أمام الله ، لا فضل لعربي على عجمي ولا تفريق ولا تمييز بين لون ولون وجنس ... الخ » (ا. هـ).

* * *

وإذا كان لنا أن نربط بين هذه المفاهيم وبين قضية قناة السويس وجدنا ذلك سهلاً يسيراً ، فإن الدكتور الحفناوي يرى ان حفر قناة السويس كان متصلاً بالحروب الصليبية وبالحملات التي قادها الغرب لانتزاع العالم الاسلامي العربي والسيطرة عليه ، وأن من بين المؤامرات التي رسمت لهذا الغرض هي مؤامرة حفر قناة تصل بين البحرين الأبيض والأحمر ، تسيطر عليها أوربا ، وهي فكرة بدأت عام ١٢٤٩ م في وثيقة قدمت لأحد ملوك أوربا ، وظلت هذه الفكرة حية في نفوس المستعمرين حتى جاء نابليون الى مصر ، وحتى نفذها دلسبس في منتصف القرن التاسع عشر ، ومنها سيطرت دول الاستعمار على العالم العربي كله .

وقد ظل « مصطفى الحفناوي » يدعو لقضية قناة السويس ويكافح من أجلها حتى تحقق أمله عام ١٩٥٦ بتأميم قناة السويس وسيطرة الأمة العربية ممثلة في مصر الثورة لهذا الممر المائي الخطير الشأن .

- مصطفى الحفناوي : من خريجي كلية الحقوق المصرية ، والمحامي الذي جعل قناة السويس قضيته الكبرى ، وكان من رجال الحزب الوطني .

من مؤلفاته : قانون البحار الدولي في زمن السلم ، الدعاية السياسية والاستقلال ، فكرة الدولة في الاسلام ، ابن سعود سياسته وحروبه ، أصل الحضارة .

هلال ناجي

الزهاوي وديوانه المفقود

إن جميع الظواهر الفكرية التي بين أيدينا تكاد تقنعنا أننا دخلنا عهد الموسوعات والأبحاث الجامعة ، والتحقيقات الأدبية الشاملة . فبعد أن كنا في في الثلاثينيات والاربعينيات من هذا القرن نعنى بالأجزاء الفكرية والقطاعات الفكرية المختلفة من حياة المفكرين ودراسات الأعلام ، تجدنا اليوم قد دخلنا منطقة الشمول والبحث الجامع. وأمامنا في السنوات الأخيرة عديدمن الدراسات المنوعة الجامعة عن كثير من أعلام التاريخ والفكر والأدب والشعر ، فقد ظهرت دراسات عن : الجبرتي والكواكبي وشوقي وحافظ ومطران والأفغاني وجبران .

ولقد كان متوقعاً أن تظهر دراسات جامعة عن الرصافي والزهاوي وأحمد محرم وزكي مبارك وهيكل وغيرهم .

وقد أغنانا الشاعر العراقي العربي « هلال ناجي » حين قدم من قبل دراستين عن « الرصافي » هما : « من حياة الرصافي وأدبه » و « القومية والاشتراكية في

شعر الرصافي » . وكنـــا نتوقع أن نجد بين أيدينا دراسة جامعة شاملة عن « الزهاوي » بعد أن مر اليوم أكثر من ربع قرن على وفاته .

وهلال ناجي – فوق أنه شاعر وصفه بعض النقاد بشاعر اللمحات المضيئة ، وفوق أن شعره القومي العربي الوحدوي في حاجة الى دراسة مستقلة فإنه باحث لامع، له أدوات الباحث وكفايته ووسائله العلمية، القائمة على التحقق والمراجعة، ومعارضة النصوص ، والوصول الى الحقائق على النحو الذي يشهد له بالإنصاف والتجرد .

وهو من طائفة « الشمول والإغناء » وهي طائفة قليلة العدد في عالمنا العربي – وأعتقد أنني واحد منها – على الرغم مما يوجه لهذه الطائفة من نقد من حيث الاهتمام بتقديم أكـــبر قدر ممكن من النصوص والأسانيد ، فهو يريد في كتابه « الزهاوي وديوانه المفقود » أن يقدم للقارىء كل مـــا يتصل بموضوعه بحيث لا يحوجه الى أي مرجع آخر عنه ، فقد استعرض كل ما كتب عن الزهاوي في حياته وبعد مماته من دراسات تمتد أكثر من أربعين عاماً في عمر الزمن ، وتشمل مؤلفات أربعة عنه كان لي شرف الاسهام في اعداد واحد منها وهي : الزهاوي الشاعر : إسماعيل أدهم ١٩٣٧ ، حقيقة الزهاوي : مهدي عبـــاس العبيدي ١٩٤٧ ، محاضرات عن الزهاوي : الدكتور ناصر الحاني ١٩٥٤ ، الزهاوي شاعر الحرية : أنور الجندي ١٩٦٠، ٢٤ مقالاً وبحثاً نشرت في الصحف والكتب خلال هذه الفترة ، وعني الأستاذ هـــلال بأن يلخص آراء الكتّاب والباحثين عن الزهاوي ويراجعها ويحققها ويصحح ما ورد بها من أخطاء وما اتصل بحيـاة الشاعر أو أدبه من تحريف .

وقد جاء الكتاب مرجعاً شاملاً لحياة الزهاوي وأدبه محققاً وقائع حياته ، مستوعباً لكل ما يتصل به من قريب أو بعيد في أبواب ستة هي :

١ – حياة الزهاوي ٢ – آثار الزهاوي ٣ – شعر الزهاوي « وهو أطول

فصول الكتاب وقد بلغ ١١٠ صفحات » ٤ – الشعر والشعراء عند الزهاوي ٥ – الزهاوي في نظر المستشرقين ٦ – الزهاوي في آثار الباحثين .

ثم ضم الكتاب ديوان « النزعات » وهو الديوان الذي قرأنا عنه كثيراً منذ أودعه الزهاوي لدى سلامه موسى في القاهرة عام ١٩٢٤ ، وظل المعنيون بالدراسات الأدبية والشعرية يتطلعون اليه حتى استطاع هلال ناجي أن يظفر به ، ويحقق بإخراجه نصراً أدبياً لا شك فيه ، وقد عني الباحث بأمور على قدر كبير من الأهمية في البحث العلمي منها :

– الاهتمام بتقديم النصوص الكاملة للآثار التي دار حولها البحث طويلاً وليست تحت يد الباحثين كاملة ، من ذلك قصيدة الزهاوي المشهورة في مدح الانجليز ومقاله في المؤيد عن تحرير المرأة .

– الاهتمام بعقد المقارنة لأول مرة بين الزهاوي والمعري.

– العناية الشاملة بتحقيق الوقائع والكشف عن الجوانب الغامضة.

– الانصاف للزهاوي مع الانصاف للتاريخ ، فان الكاتب الذي اهتم أبلغ الاهتمام بأن يقدم دراسة منهجية شاملة لحياة الزهاوي وأدبه ، أساسها التقدير لشخصية الشاعر الكبير ، الذي لم ينصف على النحو الذي هو جدير به ، لم يتردد في أن يحصي عليه أخطاءه ويسرد مؤاخذاته.

– حقق وقائع حياته وناقض الزهاوي نفسه في مذكراته الخاصة ، عندما أشار الى محاولة الجماهير قتله بسبب مقالة نشرها في المؤيد عام ١٩١٠ في الدفاع عن المرأة ، وهي قصة رددها جميع مؤرخيه وأنكرها الباحث ، وكذلك ما قال عن نفسه من أنه أول من هاجم الاستبداد العثماني ، وأول من دافع عن المرأة شعراً ، وأول من كتب القصة الشعرية .

ولقد لخص هلال ناجي الدوافع التي دعته الى إعداد هذه الدراسة وأجملها في :

١ — أن الزهاوي قد غبن ميتاً بعد أن غبن حياً . فهو لم يظفر ببعض ما ظفر به أقرانه ومعاصروه الذين ألفت عنهم الرسائل الجامعية كالرصافي والكاظمي . فأراد أن ينتصر له بحكم أنه رجل قانون ينتصف للمغبون .

٢ — وأن الزهاوي كان قريباً دائماً من نفسه ، فقد كان يمر في غدوه ورواحه الى المدرسة على ضريحه .

٣ — نشر ديوانه المفقود الذي ظل مطوياً أكثر من ثمانية وثلاثين عاماً . يقول هلال ناجي في تصوير دوافعه لدراسة الزهاوي :

كنت أمر بقبره في غدوتي الى المدرسة وفي رواحي منها ، وكلما نظرت الى ضريحه جالت فى خاطري الرغبة في دراسة هذا الشاعر الكبير ، كان أكثر ما يثيرني إشارة عدد كبير من الكتّاب الى واقعة تأثره بفيلسوف المعرة مجرد إشارة، دونما تفصيل أو تعريف يشبع فضول الأديب أو المتأدب ، فما من دارس عرض لشعرهما الفلسفي فوازن بينهما وأماط اللثام عن مواضع الائتلاف ومواطن الاختلاف .

وكنت أحس بقول الزهاوي مخاطباً « أبا العلاء » يدوي في أعماقي :

إني تتلمذت في بيتي عليك وإن أبلت عظامك أزمان وأزمان

ثم لفتني مشاغل الحياة في دوامتها بعد تخرجي ، حتى إذا كان صيف عام ١٩٦١ وكنت آنذاك في سوريا فأتيحت لي زيارة — معرة النعمان — ووقفت بها أستقرأ التراب أحداث الزمن وأستروح روائح المعري في مسقط رأسه ومربضه ، وعادت الفكرة تلح علي من جديد « الزهاوي معري هذا العصر » : هكذا قال طه حسين .

لقد شارك الزهاوي فيلسوف المعرة أبا العلاء عرشه في الجلوس على قمة الشعر العربي الفلسفي : هكذا قال اسماعيل أدهم .

وكنت أشعر أننا كعراقيين مدينون لأبي العلاء كثيراً ، لقد أحبنا حباً جماً ، فقال في بغداد ما لم يقله غيره ، وقال في عراقنا الحبيب :

كلفنا بالعراق ونحن شرخ فلم نلم بها الا كهولا
وردنا ما أدبنا خير مـاء وزرنا أشرف الشجر النخيل

* * *

وخلاصة رأي المؤلف في الزهاوي أن شعر الزهاوي يجمع بين التجديد والتقليد في صعيد واحـد ، ففي الوقت الذي يتجنب فيه المحسنات اللفظية والبديعية ، نجده يحاكي كثيراً من القدماء في أسلوبهم ، وقد عرض لأهم نقد وجه لشعر الزهاوي ، وأن شعره مبعثه الفكر لا القلب . فقال : أن مهمة الشاعر في الأصل أن يكون خالق صور ، لكن الشاعر العبقري هو الذي يستطيع أن يكون خالق أفكار الى جانب ذلك ، وخالق عواطف عن طريق هذه الأفكار. وقال أن الزهاوي في غمرة سعيه لأن يكون خالق أفكار أهمل أحياناً ومن غير قصد وظيفة الشاعر الأساسية : خالق الصور . وقد وجه هلال اهتمامه لدراسة الشعر الفلسفي للزهاوي ، باعتباره أبرز فنـون شعره ، في عرض مستفيض واسع ، تناول كل فنون شعره وأفانين النظم عنده ، وعرض للقضايا التي أثيرت حول اتهامه بالإلحاد وإنكار الألوهية ، وجلا هذه الجوانب ، وأشار الى تأثره بالمعري والمتنبي وبشار والنواس والخيام . والى أنه تأثر أيضاً بالرصافي ، فقد حاول محاكاته ومجاراته في اختيار البحر والقافيه والموضوع ، وأنت تشعر في كل مقارنة أن الكاتب يمجد الرصافي ويضعه فوق الزهاوي ويرى أنه (شاعر مكافحة الاستعمار وعملائه) . وان له رصيداً من شعر كفـاح استبداد الملوك والأمراء لا نظير له في شعرنا العربي المعاصر . وأفرد الكاتب فصلاً لمؤاخذته للزهاوي ، فأشار الى أنه بعد أن هجا السلطان عبد الحميد في رائعته « أيـام ظل الله في أرضه ... الخ » عاد فاستجد ومدحه مدحاً جليلاً في كتابه « الفجر الصادق » .

وأحصى عليه أنه في كتابه هذا دعا الى تدمير فرقة الوهابية التي نقدت بيعة السلطان وخرجت على طاعته ، في حين نراه بعد سنوات يمدح الملك الوهابي عبد العزيز آل سعود .

كما أحصى عليه أنه لما ثارت ثائرة الناس عليه بسبب دفاعه عن المرأة، المنشور في المؤيد ، دفع بعض صحبه الى أن ينشروا في المؤيد أنها مدسوسة عليه ، وأخذ عليه مدحته للإنجليز في قصيدته المشهورة التي نشرها في ديوانه الكلم المنظوم . وكان الزهاوي قد حاول الدفاع عن هذه القصيدة بأنه إنما قالها قبل أن تحدث الحرب العالمية ويحتل الانجليز العراق .

وتقصى هلال ناجي الزهاوي في هذا العـام ، وقال أنه عاد فنشر القصيدة مرة أخرى أيام الاحتلال في جريدة العرب التي كان يصدرها الاستعمار البريطاني في العراق . وذلك بعد أن سبكها وغير بعض ألفاظها .. وكشف عن قصيدة أخرى في ديوانه مدح بها الانجليز أيضاً . وأخـذ عليه موقفه من ثورة العراق عام ١٩٢٠ ، وتقلبه في هجاء الثـوار حيناً ثم رثاء الشهداء حيناً آخر ، فضلاً عن تحيته الشعرية لأول مندوب سامي بريطاني الى العراق .

وكان تقديم ديوان « النزعات » في هذا الكتاب عمـلاً جديراً بالاشارة اليه ، فقد عرف أن هذا الديوان قد أودعه الزهاوي إبان زيارته لمصر عام ١٩٢٤ عند سلامه موسى ، الذي أعاره الى الدكتور زكي أبو شادي، ثم توفي سلامه وهاجر أبو شادي . وقد أراد هلال ناجي بعد قدومه الى القاهرة أن يستقصي الأمر في هذا الديوان ، حتى أتيح له أن يحصل على نسخة منه عام ١٩٦١ ، وقد أجرى تحقيقاً شاملاً حول نصوص الديوان للتأكد أنه من نظم الزهاوي وفق الأسلوب العلمي الحديث ، وقد أشار الى هذه المراجعات وقال أن الزهاوي أطلق عليه اسم « النزعات أو الشك اليقين » ، خلافاً لمـا أورده سلامه موسى « نزعات ابليس » أو أمين الريحاني « نزعات الشيطان » وقد صدّره بعبـارة غامضة : اختلف في صاحب هذا الشعر . فمن قائل أنه لجماعة من الفلاسفة كالرئيس علي بن

سينا ، أو ابن رشد ، أو ابن كمونة البغدادي . ومن قائل أنه لفيلسوف كان في زمن الغرور في حياته مادياً فقال ما قال من شعر كله شك ، ثم ظهر له الحق فعاد روحياً وقال ما قال من شعر كله يقين .. وقد عرض الكاتب لقضية شك الزهاوي ويقينه ، فأكد بأنه في شعره اليقيني يمتاز بصدق الشعور ، وفي شعر الشك يبدو عليه التكلف .

وبعد : فإن هذا الكتاب جهد طيب قدم للعمل العربي عملاً جديداً ، وأضاف الى المكتبة العربية ثروة نافعة تعين الباحثين وتكشف أمامهم الطريق الى كثير من الحقائق التي كانت مجهولة من قبل ظهوره .

● هلال ناجي : المحامي الدبلوماسي ، الشاعر العراقي ، من مواليد سنة ١٩٢٨ بغداد ، طوف بالعالم كله في رحلات متعددة ، وسفر لبلاده في إسبانيا وايران وتونس ، أقام في مصر فترة خلال حكم عبد الكريم قاسم فأصدر عديداً من المؤلفات والأبحاث ، وله دواوين شعر وأبحاث في الشعر والنثر والنقد الأدبي .

من مؤلفاته : الفجر آت يا عراق (ديوان) ، صفحات من حياة الرصافي ، شعراء معاصرون (بالاشتراك) ، حتى لا ننسى ، الشابي ، الزهاوي وديوانه المفقود ، محنة الفكر في العراق ، ساق على الدانوب (ديوان) ، شعراء اليمن المعاصرون ، شعراء تونس القدامى ، الخ...

(٣٨)

وديع فلسطين
قضايا الفكر العربي

الأستاذ وديع فلسطين : كاتب خصب الانتاج ، موفور الثقافة ، عميق أوجه الفكر ، من أبناء تلك المدرسة الوسطى التي تجمع بين القديم والجديد وثقافة الشرق والغرب على هدى وبصيرة ، وقلمه لا يتوقف عن الانتاج ولا يكف هو عن العمل في ميدان الفكر العربي بأصالة وإيمان وعمق . يكتب في الصحف العربية والافرنجية ، ويؤلف الكتب ، ويترجم الأبحاث التي تحتاج اليها ثقافتنا العربية في هذه الفترة الدقيقة من حياتنا الفكرية ، التي تحتاج الى مزيد من جهود المفكرين والباحثين .

وقد صدر له في القاهرة كتاب عن فن من فنون الصحافة لم يترجم فيه من قبل ، على كثرة ما ترجم عن فنون الصحافة المختلفة في الفترة الأخيرة . ذلك هو (استقاء الأنباء فن) حيث يرسم الكتاب المبادىء العامة لاستقاء الأنباء وروايتها وتحريرها ، ويضرب الأمثلة العملية لتطبيق هذه المبادىء .

والكتاب يمتاز بانفراده بالبحث عن « فن الأنباء وصناعة الخبر » ، وهـو ليس أول ما ترجم الكاتب ، الذي عني من قبل بترجمة عدد من الكتب في فنون مختلفة ، لعـل أبرزها ترجمته لمسرحية « الأب » للكاتب السويدي أوجست ستروند برج ، كما ترجم عدداً من القصص والفصول التي نشرتها الصحف خـلال خمسة عشر عاماً وان لم تجمع بعد في كتاب .

ووديع فلسطين « مفكر » منوع الخصائص ، متعدد الجوانب . وهو هنـا مترجم بارع قد أحاط باللغتين العربية والانجليزية إحاطة دقيقة . قـد أتيح له حظ وافر منها ، يوحي بالاطمئنان الى قدرته وعمقه ودقته في نقـل منطوق الآثار التي يترجمها ، مع المحافظة على روح كاتبها واتجاهاته ، وهو واحـد من مترجمينا المبرزين الذين استطاعوا أن يترجموا الىالعربية ومنها في سهولة واضحة .

ويرجع هذا في الأغلب الى أنه واحد من أبناء « مدرسة المقتطف » ، هـذه المدرسة البعيدة الأثر في تاريخنا الأدبي المعاصر ، والتي حملت لواء ترجمة العـلوم والآثار الفكرية الى الأدب العربي خلال ثمانين عاماً ، فقد اتصل منذ صدر شبابه بالأستاذ فؤاد صروف رئيس تحرير المقتطف ومحرره مع عمه الدكتور يعقوب صروف خلال أكثر من أربعين عاماً . ولعل اتصاله في مطلع شبابـه بمدرسة المقتطف هو الذي رسم مخطط حياته الفكرية الى اليوم والى أمد طويل . ولعل هـذا هو الذي كوّن له هذه الثقافة المنوعة الممتزجة القائمة على ذلك الأسلوب التقريري ، والتي تجمع بين الكتابة في الأدب والاقتصاد والعلم ومسائل الفلسفة وعلم النفس .

وإذا كنا الآن في صدد كتاب وديع فلسطين المترجم ، فإنـه من الخير أن نعرض لمذهبه في الترجمة الى اللغة العربية كما رسمه في كتابـه (قضايا الفكر في الأدب المعاصر) ويتلخص في : « أن باب الترجمة مفتوح على مصراعيه . ليس عليه حراس ولا عسس ، يلجه كل من شاء دون أدنى تحرج أو تردد . والكتب الغربية الجديدة والقديمة محيط لا قرار له . وهي بمادتها السمينة تغري لا بالقراءة

وحسب بل وبالترجمة أيضاً » .. ثم هاجم الترجمات الركيكة التي لا ترتفع الى المستوى الشافي شكلاً وموضوعاً . والتي تبدو عليها سمات العجمة ، وتشوبها أخطاء في النحو والصرف ، مما يورث عدم الثقة في الكتاب المنقول . كما ندد باختصار الترجمات اختصاراً يبعدها عن استيفاء شرائط الأمانة الأدبية ، مما يضطرب معه السياق ، وبذلك تكتنف الخلخلة جميع فصول الكتاب فضلاً عن الأغلاط الخاصة بالأسماء والأشخاص والأماكن والمواقع .

ويرد ذلك كله الى فقر في الخبرة ، إذ أنه لا يمكن تملك ناحية الترجمة الا بالمران الطويل سنوات عديدة ، شأنها في ذلك شأن غيرها من فنون الحياة ، لا يجيدها المرء الا بالمعاناة والمصابرة والمجالدة ، وكذلك يرجع النقص فى الترجمات الى افتقار الى الإلمام باللغتين اللتين ينقل من إحداهما الى الأخرى . وهو يرى في المترجم أن يكون بحراً في لغتين كي لا يتخبط في الفهم وبالتالي في الترجمة ، فأول الترجمة فهم ، ولا يسع أحداً أن يترجم شيئاً لا يفهمه فهماً صحيحاً . والفهم لا يتأتى الا بإجادة اللغتين اللتين يشتغل المترجم بها . والإجادة لا بد أن تشمل القواعد والبلاغة والآداب وأسرار اللغة بل شذوذها . لأن لكل لغة شذوذاً كما أن لها عبقرية . فالمؤلف الأعجمي حين يكتب مصنفاً ، يستعين بالاستعارات والتشبيهات وبالآثار الأدبية في لغته ، وبالأمثلة الشائعة على ألسنة بني قومه . وهو في ما يكتب يعكس ثقافات عصره وأساليب التفكير فيه وطرائق التعبير الشائعة . وهو قد لا يفصح في مواضع لأسباب يرتأيها هو فيلجأ الى الرمز . ويتكلم بعبارات تحتمل معاني متعددة . وكل هذا يجعل مهمة الترجمة مستعصية الا على الذين يجيدون اللغة المنقول عنها إجادة تامة ، والذين يجيدون اللغة المنقول اليها إجادة أتم ، فلا يقوى على الترجمة البليغة إلا بليغ في لغته يتحكم فيها كما يتحكم الطبيب في مبضعه .

ويرى : أن عيب الترجمات الحديثة هو إفتقار المشرفين عليها الى ما يمكن تسميته « بالضمير الأدبي » ، فالمترجمون يبيحون لأنفسهم حقاً لا منازعة فيه في

التصرف بالكتاب المنقول كيفما يطيب لهم . ومن ثم صارت أعمال الكتاب نهباً للعابثين من المترجمين الذين لا يرعون حرمة الضمير الأدبي .

ويرى : « أن الترجمة المعتمدة هي الترجمة الكاملة الأمينـة ، التي تضيف الى المتن شيئاً ولا تحذف منه شيئاً ، والتي يسمو بها المترجم أسلوباً ومنهجاً وتعبيراً وتدقيقاً ، فيحكي الكتاب في لغته الأم » . ويرى « أنه من الضروري أن يقوم بالترجمة من هم على درجة مماثلة في التخصص في هذا العلم أو ذاك الفن . فكتب الهندسة تترك للمهندسين ومؤلفات الطب للأطباء وهكذا . . »

ويكتب وديع عن خبرته في الترجمة فيقول : « لكي يكون المترجم مجيداً يحسن أن تكون الترجمة هواية وعملاً في آن ، ويحسن كذلك أن يكون المترجم نفسه أديباً ذواقه يجري قلمه على الطرق ليناً منصاعاً ، له حصيلة كبـيرة من مفردات اللغة ومترادفاتها ، وله حافظة تعينه على اختيـار العبارات الملائمة في الموضع الملائم » . ويرى أن غاية ما يطلب في الترجمة هو أن يجيء العمل المنقول صنواً للعمل الأصيل ونداً له وكفؤاً . ويرى وديع : أن الاهتمام في الترجمـة ينبغي أن ينصرف الى الكتب التي تعـد مراجع ومصادر قبل الكتب التي تعد ترفاً ذهنياً. ونستطيع نحن في ضوء هذه الآراء التي قدمها الكاتب وديع فلسطين أن نرجع الى كتابه المترجم ، فنجـده قد حققها على أحسن وجه ، وأنه كان صادقاً في تطبيق منهجه الذي رسمه للمترجم ، فقد سار على نفس المنهـج الذي رسمه بالنسبة للتخصص ، حين اختار وهو الصحفي — كتاباً في فن من فنون الصحافة — وأنه اختار موضوعاً ليس له مراجع في اللغة العربية ، وقد توافـر لكتابه الأمانة الأدبية ، وحقق مذهبه في الترجمة الذي يدعو الى أن يكون المؤلف والمترجم على درجة متماثلة في التخصص ، كما أنه توافر له في الترجمة مـا اشترط في المران الطويل ، وتملك ناصية اللغتين وفهم دقائقها و « شذوذهما » .

* * *

ولا يمكن أن ننسى ونحن نتحدث عن « وديع فلسطين » المـترجم الذي يعرف حاجات العصر أن نذكر الجانب الكبير من أثره الفكري ، وهو جانب

« الكتابة » في ميدان النقد والإنشاء والدراسة الأدبية ، فهو منذ اشتغاله بالصحافة سنة ١٩٤٤ ، وهو دائب الانتاج والبحث. وقد نشرت له صحف مصر والمهجر وبيروت ودمشق والمملكة العربية السعودية والعراق وباكستان والأردن وفلسطين وتونس والمغرب والكويت والبحرين عديداً من الأبحاث والمقالات والمراجعات ، وقد بلغت هذه الآثار آلافاً متعددة ، لا ندري متى سيسويها صديقنا كتباً ومؤلفات ، ينتفع بها من لم يتحقق له قراءتها في الصحف التي نشرت بها .

وربما كان وديع فلسطين يلقى من التقدير في دوائر الأدب في هذه العواصم العربية أكثر مما يلقى في القاهرة نفسها ، ولعل سر هذا هو استعلائه عن مواصفات النقاد والكتاب ، وبعده عن مجالات الشهرة التي تسلط الأضواء على الكتاب الذين يعملون في الصحافة ، وهم ليسوا في الحقيقة أكثر الكتّاب أصالة أو أعمقهم أثراً .

وللأستاذ وديع جوانب متعددة لا بد من الاحاطة بها لكي تكتمل صورته الأدبية ، فهو متصل منذ وقت بعيد بأعلام الفكر العربي ورواده الأول ، وخاصة مدرسة الشام وكتّابها المبرزين أمثال : خليل ثابت وخليل مطران ونقولا الحداد وفارس نمر ويوسف نحاس والأمير مصطفى الشهابي. وله صداقات فكرية قامت بالمراسلة بينه وبين عديد من شعراء وكتّاب المهجر العربي أمثال : الشاعر القروي وجورج صيدح .

ويمكن القول في هذا المجال أنه لا يمكن أن يذكر كاتب أو شاعر من أعلامنا الا وقد عقد معه صلة فكرية بالمراسلة أو باللقاء – خلال رحلاته المتعددة الى العالم العربي وأمريكا وأوربا – ونشأت بينهما صلات فكريه ، ودارت بينهما مناقشات وأبحاث ، تكوّن عند كاتبنا ثروة فكرية من الرسائل والخطابات .

ولقد اشتغل وديع فلسطين بالصحافة فترة طويلة ولا زال متصلاً بها ، ومع ذلك فإن الصحافة لم تستطع أن تجرفه أو تجعله ينحرف عن هدفه الاساسي

كمفكر وباحث . وقد عمل في الصحافة على هذا الأساس ، فقد بدأ عمله ربيع ١٩٤٥ كرئيس لقسم الأخبار الخارجية في جريدة المقطم ، ثم لم يلبث أن كتب افتتاحية المقطم بدلاً من خليل ثابت. واستطاع بقدرته الفكرية ومرونة أسلوبه، وقراءاته المتصلة ، وعمق فهمه للتيارات السياسية والاجتماعية من أن يملأ هذا المركز الضخم خلال خمس سنوات كاملة (١٩٤٧ — ١٩٥٢) ، حين توقف المقطم عن الصدور ، ومع ضخامة هذا الجهد في كتابة الافتتاحية اليومية فإنه لم يتوقف عن إعداد بحوث أخرى منوعة في الاجتماع والاقتصاد والأدب .

وقد عمل وديع بالتدريس ، حيث اشتغل بتعليم الصحافة في الجامعة الأمريكية ، وواظب على كتابة أسبوعيات جريدة الإنذار سنوات متعددة . وكل هذا يدل على طاقات ضخمة في أعماق شخصية هذا الباحث المفكر ، فإذا راجعنا كتابه (قضايا الفكر في الأدب المعاصر) وجدنا « الناقد الأدبي » لحصاد إنتاجنا المعاصر كله ، على نحو من الإنصاف لعظمة أمتنا ، وتطلع الى عمل عظيم يليق بمكانة اللغة العربية ، ولذلك فهو قد هاجم الأخطاء والانحرافات التي أصيب بها الأدب العربي المعاصر ، ورسم تخطيطاً شاملا لهذه الجوانب يمكن الانتفاع به الى أقصى حد في خلق « أدب عربي جديد » يتفق مع انتفاضتنا القومية الكبرى . وهو في مجموع آرائه معتدل بعيد عن الانحراف ، لا تجرفه على تيارات اللامبالاة الأدبية ولا مذاهب الشرق أو الغرب ، وإنما يصدر عن إيمان بشخصيتنا العربية القوية الملامح ، التي تفتح أبوابها للثقافات المختلفة لتأخذ منها ما يزيد هذه الشخصية قوة وحياة ويدفعها الى الأمام .

فهو غيور جداً على اللغة العربية حريص على عربيتها بشكل ينحو باللائمة على التيارات التي تحاول أن تغلب العامية أو الشعر الحر ، مهاجماً في عنف الذين يتساهلون في قواعد اللغة العربية أو يزدرونها . وهو في استقامة فكره لا يلبث أن يهاجم الاتجاه الذي دعا الى اتخاذ الحروف اللاتينية ، وأنحى باللائمة على ضعف النقد وانحراف رسالته ، وقد وصفه بالسطحية والتحيز ، ودعا الى

التوسع في الترجمة لتغطية القطاعات التي لا زالت في حاجة الى مراجع . وهو في نقده لا يأخذ أسلوب الهجوم اللفظي ، ولكنه يعمـــد الى موضوعه فيواجهه مواجهة موضوعية ، ولا يلبث بعد أن يصف الداء أن يرسم صور العلاج ووسائله على نحو يدل على خبرة ومراجعة واحترام للقارىء وعناية بقراءة كل مـا كتب في موضوعه قبل أن يتعرض له .

وإذا كانت آراء وديع فلسطين في هـذا الكتاب لم تدرس على النحو الذي تستأهله ، إلا أنها ستظل « علامات الطريق » تهدي كل سائر في ميـدان النقد للأدب العربي المعاصر .

وبعد ، فهذه صورة سريعة لشخصية مفكر عربي ممتاز ، جمع بين التبريز في ميدان الصحافة والكتابة والنقد والترجمة ، وهي شخصية ضخمة وخصبة تحتاج الى مزيد من الدراسات ، وهي ما زالت تشق طريقهـا الى مكانها الحق ، ومـا زالت ترتجى منها أعمال أدبية أخرى كبيرة ، تكون بعيدة الأثر في أدبنا العربي المعاصر .

● وديع فلسطين : مصري من مواليد السودان ، تخرج من الجـــامعة الأمريكيـــة بالقاهرة ، ورأس تحرير جريدة المقطم ، وأشرف على تحرير مجلة قـــافلة الزيت ، وهو مؤلف وناقد ومترجم ، له أسلوب مشرق .

من مؤلفاته : استقاء الأنباء فن (ترجمة) عن ستانلي جونسون ، الأب (قصة) مترجمة عن سترندبرج ، وقـــد شارك في تأليف الموسوعة العربية المعاصرة .

(٣٩)

الدكتور يوسف عز الدين
الأديب العربي والثورة

تتكشف صفحات الأدب العربي المعاصر عن ملامح جديدة تضفي على كتّابنا ومفكرينا قوة وحياة ، وفي جميع أقطار الأمة العربية أعلام كثيرون تزداد شخصياتهم عمقاً واتساعاً . وفي العراق يبرز سؤال هـام بعد صدور كتاب « شاعرية يوسف عز الدين » ، هو : هل هو شاعر فحسب ؟ وعندي أنـه ليس كذلك ، وأن يوسف عز الدين مفكر عربي ، له جوانبه المتعددة ، والشعر جانب من جوانبه . ولقد حاولت أن أجد في كتاب (خضر عباس الصالحي) عرضاً لهذه الجوانب : جانب المفكر والناقد والصحفي .

أما جانب الناقد فيه فيكشف عنه كتابه الضخم : « الشعر العراقي الحديث وأثر التيـارات السياسية والاجتماعيـة فيه » ، وكتابـه « شعر العراق الاجتماعي » . والتحقيق العلمي يكشف عنه دراسته لمخطوطة « شعر الأخرس». وجانب الصحفي يكشف عنه إشرافه على مجلة « الكتاب » ومجلة « أقلام » .

وحياة الدكتور يوسف عز الدين لم تكن في يوم من الأيام حيـاة شاعر ،

ولكنها حياة مفكر عربي مكافح . عاش أيامه بين القاهرة ولندن وبغداد ، في جو الحركة الوطنية العربية مؤمناً بها . وقد كونته في الأصل بيئـــة العراق العميقة الايمان بالقومية العربية ، الصادقة اليقين بالوحدة والحرية .

وآية ما تذهب اليه من كفاحــه الوطني ، أن أحيل الى المجلس العسكري أيام نوري السعيد ، وسجن لأنه ألـّف جمعية سرية لتحقيق الوحدة العربية .

ومهما قيل من اتساع نطاق شعره الوجداني والعاطفي ، فإنه ظل يعبر عن مشاعره الوطنية في عديد من قصائده . من أبرزها قصيدته حرية الأوطان التي حمل فيها على الاستعمار . ولم يقف أفقه عند بلده العراق ، بل عاش قضية الحرية في العالم العربي كله ، يتمثل ذلك في قصيدته (أيها النيل) وفي (الجلاء) وفي قصيدته عن مراكش وأخرى عن الجزائر .

وحياة (يوسف عز الدين) صورة لهـذا الإيمان الصادق بالفكر ، فقـد استطاع وهو المدرس الذي يعمل في إحدى قرى العراق أن يكافح حتى يصل الى أرقى الدرجات الجامعية . وأن يرقى الى مركز الصدارة في الجامعة العراقية والمجمع العلمي وجمعية المؤلفين والكتّاب العراقيين . وقد لقي في هذا الطريق الطويل المشقة ، حتى أنه فكر في ذات يوم وهو في لندن وقد انقطعت بـه الموارد أن يعود ، ولكنه حزم أمره واحتمل وصبر حتى مرت الأزمة ونجا من الفرار .

وبالرغم من اتصاله بالبيئات الأجنبية فقد ظل حفيظاً على أمانة أمته العربية وقيمها ومقوماتها، ينبض بذلك شعره ونثره. وهو يفهم رسالةالأديبالعربي فهماً عميقاً واضحاً ، يفهم هذه الرسالة على أن الأدب هو قائد الأمة وموجهها نحو التقدم والخير والحضارة، لأنـه الصدى الصادق لرغبات هذه الأمـة ، والسجل لتياراتها النفسية واتجاهاتها الفكرية .

وعنده أن الأدب العربي أدب تطور مع الزمن في أسلوبه وحاجاته وطاقاته المختلفـة . فكان خير هــاد ونعم مرشد وأجمل مصور لمآثر الشعب العربي وأحزانه ومشكلاته .

وعنده أن هذا التطور قد ظهر عبر القرون واضحاً ، فقد نهضت الأمة العربية من سباتها وأيقظتها قوى الاستعمار التي بدأت تسحق أمانيها وتلوك أحلامها وتستهين بكل عربي وبكل مقدس لديها .

ويصور يوسف عز الدين كيف استطاع الأدب العربي المعاصر أن يثير كفاحاً مريراً ضد الفكرة الاوربية التي تنادي الفن للفن . وكيف سار نحو خلق جيل مؤمن بأن رسالة الأدب خدمة الشعب العربي والتعبير عن آماله وحاجاته الضرورية ، لأن الفن جزء من حياة الشعب ، والشعب هو الذي يملي رغباته على الأدب الشعبي الخلاق ، ليدعم النهضة الفكرية ويعيش في مشكلات الأمة بكل كيانه . ومن هنا أخذ الأديب يخرج من برجه العاجي الى تصوير صادق لحاجات الحياة ، وهو يرى أن الأدب الخالد يستند بالدرجة الاولى على عمق التصوير وسعة الأفق والموهبة الخلاقة . وأن رسم البيئة المعاصرة بصدق وتصويرها بأمانة وعمق وتفسير البطولة الشعبية الحقة تفسيراً صحيحاً يكسب الأديب الخلود . ومن رأيه أن الكاتب العربي هو ذلك الذي يملك العقلية الجبارة على تمثيل الجديد الذي يمر بحياتنا ، ويصور البيئة التي يعيش الانسان العربي فيها ، فيسجل حوادثها العميقة ويصور سكونها في واقعية .

وهو يدعو الأديب العربي لأن يبني بناء راسخ الإمكان للمستقبل العربي ، ويطالب بتوسيع نطاق أدب الأطفال بما يحقق لهم فهم الحاضر العربي ، وحتى تتسم حياتهم بالأمل الباسم المشرق . وفي مجال النقد يقول : « لا مشاحة أن النقد في بلادنا متخلف ، لأن رواسب الماضي التي تملأ نفوسنا بالحقد على ما أصابنا من محن ، وما عصف بأمتنا من أحداث ، وما أصابنا من جزع وعري وخوف واضطهاد وركز في نفوسنا ثورة عارمة ، لم تكن تقدر على إفراغها إلا بعنف وقوة » من أجل ذلك يرى أنه على الناقد الحديث دراسة مشكلات الأدب الحديث وما تحتاجه الأمة ، وما يتطلبه من أمان عذبة وأن تطبق عليها تجارب النقد الثوري الحديث في سبيل ازدهار النقد والتأكيد على

الحاجات المسلحة المعاصرة . وإبراز الظرف العربي الحاضر لكي نفوز بتقدم نقدي » .

ورسالة الأديب عنده لا تقف عند هدم المثل القديمة من الذهنية الشعبية ، بل عليه أن يسير ليبني من جديد ، ويحمي الثورة الفكرية بدراسة كل شيء جديد في ظروفنا المتنامية ومجتمعنا المتوثب ، وعلى الأديب أن يحارب الظلم والتسلط في مختلف أنحاء العالم العربي ، لأن التسلط الفردي يقضي على الروح العربية ، الشيء التي لا تستكين إلا للحق والخير . وما تغنت في أحلامها إلا بالحرية السمحة في مختلف نواحي وجودها ، وألا يسمح الأديب العربي بعبادة الشخص مها كان له من أثر في الحياة الفكرية والسياسة الأدبية ، لأن العربي الأصيل بطبعه يكره عبادة الأفراد ولا يؤله الشخصيات . لأن عبادة الشخصيات ليست طبيعة العرب ، إنما جاءتهم من القيادات الأجنبية والحضارات الغربية .

وليس أصدق دليل من أصالة الروح الوطنية للمفكر العربي في يوسف عزالدين من فرضه رسالة عن المعاني الوطنية في البلد الذي كان يحتل وطنه ويعبر على عمله هذا ، ويعده من أكبر أعماله في مجال الفكر والنقد ، وقد صور إتجاهه الى هذا العمل حيث بدأ براجع الصحف العراقية من صدورها ويتخذها قاعدته الأولى في البحث ، لأن ما ينشر فيها لا يغير متى اختلفت سياسة الحكومة واتجهت وجهة جديدة . ثم سافر الى البصرة ، ووجد في مكتبة باش أعيان بعض هذه الجرائد يقول : « وكنت خلال عملي في تفحص الجرائد أبعث برسائل دورية للشعراء صغيرهم وكبيرهم ومغمورهم والمشهور منهم ، وأتصل بمن أعرف منهم – وأعرف جلهم – كما أعلنت إعلانات متنوعة في الجرائد والمجلات ، ولما أنجزت ما قدرت على إنجازه في العراق سافرت الى تركيا وبحثت في مكتبات الآستانة . وذهبت الى باريس وفتشت في المكتبة الوطنية ومكتبة فرسايل ، وفي أثناء إقامتي في انكلترا بحثت في مكتبة المتحف البريطاني » .

وبعد أن أتم هذا الجهد الضخم في جمع الشعر العراقي الوطني، بدأ في الكتابة باللغة الانجليزية . فكانت مشقة جديدة وجهداً عميق الأثر ، وخير معبر لهذا الجهد ما كتبه لصديق في أول أيام وصوله الى لندن ، قال له : « أكتب إليك والقلم يهتز فزعاً من عميق مشاعري وحنيني الى الوطن ، وسأهتز منه فزعاً عندما أكتب بعد ذلك باللغة الانجليزية . فقد كانت الترجمة وخاصة الشعر عسيرة عليّ ، لأني حاولت نقل أحاسيس الشاعر كما أتحسسها على أن أحافظ على الذوق الأوربي ، فحاولت أن أترجم حرفياً فلم يكن المعنى واضحاً ، ثم أردت أن أترجم المعاني . وكان من العسير عليّ ترجمة التورية والجناس والمحسنات اللغوية الاخرى بسهولة ويسر . وأخيراً فرجت بين الطريقتين فاستقام لي بعض الأمر .. »

وأشار الى أي مدى كان البحث شائكاً فقال : « وأنا عربي وأبحث مشكلات وطني ، وأكتبها للإنجليز الذين سيقررون مصيري ومستقبلي . وطالما نصحت أن ترك هذا البحث وأن لا أتطرق الى هذه المشكلات، وأن أخفف من حقيقتها ، ولكني أبيت الا المضي في الطريق السليم وإبراز الحقائق .. »

وهكذا تتكشف صورة طالما اغضى عنها الباحثون ، هي صورة يوسف عز الدين الكاتب المفكر بعد أن شغل الناس طويلاً بشخصية « الشاعر » .

● الدكتور يوسف عز الدين : وكيل كلية الآداب بجامعة بغداد ، وأمين عام المجمع العلمي العربي العراقي ، شاعر تخصص في دراسات النقد والتاريخ الأدبي .

من مؤلفاته : التيارات الأدبية في العراق ، خيري الهنداوي : حياته وشعره ، الشعر العراقي الحديث ، مخطوطة شعر الأخرس (تحقيق) ، لهاث الحياة (ديوان) ، الشعر العراقي : أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر ، في ضمير الزمن (ديوان) ، ألحان (ديوان) .

الفهرس

للمؤلـــف

(١) « موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر » :

(١) النثر (٢) الشعر (٣) القصة (٤) اللغة العربية (٥) أدب المرأة (٦) المعارك الأدبية (٧) الأدب العربي في معركة المقاومة والتجمع (٨) الصحافة السياسية (٩) الترجمة (١٠) الفكر العربي المعاصر (١١) الفكر والثقافة في المغرب العربي (١٢) معالم الفكر العربي المعاصر . (١٣) الثقافة العربية المعاصرة (١٤) معالم الأدب العربي المعاصر (١٥) الشرق في فجر اليقظة (١٦) صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر (١٨) أعلام وأصحاب أقلام (١٨) من أعلام الأدب والفكر (١٩) من أعلام الحرية .

(٢) الأعلام الألف (صدر منه ٣ أجزاء) .

(٣) أضواء على تاريخ الاسلام .

(٤) تراجم مفردة : أحمد زكي (شيخ العروبة)، عبدالعزيز جاويش ، فريد وجدي ، زكي مبارك .